الى سعاد الصباح

المرأة بين فواصل الكلمات

فاطمة الجامعي الحبابي

منشورات النور

إلى سعاد الصباح
المرأة بين فواصل الكلمات

الى سعاد الصباح
المرأة بين فواصل الكلمات

فاطمة الجامعي الحبابي

منشورات النور

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
2005

دار النور - بيروت

طبع على مطابع دار صادر تأسست سنة 1863
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

عزيزتي الدكتورة سعاد الصباح :

ها قد مرت قرابة ربع قرن على تحابنا في الله وزمالتنا في الفكر والعمل الثقافي. أتذكرين أول لقاء شرفت فيه بالتعرف عليكِ؟ . كان ذلك في قاهرة المعز بإحدى قاعات المؤتمرات بفندق هيلتون النيل، حيث عقد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة حول موضوع «الأصالة والمعاصرة» .

وتشاء الصدفة أن يتجاور مقعدانا خضوعاً للترتيب الهجائي الذي اختاره المنظمون للندوة في صف أسماء المشاركين. جلست فإذا بجانبي شابة جميلة الملامح، شعرها الأسود المنسدل على الكتفين، يشع من عينيها الحوراوتين بريق ذكاء حاد، ترتدي بذلة صفراء هادئ لونها في انسجام مع سمرتها الخفيفة. تبادلنا التحية، وانطلقت أعمال الندوة فكانت لك تدخلات أثارت انتباهي بما

تنبئ عنه من تضلعك الكبير في ميدان الاقتصاد وخبرتك الواسعة بأوضاع الأمة العربية وسياسات زعمائها . لم تكن تعوزك لا الجرأة لانتقاد هشاشتها وتكريسها للديكتاتورية ، ولا بعد النظر لإبداء آراء ومقترحات لإقلاع العرب من حظيرة التخلف واللحاق بالركب الحضاري الذي يحث الخطى نحو الأمام . ويحل اليوم الثاني للندوة فيشيع خبر رغبة بعض الأصدقاء المنتدين في التمتع بقراءات شعرية للشاعرة الدكتورة سعاد الصباح بعد تناول وجبة العشاء بالقاعة الفلانية في الفندق . تحلقنا حولك في أمسية حميمية حرك خلالها مبادئنا والتزاماتنا العروبية صداح صوتك الجهوري المفعم قوة ورقة وإلقاؤك المتحمس لبعض قصائدك القومية الثورية ، وهزت مشاعرنا وإحساساتنا عذوبة تغريدك بقصائد أخرى غزلية عاطفية ، وشدتنا إليك ، نجمة لتلك الأمسية ، براءة ملامح وجهك الملائكي ووداعته التي تنطق بما يسكن قلبك من رحمة وحنان وعطف وإخلاص في محبة بني البشر وما يجندك مواساة للمحتاجين منهم والدفاع عن مستضعفيهم .

اكتشفت ليتلها جانبا آخر للمفكرة المثقفة ، اكتشفت الشاعرة الفذة المناضلة والأنثى المتميزة الأصيلة ، وكأنك تشكلين مفارقة لامرأة عربية استثنائية في قدراتها الإبداعية العاطفية والفكرية التنظيرية ، واستثنائية أيضاً في سلوكاتها الإنسانية النبيلة وأخلاقياتها

الرفيعة.

وأتبادل بعدها، أنا وأستاذي شريك حياتي محمد عزيز الحبابي، رحمه الله، حديث الثناء على قدراتك وخصالك جملة وتفصيلاً، ولم نتوان عن تهنئتك والتعبير لك عن مشاعرنا وتقديرنا لك وإعجابنا بكفاءاتك الفذة. ودون مزايدة في القول، لم يكن تقديرك لنا وإعجابك بتدخلاتنا أقل. وسعد كل منا بالفرصة التي سنحت له بالتعرف على الآخر. وتنتهي الندوة بعد يومها الثالث، وأعود إلى المغرب ومعي زاد الافتخار بمثقفة إنسانة زانها خلق عظيم وتواضع كبير، وليس لي أي علم بانتمائك إلى أسرة آل الصباح الحاكمة بالكويت ولا أنك شيخة ولادة وزواجاً، سيدة بيت الشيخ عبد الله المبارك أحد أعمدة الأسرة وقائد أركان قواتها المؤسسة لدولة الكويت، تحظين بثقل الانتماء الأسري ووجاهته بما أنت أهل له وأكثر، انتماء وخلقا وجاها. لم يكن لي علم بذلك وآسف لأسبابه التي يتصدرها ما كان زمانها من ضعف الصلة الفكرية الأدبية بين مشرق الأمة العربية ومغاربها، إذ لم يكن يصلنا إلى المغرب من إنتاج أهل المشرق إلا القليل ولا يكاد يصل من إنتاج المغارب إلى المشرق شيء، وأيضاً لأني كنت منغمرة ككل طلاب الجامعات، في تهييئ الامتحانات ولم يكن لنا من الوقت ولا من الظروف الثقافية السائدة آنذاك ما يخولنا التعرف على

نجوم الإبداع العربي . ولا أتردد في أن أقول لعل السبب الأساسي هو أنك لم تكوني بيننا في الندوة منعزلة كما عودنا على ذلك عدد من الأمراء الذين يشاركون في بعض اللقاءات الفكرية ، حيث ينعزلون عن الأعضاء المشاركين ، فهم معهم وليسوا معهم في آن واحد . لم تكوني تنعزلين عنا في برج مقصورة خاصة بمجرد ما تنفض الجلسات ، بل تظلين مع المنتدين تتحادثين معهم في قضايا فكرية وثقافية ومجتمعية بعفة وتواضع وسلوك عادي خالي من التكلف ولا يخضع لأي بروتوكول ، تتبادلين الرأي مع الأعضاء وتسألين عن زملاء لك في بلد كذا وعن أخبار كتاب وشعراء ممن تحفظين لهم بكامل الود والتقدير . هكذا لم يكن يبدو منك أو عليك تميز ما مبعثه انتماؤك الأسري وموقعك الاجتماعي .

احتفظت بانطباعات جد متميزة عن امرأة عربية شاعرة ومثقفة بدت لي ، بالفعل ، استثنائية في إنسانيتها وكفاءاتها وخصالها .

وتشاء الصدفة ، مرة أخرى ، أن نلتقي ثانية بعد شهور قليلة بعمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية في أحضان منتدى الفكر العربي الذي يرأسه سمو الأمير الحسن بن طلال فأشرف بالمناسبة بالانضمام إلى مجلس أمنائه بعدك ضمن أعضائه . ولم يكن ليغيب عن ذهني هذه المرة أن السيدة الأُولى بمجلس أمناء المنتدى شيخة كويتية التي هي أنت الدكتورة سعاد الصباح ، لكن ذلك لم يغير

من الأمر شيئاً ، بل كان إصرارك على التعامل مع جميع المشاركين ببساطة وتواضع يزيدك رفعة في عيني وفي أعين كل من شرف بالتعرف عليك . ونحظى بعدها بالتلاقي ببعض العواصم العربية ، تحضرني بعض مناسباته كتلاقينا في المؤتمر التأسيسي للمجلس العربي للطفولة والتنمية ، وتجدنا ، أنت وأنا ، ضمن أعضاء مجلس أمنائه . وأسعد برؤيتك من جديد بالرياض عاصمة المملكة العربية السعودية عندما استَضاف مجلس تعاون دول الخليج العربي منتدى الفكري العربي في ندوة مشتركة عقداها معاً . ثم تتوالى اللقاءات على وتيرة غير منتظمة ، تتقارب أحياناً وتتعذر لسنوات طوال أحياناً أخرى ، أظل خلالها أتابع ما جد في عالم إصداراتك من دواوين شعرية وأبحاث ودراسات اقتصادية وسياسية ، يزيدني ما يطبعها من جرأة أدبية وإخلاص ووفاء لوطنك الكويت ولمبادئك السامية ومواقفك التي لا تخشى في الحق لومة لائم ، وصدق ما يخصه قلمك ، ورقة شعرك وقوته وعمقه وثورته ، كل ذلك يزيدني بك إعجاباً ويشدني إلى قراءة ما أستطيع الحصول عليه من تلك الإصدارات . أذكر سعادتي بالسهر معك في كتابك «هل تسمحون لي أن أحب وطني» وديوانك «برقيات عاجلة إلى وطني» اللذين وجدت فيهما الدكتورة سعاد الصباح التي تفخر بها الأمة العربية ، سعاد الأصالة والصدق والوفاء والتضحية بالغالي والنفيس في سبيل مبادئها الوطنية

والقومية والإنسانية التي تجلت في دفاعك عن وطنك الكويت بعد الغزو الغاشم واجتياح جيش صدام له.

وينزل بك سوط القدر المحتوم ليختطف منك المنون «فارسك المغوار» زوجك ومعلمك الشيخ عبد الله المبارك، في آب سنة 1991، وأبادر لأقاسمك هاتفياً رزء المصاب الجلل، ويعجز لساني وقلمي عن التعبير لك عن وقع هذا الحدث العظيم بكل أحجامه عليّ وعلى الأستاذ الحبابي لما نكن لكما من كامل الود والتقدير. وتطلع مرثيتك الخالدة «آخر السيوف» لأجد فيها ما كان فوق الركح جاثماً خلف الستار ينتظر حلول الواقعة، أجد فيها المرأة التي هي أنت، صنعة من كان لها تاجاً وكانت وظلت بعد غيابه الجسدي عنها له تاجاً، تاج «فارس الفرسان» و«النسر المضرج»، «شيخ العروبة» و«الخيمة الأصيلة». وكما توقعت، بفضل الله ومنته، ظل بك كل شمل ملموماً، كما ظل «صوت البلور» و«الجزيرة» و«القبيلة» و«الشاطئ المسحور» لك ربيعاً «مورداً مزهراً» وحدائق وعبيراً يرفل فيها ومعها أنجالكما الأبرار، في حلة مجد خير خلف لخير سلف ناهجين محجة الفلاح دنيا وآخرة، في حضن بلدكم الكويت الآمن من كل عاصفة هوجاء ومن كل جبار آثم يطلق أزيز صفارة التخريب، في حضن بلد أصيل لم تزحزح الأعاصير والنيران، مهما قوي سعر وخساسة موقدها، أقدام

فرسان أمراء يتبوءون بأخلاقهم وإنسانيتهم منارة العز والصولة، ولم يدنس طهارتهم خداع متنطع متبهرج تعوزه الأخلاق السامية والأصالة، عمي قلبه عن طريق الفلاح فشق مسلك الخديعة وعدم الوفاء والاعتراف بالفضل لمن وهبوه سلماً تسلق أدراجه فسما عالياً دون استحقاق. لكن الله يمهل ولا يهمل إذ بان الغادر على حقيقته الوحشية في ترقب فرصة الانقضاض على الفريسة، وأدين كما دان!.

في مسلك العز والسمو سرت متبوئة، بعد غياب شريك حياتك، أعلى المقامات التي مهدها لأبنائك ولأسرتك الأصيلة المحتد تعاشركما في مقامات الطهر والعفة وإخلاصكما الود والعمل لصالح بني الإنسان، وظل قلمك ومسيرتك النضالية الرصينة تاج رفعة وسؤدد، تشكل كل جوهرة فيه فانوساً ينير الدروب الوعرة التي كان عليك أن تجتازيها في تلكم المرحلة الصعبة، والمنعرج الخطير في حياتك أيتها الإنسانة الفذة، مرحلة دخولك نادي الترمل بكل ظلماته، النادي الذي لم أتأخر كثيراً في اللحاق بك إليه في آب 1993 يوم اختطف يد المنون أستاذي وأب وحيدي الفقيد المرحوم محمد عزيز الحبابي، واقتعدت بدوري مثلك مقعداً في جناح الإقامة الدائمة بكل ما أحمله من أحزان وآلام ومشاكل تخبطت فيها قبل حلول أجله المحتوم. وأذكر أنني وقتها لم أتردد في الكتابة إليك

أبثك شكواي وأحزاني ، إذ كنت الوحيدة في حياتي التي أطمئن إلى البوح لها بما ضاق له صدري مما لاقيته من معاملات سيئة لا إنسانية من أحد الأطباء المغاربة لا ضمير له ولا وفاء لقسم أبيقراط الذي رفع يده اليمنى يردده أمام الملأ تتويجاً لدراسته بكلية الطب في إحدى أمهات الجامعات الفرنسية ، أدى القسم عن باطل لا عن صدق بما كشفت عنه معاملته للصديق الذي أحبه بكل جوارحه ساعة احتاج إلى مساعدته له .

كتبت إليك ، عزيزتي ، أشكو لك آلامي مما عانيته أثناء مرض أستاذي خلال ما يزيد على السنتين بالتنقل في مصحات المغرب ومستشفيات باريس لتعب أصيب به في دماغه أبطأ قدرته على الحركة وأضعف طاقته على التفكير والكتابة قياساً بما كان قد تعود عليه قبل. أبلغتك باعتزاز وفخر تفضل جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه ومنته عليه حيث تحمل نفقات علاجه بالمستشفى الأمريكي بباريز ، واعترافي بمنته وكرمه ودعائي له ولأسرته الشريفة بالحفظ والرعاية الإلهية. كما حرصت على أن أسدي لك جزيل الشكر وأدعو لك ولذويك من كل قلبي بموفور الصحة والعافية لمساهمتك، أنت شخصياً، من حيث لم يكن لك علم بذلك في التخفيف من أزمتي المالية أثناء إقامتي مع الأستاذ بباريز إذ، كما ذكرتك بذلك، كنت قد تكرمت

قبل مرضه بحوالي سنة فبعثت بمبلغ مالي لمساندة ترشيحه كمفكر عربي لجائزة نوبل، إلى لجنة المساندة المكلفة بالإشراف المعنوي والإداري لتعزيز هذا الترشيح، فقررت اللجنة مشكورة صرف ما تبقى في صندوقها من ذلك المبلغ لتسديد كلفة ومصاريف إقامتي أنا وعادل ابنه معه في باريز، إذ لولا ذلك المبلغ وقرار اللجنة ما كان لمرتبي كأستاذة ولا لدخل أستاذي الذي كان قد أحيل على التقاعد أن يسمح لنا بإقامة معه والوقوف إلى جانبه والسهر على صحته بما يتطلبه ذلك من نفقات أساسية لا تدخل في نطاق ما تفضل القصر الملكي بتسديده مباشرة للمستشفى، من ذلك بعض الأجهزة الطبية والأدوية التي كنا ملزمين باستجلابها من فرنسا إلى المغرب حينما اضطررت للخضوع لأوامر جائتني من المغرب ترغمني على الرجوع إلى الوطن بمريضي إلى مستشفى ابن سينا بالرباط، وإيقاف العلاج هناك. وأشهدتكَ على أنني إن اضطررت إلى الاستسلام إلى أوامر الطبيب المغربي الجائر ورضيت بالقدر فإنني أبكي زوجي وسأظل آلم لفراقه في ظروف لم أطمئن إليها لجناية من كان يكن لهم كامل الود والتقدير، فلعلهم يحسون يوماً ما بالندم وبثقل الذنب الذي اقترفوه في حقه وحق أسرته، وتصرفاتهم اللاإنسانية.

تلك كانت شكواي إليك، عزيزتي الدكتورة سعاد الصباح،

وذاكَ بَوْحي الذي خفف من رزء ما كنت أنوء تحته، وكانت كلمتك المواسية الطيبة الحكيمة التي شدت أزري هي نصحي بنسيان ما مضى، ودعوتي إلى التشمير على ذراعي لأخوض ما ينتظرني من معارك الحياة في حلتها الترملية الجديدة. وغرقت كل واحدة منا في ملتزمات عقد الترمل ببنوده وإسقاطاته الأسرية والصحية والمجتمعية. ويكون إيماننا بالله وأنواره التي نفثها في قلبينا، لرضانا بقضائه وتفانينا في محبته والإخلاص في عبادته، ضياء غمر نادي الأرامل بكل المقيمات فيه والزائرات له، وسلاحاً للصمود في وجه قساوة بنوده. وبمشيئة الخالق تمت الانطلاقة مع مسيرة الحياة في دروبها وأغوالها على بصيرة وهدى منه جل علاه، وطرأت أحداث وتمت إنجازات لم تزدها سيرورة الزمان وتعاقب سنواته وعقوده سوى عطاءاً وإثماراً، ولم تزد عزيمتنا سوى قوة وصبراً على المكابدة.

وتمر سنوات عجاف حبلى بالمشاكل الصحية حالت لفترة طويلة دون أي اتصال أو لقاء بيننا، ولكنها لم تحل دون التفكير فيك والتساؤل عن أحوالك والتشوف إلى إنتاجاتك الفكرية والشعرية والرغبة في متابعة نشاطاتك الثقافية والنضالية. ويحل شهر يوليوز 1997، وتحلين مع بدايته، أيتها الشاعرة الفذة، بمدينة فاس ضيفة شرف على مهرجان ربيع فاس للإبداع الشعري،

وأنا بمدينة الرباط غارقة في جنازة أمي رحمها الله التي انتقلت إلى الرفيق الأعلى يوم الحادي عشر منه، ولم أعلم بذلك إلا عن طريق تصفح صحيفة الاتحاد الاشتراكي، حيث وقع نظري على خبر يشيد بأمسيتك الشعرية التي اهتزت لها مدينة فاس ويخبر بمغادرتك للمغرب، فكان أسفي كبيراً للظروف التي حالت دون أن أستقبلك مع جمهور العاصمة العلمية، مسقط رأسي، ومع المبدعين الذين توافدوا عليها للتمتع بأمسيتك الشعرية والتعرف عليك نجمة المهرجان، ودون أن يحظى بيت آل الحبابي بالتشرف بك مكرمة في رحابه.

ويأبى الله إلا أن يتحدد لقاؤنا بعد سنوات في الكويت الحبيبة في أحضان منتدى الفكر العربي الموقر الذي عقد بتاريخ سنة 2001 دورته 14 لاجتماع الهيئة العامة وندوة في ضيافة وبتعاون مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب للشقيقة الكويت، ونسعد جداً للفرصة المباركة التي أتاحت لنا أن نلتقي بعد أن تعذر ذلك سنوات، وسنحت لنا بتجديد ميثاق الصداقة الخالصة لوجه الله، والزمالة في الفكر والوفاء للمبادئ الإنسانية والثقافية الحق. بعدها بشهور قليلة فتحت عيني ذات صباح فإذا بالفاكس الذي يسكن مكتبي يتحرك ليزف إلي بشرى جعلت نهاري مشرقاً، خطت بالحرف:

«حضرة السيدة الفاضلة الدكتورة فاطمة الحبابي، حفظها الله.

تحية واحتراماً، وبعد:

لما كان المنتدى الثقافي المصري وبمناسبة اختيار الكويت عاصمة للثقافة العربية لسنة 2001، قد اتخذ قراراً بتكريم السيدة الدكتورة سعاد محمد الصباح تقديراً لمكانتها الأدبية ولدورها في دعم العمل الثقافي والإنساني والقومي في وطننا العربي، وذلك بإصدار كتاب عنها تسهم فيه نخبة من الباحثين والنقاد والأصدقاء... فقد تفضل سيادة رئيس المنتدى الدكتور عبد العزيز حجازي الرئيس الأسبق لمجلس وزراء جمهورية مصر العربية مشكوراً وعهد إليَّ بإعداد الكتاب وتحريره والاتصال بالأصدقاء الراغبين في تقديم شهاداتهم الشخصية عن مجمل إنجازات الدكتورة سعاد في حقل الإبداع والعمل الثقافي والعلمي والإنساني، وعن تقديرهم لخصالها الشخصية.

إنني على ثقة من أن إسهامكم سوف يثري كتابنا بإضاءة صادقة.

فإذا كنتم راغبين في تقديم مثل تلك الشهادة، فالرجاء التفضل بالاتصال على العنوان المذكور أدناه للتعبير عن هذه الرغبة.

وتفضلوا بقبول خالص شكري وعظيم تقديري.

مع تحيات

الدكتور محمد يوسف نجم»

باركت المناسبة وباركت المكرمة وباركت من اتخذ تلكم المبادرة النبيلة ، وسعدت أولاً بتشريف الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس المنتدى الثقافي المصري ، لي بطلب الإسهام في الكتاب التكريمي لأنبل شاعرة عربية ومفكرة . وسعدت ثانياً لأن الفكرة صادفت هوى كان يسكن أعماقي ، فكم راودتني فكرة تكريمك والكتابة عنك وعن إنجازاتك ، لكن تزاحم الأشغال ودوامة الحياة اليومية حبكت بإتقان ، على عادتها ، حبل التأجيل والتسويف الذي لا يحد امتداده سوى ما قد يطرأ من مستجدات وأحداث تجعلك تبادر بالتنفيذ ، وكذلكم كان الأمر . لقد حركت فيّ تلكم الدعوة الكريمة رغبة كانت تنتظر من يطلق شرارتها الأولى ، هكذا سكن «الفاكس / الدعوة» حقيبة أعمالي المستعجلة أياماً ، لا يمر يوم دون أن أعيد قراءته ، وتستوقفني كل مرة العبارة التي تنص على «الاتصال بالأصدقاء الراغبين في تقديم شهادتهم الشخصية عن مجمل إنجازات الدكتورة سعاد في حقل الإبداع والعمل الثقافي والعلمي والإنساني ، وعن تقديرهم لخصالها الشخصية (. . .) إنني على ثقة من أن إسهامكم سوف يثرى كتابنا بإضاءة صادقة» . أخذت بين الحين والحين أقرأ العبارة وأعيد ، وأنا في استسلام لحيرة تتجاذبني بين الكتابة عن شاعريتك الفذة ودواوينك العشرية المتميزة وبين أداء شهادة في حق أميرة إنسانة وشاعرة مفكرة ومناضلة على

شتى جبهات العمل الثقافي والعلمي والإنساني . وتتضخم حيرتي وأنا أستعرض شريط ذكرياتي للقاءاتنا على مدى حوالي ربع قرن من الزمان وقراءاتي لبعض أعمالك واستجواباتك الصحفية ، وإعجابي بك سيدة بيت مثالية وأرملة لشيخها ومعلمها وفية . وارتسمت أمام عيني تلكم العلاقة القدسية التي نسجت بنود «الميثاق الغليظ» كما أراده الخلاق في اللوح المحفوظ رابطة سرمدية بينك وبين زوجك الشيخ عبد الله المبارك تغمده الله بواسع رحمته ، تلكم العلاقة المتميزة التي لا يعي عمق قدسيتها حق الوعي إلا من يحظى بالعيش عملياً في ظلها مع الذي خلقه الله من نفسه زوجاً له .
هكذا بدا لي أن أنسب المواضع التي قد أتوفق في تناولها أكثر من غيري إسهاما في الكتاب التكريمي هو الحديث عن بعض ملامح ذلكم الرباط المتميز بينك وبين شيخك ومعلمك لعلمي بما تخصينه به من تقدير ومحبة «وقدسية» تتجلى بمنطوق القول والفعل في ممارساتك الحياتية اليومية ، وحديثك عنها في دواوينك الشعرية وبعض استجواباتك الصحفية ، وحررت كلمة في هذا المنحى عنونتها بـ«الأول والأخير»، العبارة التي جاءت على لسانك تؤكدين بها أن المغفور له الشيخ عبد الله المبارك هو وحده الذي يستحقك ولا أحد سواه، وكان لي شرف بعثها للأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف نجم الذي قبل مشكوراً التكفل بإعداد الكتاب التكريمي.

وبقيت في نفسي بعدها أشياء كثيرة لم يسعها مجال تلكم الكلمة، فشريط ذكرياتي معك وقراءاتي لإنتاجك وإعجابي بك وتقديري لك طويل جداً، والشهادة، أخلاقياً، تلزم من يتحمل القيام بها أن يؤديها على أتم وجه وأحسنه، و«الإضافة الصادقة» تتطلب الصدق في الإدلاء والوفاء للتاريخ وللحقيقة، وما كان في الجعبة انتصب يستصرخ القلم ليخلصه من الاختناق بالحنجرة فيخطه أسود على أبيض مؤديا الشهادة بأكملها وبما يجب من موضوعية وصدق وإخلاص للأمانة العلمية، ذلك أن قوة إشعاع عطائك وكفاحك المتميز وحدة كاملة لا تقبل التجزيء، وأن مكانتك الأدبية ودورك في دعم العمل الثقافي والإنساني والقومي في وطننا العربي لا تفي بحقه مقالات معدودة، وأن المناسبة الطيبة التي اختيرت لتكريمك ليست سحابة صيف بل هي مطر خير وبركة مدرار، يروي على الدوام تربة الأرض العربية ويخصبها بعطاءاتها، فالكويت أكبر من أن يحتفى بها سنة واحدة عاصمة للثقافة العربية كغيرها من العواصم العربية، إنها قمينة باحتفاء متميز لسنين طوال، واختيار تكريم ابنتها البارة الشاعرة الفذة والباحثة والمفكرة القديرة الدكتورة سعاد الصباح المبارك سهم أصاب محله ورمز متعدد الأبعاد. هكذا، تجلت أمام عيني، مرة أخرى، طلعتك البهية ترفل في أردية المجد الأسري والعلمي والإبداعي والإنساني في أسمى معانيه

الخلقية والجمالية ، ووجدتني أناجيك بكل جوارحي وبعميق حبي وتقديري لخصالك الإنسانية ، أناجيك بعفوية صادقة متحررة من كل تخطيط يخضع لمنهجية قواعد الكتابة والتحبير ، انقاد لها قلمي الصامت الناطق يخاطبك ناقلاً دون استئذان صورة «أم مبارك» الشيخة الوقور كما هي مرتسمة في أعماقي ، ومسجلاً فخري بك واعتزازي :

يا ابنة الحسب والنسب والعلم والجاه ،
يا سليلة خير من حكموا البلاد وقادوها إلى المجد والسؤدد ،
أشريكة حياة فارس الفرسان «صقر الجزيرة» ،
أيتها الشاعرة الفذة والمبدعة المتميزة ،
أيتها الباحثة المفكرة والمثقفة المناضلة ،
يا من كرست حياتك للدفاع عن إنسانية الإنسان ،
أيتها السهم النافذ وداعة وهدوءا وهبة وسخاء .

لقد حالفك حظ رؤية الوجود فوق أرض تربتها طاهرة مباركة ، وتحت سماء نجومها ساطعة متلألئة ، وترعرعت في زمن الحب والبحر والصحراء ونقاء الناس ، زمن التكوين البكر والفن والتغزل بالنجوم والقمر ، زمن لم يكن فيه للأعاصير ولا لاسوداد السماء واكتظاظ السحب تأثير في صفاء روحك وشفافيتها ، ولا

في ما وهبك الله، منذ الصبا، من مسحة جمال أنثوي هادئ رقيق ومشع، وهالة متألقة وهيبة، ودماثة خلق وعفة. كلما تطلع المرء إلى ملامح وجهك أوحت له بقراءات عميقة مفادها الإيمان بالله والإخلاص له، تتلخص جميعها في براءة وفطرة مولود ملائكي لم تخدش صفحة دماغه البيضاء آثام الحياة وجرائم القوم وخدائعهم.

أيتها الشاعرة المهذبة،

غيرك من الأمراء والأميرات يستطيب طعم حياة القصور المحصنة ذات الأسوار العالية، يجد فيها فردوس الحياة رغبة عن «عباد الله»، أما أنت فقد رأيت فيها قفصا ذهبياً تستعبد قاطنيها وتعزلهم عن الحياة الحق وتحرمهم سعادة معاشرة «عباد الله»، فحولت أسوارها إلى منافذ تخترق العزلة لتعيشي مع جميع «العباد» من كل الطبقات والشرائح المجتمعية، وتتعاملي معهم بكل بساطة وتواضع. نبذت وراءك ما في لوائح البروتوكول من بنود محجرة ومارست حياتك في ارتياح تام كما يحلو لك ووفق المشروع الإنساني الذي أوقفت حياتك عليه: حب الإنسان والدفاع عن حقوقه. ألم تولدي وفي فمك «صرخة حب وحنان للمجتمع وإحساس عنيف بالمسؤولية تجاه الإنسان»؟. أليس «الإنسان هو هدفك الأسمى»؟.

يا امرأة «الثورة والحكمة والفن» !.

آثرت الخروج من عصر حريم البلاط والانعتاق من تقاليده وطقوسه ، فحالفك التوفيق في الانفلات من قارورة التاريخ للإبحار في سفينة الحرية عبر محيطات العلم والثقافة والشعر والكفاح ، ورصعت تاج صولجانك بيواقيت السمو العلمي والتميز الفكري والفني والنضال السياسي والمجتمعي ، لا تحد طموحاتك مخاطر الغوص في المحيطات ، ولا تجتذبك هنيهات الراحة في مرافئها ، منغمرة بكامل الوعي واليقظة في مغامرة الإبحار الدائم على شراع يحمل هموم الإنسانية ومشاغلها ، وفي التحليق المستمر على جناحي طائرتك الميمونة في فضاء العالم الشاسع ، ترتقين ارتفاعاته لتحطين جندية على منابر الهيآت والمؤتمرات ومدارج الجامعات ومنصات المنتديات ، تدافعين بأشعارك ومحاضرتك وتدخلاتك عن حرية الإنسان المعذب الذي يرزح تحت نير الفقر المادي والمعنوي ، تحت خنق القهر والاستبداد وانتهاك حقوقه الأولية ، فجاءت إسهاماتك الفكرية والثقافية والمالية المدعمة والممولة للعديد من المشاريع غوصاً في أعماق محيطات بلا مرافئ ، وإقلاعاً إلى فضاءات بلا حدود ، تجسد جميع نشاطاتك عبرها غليان امرأة طموح غير محدودة الرؤية ، لا تعرف لما تود تحقيقه حدا يجبرها على الجموح ولا عائقاً يصدها عن الخطو الحثيث .

أيتها المرأة الأبية النفس ،

إن انتماءك العائلي وموقعك المجتمعي وما أفاء الله به عليك من الجاه والرفه لم يكن ليزحزح انشدادك و«حنينك الدائم للخروج من مملكة التراب إلى مملكة الضوء . . .» (ص . 78) ، فشمرت على ذارع الجد موظفة مواهبك الفذة التي حباك الله بها وقدراتك الفكرية وطاقاتك المعنوية والمادية للقيام على أحسن وجه بواجب الاستخلاف في الأرض كما أراده الخالق جل علاه لعباده . سارعت إلى الخيرات فكنت السباقة إليها ، يؤازرك عون الله ورضاه ورضى والديك وشريك عمرك ، تغمدهم الله جميعاً بواسع رحمته . سارعت فحققت حنينك المنشود ورفلت في عالم الأنوار بطبيعتك النادرة ورقتك المؤثرة وقوة عزيمتك النافذة ، وكنت كما قلت بحق «امرأة نفطية تطلع كالخنجر من تحت الرمال ، تتحدى كتب التنجيم والسحر وأشباه الرجال» ، وسرت في الطليعة «امرأة بلا سواحل» تواجهين كل الأعاصير والرياح بثبات وجرأة وعزيمة لا تفل ، وعقل وثاب وذهن وقاد وأفكار مرتبة ورأي مقتضب ، صمامات أمنك وحمايتك من كل القذائف والإحباطات ومما يثره المغرضون لنفث روائح نفاياتهم الخانقة في فضاءاتك الصافية ، بوصلة الإيمان بالله التي ترسم لك معالم الطريق المستقيم وتفتح في وجهك كل المغالق ، وزادك الفكري والثقافي وشجاعتك وصدقك وثقتك بنفسك المليئة

بحب الآخر والسعي إلى إسعاده . انطلقت تحثين السير إلى الأمام راسخة القدمين قوية الذراعين غير آبهة بما يزرعه المغرضون في طريق عبورك الصعب من مكايد ، جادة في قطع لجج البحار والمحيطات الهائجة إلى مرافئ قارات الرضى والود والوفاء والإخلاص والإباء ، مشكلة بطبيعتك النادرة ثورة على التقاليد البالية ، فأثمرت جهودك علماً وعطاءاً وخدمة للغير وما زالت تثمر ، وكنت بحق المرأة «الاستثنائية» .

أيتها الشاعرة الفاتنة والوديعة ،

كان بوسعك ، مثل «جميع نساء الأرض مغازلة المرآة» ، كان بوسعك «أن تتجملي وأن تتكحلي وأن تتدللي وأن تتحمصي تحت الشمس وأن ترقصي فوق الموج» أو أن تظلي فوق فراشك الوثير تتصفحين المجلات التافهة وتثرثري في الهاتف دون أن تعيري أي اعتبار للأنام ولا تتعرضي لمشاكل الأقوام ولا تسبحي ضد أي تيار ، تتمتعين بالراحة على مدى تعاقب الليالي والأيام . كان بوسعك لو رغبت في الشهرة عبر الصحف والمجلات والشاشات أن «تنظمي حفلات اجتماعية وولائم لهو فارغ تدخلين من خلالها دائرة الضوء» ولكنك ، ولأنك «لست امرأة التفاهات ولا امرأة الفراغ ، خنت قوانين الأنثى ، واخترت مواجهة الكلمات» والتمرد على

كل القوالب والسيناريوهات، وعلى كل المظاهر والتبرجات. لقد اعتبرت «البساطة سيدة الألوان والموضات والصيحات!» (ص. 16، 82)، فكانت عنوان أناقتك وجمال ذوقك وتناغم الألوان المنسجمة مع خلقتك.

يا امرأة فرضتِ وجودك بقوة وعدل، وروحك بإبداعك الشعري الفذ وبتشكيليتك المتميزة التي مازجت في انسجام بين مقدرتك الاقتصادية والسياسية وبين الفعل الإبداعي الثقافي والمجتمعي.

يا امرأة عزت على تقلبات الأحوال وما يحول، وعلى تداول الأقوال والانتماء إلى فصل ما من الفصول فكنت بما أنت وكما قيل عنك «امرأة الفصل الخامس» (ص. 32)، طموحاتك لا تنتهي وجهودك لا تني، دوافع عطائك الزاخر المتنوع شعرا ونثراً، بحثاً وتنظيراً، مشورة اقتصادية وسياسة، إسهاماً ومساندة للحركات الثقافية والفكرية، تشجيعاً للإبداع والمبدعين بالعطاء السخي ونشر إبداعاتهم، دوافع كلها راسخة فيك وأصيلة أصالة محتدك، سكناها أحشاؤك وفضاؤها أضلعك، بإشباعها تحققين ذاتك المتميزة بمكوناتها المنسجمة النغم في سمفونية وجودك الحياتي المتعالية أصداؤها إلى أجواء تطلعاتك لـ«مملكة الضوء»، سمفونية جعلت منك ما أنت هي ظاهراً وباطناً، تشكلة فذة شفافة أمينة.

ألم تؤكدي ذلك قائلة : «لو كنت غير أنا لما كنت نفسي . . أجد في العطاء والنضال والمحبة والكلمة وجودي ، فهل تكون هناك دوافع أسمى وأعظم من أن يحقق الإنسان ذاته ؟» (ص . 48) .

وتظلين أنت «الأنت» مهما تنوعت مجالات عطاءاتك ونشاطاتك الثقافية والفكرية والمجتمعية ، وتعددت مداخل قراءة ملامح خلقك وأخلاقيات سلوكك، تظلين إنساناً واحداً واضح القسمات، متميز الصفات، تقولين : «في كل شعري إنسان واحد يجده من يقرأ، فإذا بحث عني كنت هناك بين فواصل الكلمات عنواناً» (ص . 48) .

أيتها العنوان، القار بين الفواصل، لقد نسجت الكلمات لحمتك، جسداً وروحاً بهوياتك الثلاث : هوية محتدك العريق الذي تنتمين إليه ، وهوية معارفك وثقافتك التي اكتسبتها بالعمل الجاد وحسن الإرادة والتصميم ، وهوية الموهبة الشعرية الفذة التي تسري في عروقك دماً تتجدد ذكرياته على الدوام . إنك العنوان الكبير البارز الذي يسمو عن النجومية المصطنعة . اخترت الاستكانة إلى جماهير الناس في حياتهم العادية نابذة وراء ظهرك شكليات التمظهر ففتحت أبواب القلوب بفتحك أبواب قصرك العامر لمحبيك ولمستجوبيك من الصحفيين الذين يجسدون صلة وصل أمينة وشفافة بينك وبين الجمهور الكبير من عشاق الكلمة ، المتطلعين إلى

معرفة المزيد عن هذا «العنوان بين الفواصل» الذي هو أنت الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح. ولقد نال الصحفي الكبير مفيد فوزي الذي أتاك مستأذناً إجراء حوار معك حظوة ولوج بيتك وتلبية رغبته. إن شفافية روحك وصفاءها، وحسن طويتك ونقاوتها جعل ترحابك به يسجل انتصاراً آخر على قواعد البروتوكول التي يتهيب لها ومنها من يوجد مثله في موقف أمام أميرة بما تفرضه الإمارة ولوازمها من هالة وحذر، وسجل أيضاً نضالاً من وجهة خاصة تؤكد سمو خلقك وبعد نظرك ورقي ذوقك وثورتك على العديد من التقاليد التي يغلفها الغموض وتحوطها الملابسات في دهاليز وقبب القصور الشامخات، جاء استقبالك له في أجواء بيتك الأنيق الذي يرفل بمشاعر الود والاحترام والتكريم لكل بني جلدتك عنوان انفتاح قلبك الطاهر على العالم أجمع، فبدون أدنى تردد خاطبته قائلة: «لا تلجأ لاستئذاني، اقتحم بالسؤال والصورة ليراني قراء «كل الناس» و«العالم اليوم» كما أنا في صورتي الحقيقية، فأنا لست نجمة أحترف التصوير والبوزات» (ص. 74).

باستقبالك هذا جعلت الصحفي الشهير الذي تهيب جاه وجلال الإمارة في تناسق وانسجام مع نفسه ومع المهمة الحساسة التي تحملها، فدام الحوار طويلاً استغرق حلقات غاص خلالها في أبعاد شخصيتك الفذة، وجاب عبر أبعادها المتعددة الغنية متنقلاً بين

مراحل حياتك في حضن أسرة آل الصباح الأصيلة المحتد، مرتع الرعاية الأبوية طفولة، وجنة نعيم الزوجية المباركة والأمومة المقدسة شباباً، وفردوس شجرة طيبة آتت أكلها الحفدة كهولة. إن انفتاح قلبك وانشراحه أضفى على الحوار تلقائية نسيجها الصدق والبعد عن التصنع، جعلت مستجوبك يتنقل دون كلفة من أجواء الحديث عن دفء حياتك في عالم الأحفاد وعن أمور حميمية شخصية إلى الغوص معك في مشاعر وإحساسات الشاعرة العربية في تجربتها الشعرية الفذة، ثم السير برفقتك في مسار علاقاتك بالعالم الخارجي، العربي والدولي للتعرف على رأيك في بعض أقطابه السياسية والفكرية والأدبية رجالاً ونساءاً ولمقاربة مجالات إنتاجك إبداعاً وبحثاً وتنظيراً، وإسهاماً في الدراسات والاستشارات الاقتصادية والسياسية وفي الأنشطة الفكرية والثقافية والمجتمعية، فانضاف حواره الطويل معك هذا إلى العديد من الاستجوابات الصحفية التي نشرتها لك عدد من المجلات والصحف عبر مختلف الأقطار العربية والأجنبية، مقدماً لجمهور القراء مزيداً من التفاصيل عن الأميرة، الإنسانة الاستثنائية التي رفضت أن تكون سراً أحبت كل الناس على اختلاف طبقاتهم وشرائحهم المجتمعية فأبت إلا أن تتقدم إليهم كما هي باطناً وظاهراً، كما هي رحمة خلف سور قصرها ومحبة ووصالاً بهم جميعاً قِبَله.

ويصل بي شريط صورتك الذي تدخره ذاكرتي ومشاعري إلى أقصى مداه مناجاة صامتة ناطقة ، وتلح عليّ الرغبة في الوقوف أطول عند بعض معالمه المتميزة والغوص أكثر في أعماقها ، فأجدني ما زلت تحت وطأة الحيرة التي ظلت تتجاذبني بين قراءة تحليلية نقدية لبعض دواوينك الشعرية ودراساتك الفكرية وبين أداء شهادة في حقك ، أميرة إنسانة وشاعرة مفكرة ومناضلة على شتى جبهات العمل الثقافي والفكري والإنساني . بعد مزيد من التأمل نطقت معالم الشريط لتحسم حيرتي معلنة شهادتها على ترابط الفعل الإبداعي والإنتاج الفكري مع ممارساتك الحياتية بمصداقية فذة تتجلى في العديد من آرائك ومواقفك من قضايا فكرية وسياسية وثقافية ومجتمعية غذتها تنشئتك وتكوينك ومعارفك ومواهبك وسلوكاتك وأخلاقياتك في وحدة متكاملة تتداخل فيها خصائص الذات الشاعرة المفكرة وإبداعاتها الفنية ودراساتها العلمية والفكرية . هكذا وجدتني أنقاد إلى محاولة كتابة سجل ـ شهادة يتناول الحديث عما أنت ، كلا لا يقبل التجزيء .

ما إن فك أسري بهذا الاختيار حتى وقعت من جديد أسيرة حيرة انتابتني بين الحديث عنك والحديث إليك . وحيث أني بقدر ما رغبت عن عقوبة كتمان شهادتي رغبت في أدائها بما يجب من نزاهة ، وحرصت كذلك على أن تتوخى «الإضافة الصادقة»

الموضوعية في الحديث واجتناب الإطراء المجاني والانسياق مع التذويت، والسعي إلى إقامة الحجة والدليل على المنطوق من التقييم والتوصيف، انتهى بي الأمر إلى الارتياح إلى التحدث معك والإنصات إليك في حديثك عنك، مستقية منك مفاتح شفرات خصائصك الشعرية والفكرية ومداخل مختلف سلوكاتك وأنشطتك السياسية والثقافية والمجتمعية. لقد بدا لي أنه مهما كان حديثي عنك موضوعياً ومعبراً بصدق وفصيحاً في نقل مشاعري نحوك، قلباً مفعماً بالرحمة والحنان والعطف، ووجهاً يشع بالبراءة والرضى والمحبة وتنطق ملامحه بالإخلاص لرسالتك في كل ما تقدمين عليه من أعمال خيرية وإنسانية، لن يكون له من العمق والمصداقية ما لحديثك التلقائي الصادر من أعماقك عنك، ولا من الوضوح ما توخته أجوبتك عن أسئلة مستجوبيك من شفافية بانتقاء كلمات دقيقة وتعابير رصينة، واقتضاب مصدره الحكمة واعتماد المنطق العقلاني. ارتحت، أيضاً، إلى التحدث معك لأن حديثي عنك لن يفي بنقل مشاعرك المتأججة ونظرتك الثاقبة وفكرك الوقاد الذي يتجلى واضحاً في ذلكم الزخم الهائل المتشعب من الذكريات والمفاجآت والمواقف والآراء في حديثك عنك لمستجوبيك بانشراح لا يخلو من انفعال استفزازي ساخر أحياناً وثوري غاضب متمرد أحياناً أخرى، تتمازج فيه ذاتية الإبداع وموضوعية الفكر

ومصداقية القول والفعل. آثرت الولوج إليك، كذلك، في هذا السجل ـ الشهادة من خلال حديثك عنك لما استوقفني فيه من بوح في صدق مع الأنا ـ الذات المتحدثة، وصدق مع الآخر المتلقي: مستجوبيك وجمهور القراء، وما يزخر به من معلومات ضافية ودقيقة عن أبعاد هويتك وبعض خصائص مزاجك وطبيعتك وعن جوانب من علاقاتك مع مختلف الشرائح المجتمعية في تراتبية مستويات ومسؤولياتها، قيادات وزعامات، وأيضاً لما بحديثك هذا من توضيح لآرائك وإعلان عن مواقفك من قضايا متعددة لا يتسنى فهم حقيقتها إلا بالرجوع إلى حديثك عنها والاستئناس بظروفها وملابساتها.

لا يفوتني، بهذا الصدد، أن أنوه بالبادرة الطيبة التي أقدم عليها مشكوراً الصحفي الكبير علي المسعودي، إذ كان له فضل جمع بعض تلكم الأحاديث الصحفية والحوارات ونشرها في كتاب، سهل تناولها، وكفى الباحث مشقة البحث عنها في بطون الصحف والمجلات التي نشرتها في حينها.

والواقع أن استجواباتك عموماً، وأحاديثك مع الصحفي الأستاذ علي المسعودي وحوارك الطويل مع الصحفي المصري الشهير مفيد فوزي جاءت جميعها مرآة صقيلة للشبكة التي تشكل الأرضية الأساسية لشخصك، أميرة وجيهة وشاعرة مفكرة وإنسانة مناضلة،

لذا سمحت لنفسي باعتمادها مصدراً أساسياً فيما حاولت الإقدام عليه من تحرير هذه الصفحات، أستنطقها وأحاورها وألتمس منها نوراً يضفي مزيداً من الضوء على معالم «الشريط ـ الصورة» الذي تعتق في ذاكرتي وشكل شرارة هذا السجل ـ الشهادة راسماً خطاطة مشاهده في تسلسلها وتفاعلها مع الظروف والأحداث عبر توالي الأيام والأشهر والسنوات الحبلى بباقات مشكلة من المسرات والأزمات في درب مسيرة العمر في هذه الحياة.

وقد فرضت طبيعة هذا السجل ـ الشهادة الخروج عن المألوف في منهجية التأليف والكتابة من تبويب الكتاب، وإدراج عدد من الفصول تحت كل باب، والالتزام في أسلوب التعبير بضمير الغائب الذي يعود إلى المتحدث عنه أو ما يقوم مقامه مما يحيل عليه، وعن إنتاجه، فكان حديثي إليك بضمير المخاطب عموماً، وعنك بضمير الغائب أحياناً، ووقفت معك، ولِمَ لا أقول بأمر من طبيعة الشهادة والمشهود في حقها، انطلاقاً من يوم 1942/05/22، ذلك اليوم الذي توفق الكاتب الصحفي علي المسعودي في توصيفه قائلاً: «اليوم الذي تلمست فيه الأرض وجه القمر» وازدانت فيه بطلعتك البهية المباركة، وقفت عند كل هوية من «هوياتك الثلاث»، أتنقل في أرجاء باحاتها الشاسعة المزهرة، فجبت معك حدائق هويتك الأولى: انتماؤك العائلي برعمةً متفتقة وطفلة مدللة وسيدة بيت وفية

وأماً مثالية وجدة عاودها مرح الحياة بملاعبة الأحفاد ومداعبتهم. من هذه الأجواء انتقلت معك إلى محيط هويتك الثانية: الإبحار المعرفي والعلمي في الابتدائي والثانوي بوطنك الكويت وفي مدارج التعليم العالي بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وجامعة سارجلفورد البريطانية، مستعرضة بعض خصائص إبداعك الشعري وأبحاثك الفكرية وما أنجز حولها من دراسات وأطروحات جامعية، مبرزة جهودك المتواصلة التي تجلت ثمرتها في تأليف العديد من الكتب وإنشاء مكتب للدراسات والاستشارات الاقتصادية والتنموية ومقدرة كفاءاتك المتعددة وطريقة تدبيرها إذ لم تحل مداومتك اليومية في المكتب وانشغالك بدراسة الملفات، وبما يعقد في رحابه من صفقات تجارية هامة على الصعيد الإقليمي والدولي في مجال النفط ومشتقاته، كل ذلك لم يحل دون الاستجابة لهويتك الثالثة، المنة الإلهية: موهبة الشعر فوقف معك عندها هذا السجل ـ الشهادة يتملاها ويتجول في مسالك عبقر وما استثاره من إعجاب الجمهور بقصائدك شاعرة ثائرة ومناضلة قومية وإنسانة تتطلع إلى الثريا. وعرجت معك المدلية بالشهادة لترتاح قليلاً لطربك بما تغنت لك به الفنانة الرائعة ماجدة الرومي، قبل أن تعبر إلى بعض محطات جهاد الفكر والقلم والصوت والمال، على شتى الجبهات الثقافية والسياسية والمجتمعية، فتحضر مرافعاتك

من أجل قضايا هامة يجمع بينها التشابه في معاناة القهر والغلبة، أولاها قضية المرأة العربية وما تعانيه من عبء بعض التقاليد المتوارثة البالية ومن اضطهاد الرجل الشرقي لها، وانتصابك مدافعة عنها وعاملة على توعيتها بحقوقها وواجباتها ومناهضة لكل تطرف يمس بكرامتها وبالمكانة التي يجب أن تحتلها، صادراً كان ذلك التطرف عن الرجل أم عن المرأة نفسها، من غير حيف على الرجل أو إقصاء له من الساحة.

بعد هذه المرافعة الأولى انزويت قليلاً أتأمل، عبر مرافعتك الثانية من أجل حقوق الإنسان، مفهومك للصداقة ومكانتها في قلبك وحياتك، فأعجبت بقدرتك المتفردة على الوفاء للمبادئ التي ترين ضرورة قيامها عليها، وأكبرت صدك الأبدي عمن يخونها. واستخلصت من ذلك سر شغفك الكبير بالإنسان علة وجود ذاتك المنفعلة، الذات التي جعلت منه غايتها وعنوانها الدائم فكرست كل طاقاتها المعنوية والمادية دفاعاً عن كرامة المستضعفين من بني البشر وعن حقوقهم المشروعة، وأوقفت جهادها رفعاً للحيف الذي يمارس عليهم. سلاح نضالك قلم يحرر مقالات تنشرها الصحف وكتب ودواوين شعرية تصدرها المطابع، وصوت يصدح في أمسيات شعرية ومحاضرات وندوات منافحاً في أعالي منابر الهيآت والمنتديات والمنظمات العربية والدولية وسخاء مادي لكل

ما يحقق سعادة الأشقياء. بعد هذه الوقفة الحميمية أطللت معك إطلالة خفيفة على مرافعتك الثالثة من أجل الطفولة العربية المغلوبة على أمرها، فوجدتك راعية لها متأسية لأحوالها وعاطفة عليها. وبمزيد من الشغف والتقدير حضرت معك مرافعتك الرابعة من أجل الكويت، وطنك الحبيب وتتبعت أوجه نضالك ودفاعك المستميت لتحريره من غزو جيوش صدام الغاشم وأكبرت حضورك جلسات البرلمان بعد التحرر ومقترحاتك للنهوض ببلدك الكويت والسير به في ركاب الأمم المتقدمة وحرصك المستديم على تحقيق وحدة الأمة العربية، ومن هنا جاءت مرافعتك الخامسة المتعلقة بقضية العروبة، فأبيت إلا أن أظل أحث الخطى خلفك لأحضر مرافعاتك من أجلها، من أجل أمة تآكلتها الانكسارات والنكبات المتوالية، فتمتعت بذكرياتك عن زمن الحلم بالوحدة العربية ونضال الشعوب بزعامة قياداتها لتحقيقها وتألمت لخيبتك المريرة التي رسخ جذورها غزو جيوش صدام الغاشم للكويت، حيث أضحى حلم الوحدة كابوساً يجثم على صدرك من معاناة صراع عنيف بين هاجس الوطنية واستماتتك، روحاً وجسداً، دفاعاً عن وطنك الكويت وهاجس تحقيق وحدة الأمة العربية الذي ما زال فتيلة متأججة في أعماقك تصارع نار الغضب واليأس في توتر دائم نحو فرض وجودها مهما اشتدت الأزمات وازدادت حلكة المظالم

والظلمات .

ما كان لهذا الجهاد المقدس المرافع من أجل قضايا مجتمعية وسياسية وطنية وقومية ليحد من شعلة نشاطاتك الفكرية والثقافية أو يقلصها . هكذا صاحبتك إلى باقة محطات ، وورودها آراء ومواقف وأزاهرها مبادرات فذة تمت انطلاقة بعضها منذ رفرفت حمامة سلام وبشارة خير حاملة على عاتقك رسالة فكرية وإنسانية ، شققت لها عدة مسالك . فكانت مبادرة تأسيس «دار سعاد الصباح للطباعة والنشر والتوزيع» بالقاهرة التي اقتضت الضرورة ترحيلها إلى الكويت . وفي أحضان الدار جاءت مبادرة تشجيع الشباب المبدع بإحداث جائزة «الشيخ عبد الله المبارك للإبداع العلمي» وجائزة «سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي» ، وجائزة خاصة بفلسطين . وتوج ذلك مبادرة متميزة اختارت تكريم أعلام الثقافة العربية الأحياء .

وأشرف على آخر محطة في رحلتي معك فأدخل حديقة زاهية بباقات متنوعة من الآراء والمواقف تتناول تعريفك للثقافة وللمثقف الحق ، ولمفاهيم كالحب والحرية والمعاصرة . . . وموقفك مما حققته أوربا من تقدم علمي وتكنولوجي ، وأسست له من قواعد لترسيخ مبادئ الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان ، مقارنة بما يعيشه العالم العربي من ديكتاتوريات ويتخبط فيه من فوضى . ثم نقف معاً

عند رأيك في الصحافة ودورها الكبير في توجيه الرأي العام وتنويره، وأقاسمك الرأي فيما يجب أن يحظى به الصحفيون من مكانة مرموقة ومن تشجيع وحرية حتى يتمكنوا من العمل الجاد بعيداً عن الضغوطات التي تقزم أعمالهم. وننتهي بالوقوف عند تأمل مفهومك للغربة التي تعيشينها، أنت شخصياً، في أعماقك كما أعيشها أنا ويعيشها جل المثقفين والمفكرين خصوصاً المثقفين العرب، كل يعاني من قساوتها نصيبه ويتذوق من طعمها مقادير تتفاوت مرارتها حسب الظروف والملابسات التي يوجد في أجواءها وتفرض عليه فرضاً، غالباً لا تعرف استقراراً ولا راحة ولا طمأنينة. ومن جديد تبرز مأساة العروبة بكل زخمها عنواناً كبيراً يؤرقك ويقلق راحتك وينهش ضميرك وضمير كل الأحرار الأوفياء لمبادئهم ولوطنيتهم وقوميتهم.

تخللت رحلتي معك استشهادات من بعض أحاديثك وأجوبتك عن أسئلة مستجوبيك في شتى الحوارات، استقيت جلها من كتاب «سعاد الصباح حمامة السلام» لعلي المسعودي، ووضعتها بين مزدوجتين متلوة بثبت رقم صفحة الكتاب. لقد حرصت ما استطعت على توخي الموضوعية في الطرح والتحليل وعدم الانفلات للتذويت بفعل إعجابي بسرعة بداهتك وبعمق فكرك واعتمادك في أحكامك على التحليل العقلاني الرصين. الواقع

أن آرائك ومواقفك التي تجمع بين الجرأة واليقظة والوعي، وبين التحرر من قيود المجتمع والتقاليد المتوارثة البالية في معاملاتها الجائرة للمرأة، مع الحرص على التشبث بما هو أصيل وعقلاني فيها وبمبادئ تعاليم ديننا الإسلامي الذي كرم المرأة بوجه خاص، كانت تجد في قلبي هوى لتوافقها مع العديد من آرائي، فكنت أنساق في الحديث عنك ومعك وأنا أقاسمك الرأي بصددها مما قد يجعل القارئ يرى في هذا السجل ـ الشهادة بصمات من الذاتية، لن أؤاخذه في عتابه لي إن هو لم يغفرها لي، ولكن متى ما استطاع أن يتقمص شخصي في مشاعره وإحساساته وتحليله المنطقي فيما تناولت، لن يراوده شك في أن ما بدا له من ذاتية في هذا التناول هو عين الموضوعية بكل صدق ودون مزايدة. وليس من حقي أن أستبق الأحداث، لأن واجبي نحو القارئ يقتضي أن أدع له فرصة القراءة وأن أتلافى التأثير فيه وتوجيهه وجهة مسبقة كيما ينطلق في قراءاته بما يجب من حرية ويصل إلى النهاية، وقد امتلأ وفاضة بالأحكام التي يراها.

ويبقى أخيراً أن أتوجه إليك، عزيزتي الفاضلة الدكتورة سعاد الصباح، وإلى كل القراء الأفاضل بالتماس تحمل صحبتي في هذه الصفحات التي ما أردت بها سوى تسديد دين ثقافي نزيه كان يثقل كاهلي، واستجابة للأمانة الفكرية التي قلما يستجيب لها الكتاب

والمفكرون إزاء الطلائعيين من بني وطنهم ما بالك أن تستجيب لها امرأة إزاء امرأة، تشهد الله على قصدها الأخلاقي والفكري النبيل وعلى إيمانها بما تستحقه شاعرتنا ومفكرتنا الفذة من تقدير وتكريم وإخلاص للود . . .

لعل هذا السجل ـ الشهادة ينال منك، أيتها العزيزة، ومن القراء الأعزاء الرضى والقبول، ويقابل بالتغاضي عما يتخلله من تقصير أو جور، فالنية حسنة والقصد شريف، وعلى الله المعتمد ومنه التوفيق.

«إن يعلمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً يُؤتِكم خيراً» . صدق الله العظيم .

باريس 2003/06/15

«أنا امرأة لها ثلاث هويّات .

الهويّة الأولى :

هويّة عائلية بحكم الانتماء ،

ولادة وزواجاً ، إلى آل الصباح»

الانتماء إلى آل الصباح يشرفني ولكن لا يعطيني أي امتياز
الدم لا يكون أزرق . . ولا أخضر . . ولا أصفر ، وإنما يكون دماً إنسانياً
كانت طفولتي مرسومة باللون الأخضر . . عرفت اللون الأسود حين
فقدت الوالدين
أبي كان رفيق المشاوير ، عاشقاً للطبيعة ، منه تعلمت ثقافة الأرض
بوردها وعشبها وأشجارها وأمطارها وعصافيرها وقمرها ونجومها
علمتني أمي أن أكون سيدة نفسي ، مسؤولة عن إدارة البيت منذ أن كنت
في العاشرة من عمري

ليس عبثاً أن تراعى دولياً في رسم هوية الشخص بعض المحددات : اسم العائلة ، الاسم الشخصي ، تاريخ ومكان ولادته ، عنوان سكناه ، المهنة التي يزاولها ، إذ لكل منها أبعاد تتداخل فيما بينها لتشكل ملامح طبيعة الفرد وسلوكه داخل البيئة ، الصغرى والكبرى ، التي ينتمي إليها وتطلعاته المستقبلية . إذا كان الانتماء العائلي وتاريخ ومكان الولادة لا خيار معها للفرد ، بحيث لا يتدخل الوليد ، لا من قريب ولا من بعيد ، في انتقائها فإن محددات ذلك تسهم بقسط وافرٍ في تنشئته وتكوين شخصيته وتحديد فعاليات اندماجه في المجتمع الإنساني الكبير . من البديهي أن ذلك ليس

بالمهمة السهلة، ولا يخضع لوصفات تربوية قبلية منمطة. هكذا فإن الانتماء العائلي سيف ذو حدين، بقدر ما قد يكون إيجابياً لصالح تكوين الشخص بقدر ما قد يكون كذلك سلبياً على عكس المتوقع. إن قدرات الإنسان الغريزية، وكفاءاته المكتسبة تتفاعل لتنسج مع معطيات الولادة والنشأة الشبكة الفيلكرانية الخلفية لمقومات تشخصن الكائن البشري وبلورة مختلف أبعاده.

صحيح أن الانتماء العائلي يحدد الإطار الأولي لملامح الشخص وقواعد انطلاقه في ممارساته اليومية وتوجهاته في مسيرته الحياتية الطويلة، وصحيح كذلك أن الواقع المجتمعي يفرز، بحكم طبيعة الأشياء وسنة الكون، شرائح إنسانية متفاوتة وجاهة وحضارة وعلماً ومالاً... بيد أن هذا التفاوت لا يعني احتقار الشرائح الأخرى التي تفتقد ما يبوئها مكانة مرموقة في المجتمع، وإقصاءها إلى حيز غير إنساني، ولا يعني بتاتاً الانتماء إلى فصيلة آدمية من صنف متميز يسمو دمها على فصيلة الدم الذي يجري في عروق سواها. فإذا كان بعضهم يزعم أن سلالة الملوك والأمراء سلالة متفوقة تحمل فصيلة دمها عناصر النبل والفضيلة المتوارثة ويشرفهم ذلك فإنك، أنت أيتها الأميرة الدكتورة سعاد عبد الله المبارك الصباح، تؤكدين اعتقاداً وخلقاً بطلان هذا الزعم، ويأتي انتماؤك ولادة وزواجاً إلى آل الصباح يوم رأيت نور الوجود، صبيحة

الثاني والعشرين من شهر ماي سنة 1942م، بكراً لوالدك المرحوم الشيخ محمد صباح الصباح الذي كان يحمل اسم جده الشيخ محمد الصباح حاكم الكويت من عام 1892م إلى 1896م. فإنسانيتك الحق تسمو بك فوق كل اعتبارات التمظهر الإماراتي التي يتمحل غيرك في التمسك بأهدابها، وتجعل منك، في حد ذاتك، انتماءً فذاً متكاملاً ومتفوقاً.

أقرأ حديثك عن هويتك العائلية فأزداد بك إعجاباً، وبتواضعك انبهاراً، وتزداد مكانتك في عيني سمواً وارتفاعاً تصرين على التواضع خنوعاً لخالقك وتقديراً لعباده وسلوكاً متحرراً من قيود تبوء مكانة الصدارة المجتمعية التي تستحقينها بكامل الجدارة. ولعمري إن تواضعك لله هذا يزيد من رفعتك إلى أسمى المقامات، لننصت إليك تعلقين على انتمائك إلى آل الصباح قائلة:

«هو انتماء يشرفني، ولكنه لا يعطيني أي امتياز ولا يجعلني، كما يتصور البعض، من أصحاب الدم الأزرق، فالدم لا يكون أزرق... ولا أخضر.. ولا أصفر.. وإنما يكون دماً إنسانياً، ودم الإنسان هو هو في كل زمان ومكان، وهو في إنجلترا كما في بنجلاديش، وفي استوكهولم كما هو في الكونغو، وفي نيويورك كما هو في حي سيدنا الحسين والغورية في القاهرة، وفي باريس كما هو في السالمية والفحيحيل في الكويت...».

ما أنبل تواضعك وخلقك! وما أحد ذكاءك في انتقاء أمثلتك تلك، من كبريات مختلف عواصم الدنيا إلى الأحياء الأكثر شعبية، من أرقى المراكز حضارة مادية ومستوى مجتمعياً إلى أسفلها ضيق عيش وحلكة مصير!. لا فرق بين آدمييها ككائنات بشرية مهما اشتدت الفوارق المشخصنة التي تبوئهم مقاعد متميزة في قطار الحياة. إن الدم لم يكن، ولن يكون أبداً محدداً لأنواع من الهويات الإنسانية ولا عنصراً مميزاً لتفوق بعضها. فالدم الأحمر يسري في العروق عبر جميع الأعضاء التي تحتل نفس المواقع في أجسام جميع الكائنات البشرية، ويقوم بنفس المهام لحياتها، تحت ظل جميع السماوات، سواء كان لون بشرة الجسم أبيض أم أسود، وسواء كان الفرد غنياً أم فقيراً، حاكماً أو محكوماً.

لقد ترعرعتِ، أيتها الإنسانة النبيلة، في حضن عائلة مثقفة، متزنة، عاقلة، محترمة لمكانتها التي أرادها لها الله، خالية من الهزات التي تنم عن مطبات متفاوتة العمق والقوة. كان الأب معلمك الأول الذي علمك الكتابة والقراءة وبذل قصارى الجهد لينمي ثقافتك العامة، يحمل لك يومياً آخر ما صدر من كتب «**عالم المعرفة**» والمجلات الثقافية. وكانت الأم ينبوع معارفك التاريخية بما أفادتك به من قراءاتها لبعض الدوريات والمؤلفات، وفي طليعتها كتب جرجي زيدان، دون أن تخل بمسؤوليتها في السهر على

تنشئتك تنشئة يطبعها الحرص على أن تجعل منك سيدة نفسك، مسؤولة عن إدارة البيت و لم تتجاوزي بعد العاشرة من العمر. لقد جسد والداك الشمعة التي شكلت دائرة الضوء في حياتك، وكان بيتهما بحق «عشاً من أعشاش المحبة، وحديقة من الحنان والرحمة» (ص. 84). لم يكن للاضطهاد به مكاناً، ولا للخوف والإرهاب مزاراً. تسوده معادلة التعامل معك، أنت الأنثى، ومع أخيك الذكر من غير فرق بينكما. تسير فيه الأمور كلها وفق مبادئ ديمقراطية ثابتة، فنشأت بفضل هذا الوسط الطاهر العفيف المتزن الرصين بلا عقد ولا تشويهات نفسية. وازى ذلك وسانده ما تلقيته من العلوم الأولية في مدرسة الخنساء بالكويت، وبعدها في ثانوية المرقاب للبنات.

تحت هذا السقف الأبوي الحنون تلقنت كيف تحبين العالم وتكونين صديقة للإنسان، فكانت طفولتك المشتل الذي أينعت أزاهره وانتشر شذاها عبر مسيرتك الطويلة في الحياة. فشكل هذا الصبا الأول، بما تركه من بصمات على جسدك وروحك، محطات القلب التي تضيء في الأعماق كمنارة بحرية، ما تزالين تطربين لذكراها قائلة:

«كانت طفولتي لوحة مرسومة باللون الأخضر، وكانت أحلامي تتراقص مع شجرة الصفصفات، وتغتسل بمياه البحرّ، وتبحر مع

السفن المبحرة إلى جنوب شرق آسيا . هذه المحطة الأولى هي محطة الفرح الحقيقي ، حيث كان كل شيء إما أزرق ، وإما أخضر ، وإما بنفسجي ، أما بقية الألوان الداكنة من أسود ورمادي وكحلي وبني وغامق . . فلم تكن موجودة في علبة ألواني» (ص . 83) .

ويأبى القدر إلا أن تذوق الأميرة ، الصغيرة السن الكبيرة الفكر ، مرارة اليتم لتطل في سن مبكر على عالم آخر من عوالم الحياة ، عالم المحطات القاسية والدروب الوعرة ، إذ اختطف المنون الأم الصدر الحنون و لم يمهلك طويلاً ليختطف الأب سقف البيت وأنت في السنة السابعة عشرة من العمر ، فحلت برحيلهما الفترة المحتومة المؤلمة لتتعرفي على الألوان الأخرى الغامقة ، يتصدَّرها السواد تقولين :

« لم أكن أعرف على وجه التحديد ماذا يعني اللون الأسود ، اللون الأسود عرفته أول مرة في عام 1960/1959م حين ماتت أمي ثم لحقها أبي . . .» (ص . 83) .

تلك سنة الحياة ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وأماً مثالية وجدة عاودها مرح الحياة بملاعبة الأحفاد ومداعبتهم . من هذه الأجواء انتقلت معك إلى محيط هويتك الثانية : الإبحار المعرفي والعلمي في الابتدائي والثانوي بوطنك الكويت وفي مدارج التعليم العالي بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وجامعة سارجلفورد البريطانية ، مستعرضة بعض خصائص إبداعك الشعري وأبحاثك الفكرية وما أنجز حولها من دراسات وأطروحات جامعية ، مبرزة جهودك المتواصلة التي تجلت ثمرتها في تأليف العديد من الكتب وإنشاء مكتب للدراسات والاستشارات الاقتصادية والتنموية ومقدرة كفاءاتك المتعددة وطريقة تدبيرها إذ لم تحل مداومتك اليومية في المكتب وانشغالك بدراسة الملفات ، وبما يعقد في رحابه من صفقات تجارية هامة على الصعيد الإقليمي والدولي في مجال النفط ومشتقاته ، كل ذلك لم يحل دون الاستجابة لهويتك الثالثة ، المنة الإلهية : موهبة الشعر فوقف معك عندها هذا السجل ـ الشهادة يتملاها ويتجول في مسالك عبقر وما استثاره من إعجاب الجمهور بقصائدك شاعرة ثائرة ومناضلة قومية وإنسانة تتطلع إلى الثرياً . وعرجت معك المدلية بالشهادة لترتاح قليلاً لطربك بما تغنت لك به الفنانة الرائعة ماجدة الرومي ، قبل أن تعبر إلى بعض محطات جهاد الفكر والقلم والصوت والمال ، على شتى الجبهات الثقافية والسياسية والمجتمعية ، فتحضر مرافعاتك

من أجل قضايا هامة يجمع بينها التشابه في معاناة القهر والغلبة، أولاها قضية المرأة العربية وما تعانيه من عبء بعض التقاليد المتوارثة البالية ومن اضطهاد الرجل الشرقي لها، وانتصابك مدافعة عنها وعاملة على توعيتها بحقوقها وواجباتها ومناهضة لكل تطرف يمس بكرامتها وبالمكانة التي يجب أن تحتلها، صادراً كان ذلك التطرف عن الرجل أم عن المرأة نفسها، من غير حيف على الرجل أو إقصاء له من الساحة.

بعد هذه المرافعة الأولى انزويت قليلاً أتأمل، عبر مرافعتك الثانية من أجل حقوق الإنسان، مفهومك للصداقة ومكانتها في قلبك وحياتك، فأعجبت بقدرتك المتفردة على الوفاء للمبادئ التي ترين ضرورة قيامها عليها، وأكبرت صدك الأبدي عمن يخونها. واستخلصت من ذلك سر شغفك الكبير بالإنسان علة وجود ذاتك المنفعلة، الذات التي جعلت منه غايتها وعنوانها الدائم فكرست كل طاقاتها المعنوية والمادية دفاعاً عن كرامة المستضعفين من بني البشر وعن حقوقهم المشروعة، وأوقفت جهادها رفعاً للحيف الذي يمارس عليهم. سلاح نضالك قلم يحرر مقالات تنشرها الصحف وكتب ودواوين شعرية تصدرها المطابع، وصوت يصدح في أمسيات شعرية ومحاضرات وندوات منافحاً في أعالي منابر الهيآت والمنتديات والمنظمات العربية والدولية وسخاء مادي لكل

ما يحقق سعادة الأشقياء. بعد هذه الوقفة الحميمية أطللت معك إطلالة خفيفة على مرافعتك الثالثة من أجل الطفولة العربية المغلوبة على أمرها، فوجدتك راعية لها متأسية لأحوالها وعاطفة عليها. وبمزيد من الشغف والتقدير حضرت معك مرافعتك الرابعة من أجل الكويت، وطنك الحبيب وتتبعت أوجه نضالك ودفاعك المستميت لتحريره من غزو جيوش صدام الغاشم وأكبرت حضورك جلسات البرلمان بعد التحرر ومقترحاتك للنهوض ببلدك الكويت والسير به في ركاب الأمم المتقدمة وحرصك المستديم على تحقيق وحدة الأمة العربية، ومن هنا جاءت مرافعتك الخامسة المتعلقة بقضية العروبة، فأبيت إلا أن أظل أحث الخطى خلفك لأحضر مرافعاتك من أجلها، من أجل أمة تآكلتها الانكسارات والنكبات المتوالية، فتمتعت بذكرياتك عن زمن الحلم بالوحدة العربية ونضال الشعوب بزعامة قياداتها لتحقيقها وتألمت لخيبتك المريرة التي رسخ جذورها غزو جيوش صدام الغاشم للكويت، حيث أضحى حلم الوحدة كابوساً يجثم على صدرك من معاناة صراع عنيف بين هاجس الوطنية واستماتتك، روحاً وجسداً، دفاعاً عن وطنك الكويت وهاجس تحقيق وحدة الأمة العربية الذي ما زال فتيلة متأججة في أعماقك تصارع نار الغضب واليأس في توتر دائم نحو فرض وجودها مهما اشتدت الأزمات وازدادت حلكة المظالم

والظلمات .

ما كان لهذا الجهاد المقدس المرافع من أجل قضايا مجتمعية وسياسية وطنية وقومية ليحد من شعلة نشاطاتك الفكرية والثقافية أو يقلصها . هكذا صاحبتك إلى باقة محطات ، ورودها آراء ومواقف وأزاهرها مبادرات فذة تمت انطلاقة بعضها منذ رفرفت حمامة سلام وبشارة خير حاملة على عاتقك رسالة فكرية وإنسانية ، شققت لها عدة مسالك . فكانت مبادرة تأسيس «دار سعاد الصباح للطباعة والنشر والتوزيع» بالقاهرة التي اقتضت الضرورة ترحيلها إلى الكويت . وفي أحضان الدار جاءت مبادرة تشجيع الشباب المبدع بإحداث جائزة «الشيخ عبد الله المبارك للإبداع العلمي» وجائزة «سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي» ، وجائزة خاصة بفلسطين . وتوج ذلك مبادرة متميزة اختارت تكريم أعلام الثقافة العربية الأحياء .

وأشرف على آخر محطة في رحلتي معك فأدخل حديقة زاهية بباقات متنوعة من الآراء والمواقف تتناول تعريفك للثقافة وللمثقف الحق ، ولمفاهيم كالحب والحرية والمعاصرة . . . وموقفك مما حققته أوربا من تقدم علمي وتكنولوجي ، وأسست له من قواعد لترسيخ مبادئ الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان ، مقارنة بما يعيشه العالم العربي من ديكتاتوريات ويتخبط فيه من فوضى . ثم نقف معاً

عند رأيك في الصحافة ودورها الكبير في توجيه الرأي العام وتنويره، وأقاسمك الرأي فيما يجب أن يحظى به الصحفيون من مكانة مرموقة ومن تشجيع وحرية حتى يتمكنوا من العمل الجاد بعيداً عن الضغوطات التي تقزم أعمالهم. وننتهي بالوقوف عند تأمل مفهومك للغربة التي تعيشينها، أنت شخصياً، في أعماقك كما أعيشها أنا ويعيشها جل المثقفين والمفكرين خصوصاً المثقفين العرب، كل يعاني من قساوتها نصيبه ويتذوق من طعمها مقادير تتفاوت مرارتها حسب الظروف والملابسات التي يوجد في أجواءها وتفرض عليه فرضاً، غالباً لا تعرف استقراراً ولا راحة ولا طمأنينة. ومن جديد تبرز مأساة العروبة بكل زخمها عنواناً كبيراً يؤرقك ويقلق راحتك وينهش ضميرك وضمير كل الأحرار الأوفياء لمبادئهم ولوطنيتهم وقوميتهم.

تخللت رحلتي معك استشهادات من بعض أحاديثك وأجوبتك عن أسئلة مستجوبيك في شتى الحوارات، استقيت جلها من كتاب «سعاد الصباح حمامة السلام» لعلي المسعودي، ووضعتها بين مزدوجتين متلوة بثبت رقم صفحة الكتاب. لقد حرصت ما استطعت على توخي الموضوعية في الطرح والتحليل وعدم الانفلات للتذويت بفعل إعجابي بسرعة بداهتك وبعمق فكرك واعتمادك في أحكامك على التحليل العقلاني الرصين. الواقع

أن آرائك ومواقفك التي تجمع بين الجرأة واليقظة والوعي ، وبين التحرر من قيود المجتمع والتقاليد المتوارثة البالية في معاملاتها الجائرة للمرأة ، مع الحرص على التشبث بما هو أصيل وعقلاني فيها وبمبادئ تعاليم ديننا الإسلامي الذي كرم المرأة بوجه خاص ، كانت تجد في قلبي هوى لتوافقها مع العديد من آرائي ، فكنت أنساق في الحديث عنك ومعك وأنا أقاسمك الرأي بصددها مما قد يجعل القارئ يرى في هذا السجل ـ الشهادة بصمات من الذاتية ، لن أؤاخذه في عتابه لي إن هو لم يغفرها لي ، ولكن متى ما استطاع أن يتقمص شخصي في مشاعره وإحساساته وتحليله المنطقي فيما تناولت ، لن يراوده شك في أن ما بدا له من ذاتية في هذا التناول هو عين الموضوعية بكل صدق ودون مزايدة . وليس من حقي أن أستبق الأحداث ، لأن واجبي نحو القارئ يقتضي أن أدع له فرصة القراءة وأن أتلافى التأثير فيه وتوجيهه وجهة مسبقة كيما ينطلق في قراءاته بما يجب من حرية ويصل إلى النهاية ، وقد امتلأ وفاضة بالأحكام التي يراها .

ويبقى أخيراً أن أتوجه إليك ، عزيزتي الفاضلة الدكتورة سعاد الصباح ، وإلى كل القراء الأفاضل بالتماس تحمل صحبتي في هذه الصفحات التي ما أردت بها سوى تسديد دين ثقافي نزيه كان يثقل كاهلي ، واستجابة للأمانة الفكرية التي قلما يستجيب لها الكتاب

والمفكرون إزاء الطلائعيين من بني وطنهم ما بالك أن تستجيب لها امرأة إزاء امرأة ، تشهد الله على قصدها الأخلاقي والفكري النبيل وعلى إيمانها بما تستحقه شاعرتنا ومفكرتنا الفذة من تقدير وتكريم وإخلاص للود . . .

لعل هذا **السجل ـ الشهادة** ينال منك ، أيتها العزيزة ، ومن القراء الأعزاء الرضى والقبول ، ويقابل بالتغاضي عما يتخلله من تقصير أو جور ، فالنية حسنة والقصد شريف ، وعلى الله المعتمد ومنه التوفيق .

«إن يعلمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً يُؤتِكم خيراً» . صدق الله العظيم .

باريس 2003/06/15

«أنا امرأة لها ثلاث هويّات .

الهويّة الأولى :

هويّة عائلية بحكم الانتماء ،

ولادة وزواجاً ، إلى آل الصباح»

الانتماء إلى آل الصباح يشرفني ولكن لا يعطيني أي امتياز
الدم لا يكون أزرق . . ولا أخضر . . ولا أصفر، وإنما يكون دماً إنسانياً
كانت طفولتي مرسومة باللون الأخضر . . عرفت اللون الأسود حين
فقدت الوالدين
أبي كان رفيق المشاوير، عاشقاً للطبيعة، منه تعلمت ثقافة الأرض
بوردها وعشبها وأشجارها وأمطارها وعصافيرها وقمرها ونجومها
علمتني أمي أن أكون سيدة نفسي، مسؤولة عن إدارة البيت منذ أن كنت
في العاشرة من عمري

ليس عبثاً أن تراعى دولياً في رسم هوية الشخص بعض المحددات : اسم العائلة، الاسم الشخصي، تاريخ ومكان ولادته، عنوان سكناه، المهنة التي يزاولها، إذ لكل منها أبعاد تتداخل فيما بينها لتشكل ملامح طبيعة الفرد وسلوكه داخل البيئة، الصغرى والكبرى، التي ينتمي إليها وتطلعاته المستقبلية. إذا كان الانتماء العائلي وتاريخ ومكان الولادة لا خيار معها للفرد، بحيث لا يتدخل الوليد، لا من قريب ولا من بعيد، في انتقائها فإن محددات ذلك تسهم بقسط وافرٍ في تنشئته وتكوين شخصيته وتحديد فعاليات اندماجه في المجتمع الإنساني الكبير. من البديهي أن ذلك ليس

بالمهمة السهلة، ولا يخضع لوصفات تربوية قبلية منمطة. هكذا فإن الانتماء العائلي سيف ذو حدين، بقدر ما قد يكون إيجابياً لصالح تكوين الشخص بقدر ما قد يكون كذلك سلبياً على عكس المتوقع. إن قدرات الإنسان الغريزية، وكفاءاته المكتسبة تتفاعل لتنسج مع معطيات الولادة والنشأة الشبكة الفيلكرانية الخلفية لمقومات تشخصن الكائن البشري وبلورة مختلف أبعاده.

صحيح أن الانتماء العائلي يحدد الإطار الأولي لملامح الشخص وقواعد انطلاقه في ممارساته اليومية وتوجهاته في مسيرته الحياتية الطويلة، وصحيح كذلك أن الواقع المجتمعي يفرز، بحكم طبيعة الأشياء وسنة الكون، شرائح إنسانية متفاوتة وجاهة وحضارة وعلماً ومالاً... بيد أن هذا التفاوت لا يعني احتقار الشرائح الأخرى التي تفتقد ما يبوئها مكانة مرموقة في المجتمع، وإقصاءها إلى حيز غير إنساني، ولا يعني بتاتاً الانتماء إلى فصيلة آدمية من صنف متميز يسمو دمها على فصيلة الدم الذي يجري في عروق سواها. فإذا كان بعضهم يزعم أن سلالة الملوك والأمراء سلالة متفوقة تحمل فصيلة دمها عناصر النبل والفضيلة المتوارثة ويشرفهم ذلك فإنك، أنت أيتها الأميرة الدكتورة سعاد عبد الله المبارك الصباح، تؤكدين اعتقاداً وخلقاً بطلان هذا الزعم، ويأتي انتماؤك ولادة وزواجاً إلى آل الصباح يوم رأيت نور الوجود، صبيحة

الثاني والعشرين من شهر ماي سنة 1942م، بكراً لوالدك المرحوم الشيخ محمد صباح الصباح الذي كان يحمل اسم جده الشيخ محمد الصباح حاكم الكويت من عام 1892م إلى 1896م. فإنسانيتك الحق تسمو بك فوق كل اعتبارات التمظهر الإماراتي التي يتمحل غيرك في التمسك بأهدابها، وتجعل منك، في حد ذاتك، انتماءً فذاً متكاملاً ومتفوقاً.

أقرأ حديثك عن هويتك العائلية فأزداد بك إعجاباً، وبتواضعك انبهاراً، وتزداد مكانتك في عيني سمواً وارتفاعاً تصرين على التواضع خنوعاً لخالقك وتقديراً لعباده وسلوكاً متحرراً من قيود تبوء مكانة الصدارة المجتمعية التي تستحقينها بكامل الجدارة. ولعمري إن تواضعك لله هذا يزيد من رفعتك إلى أسمى المقامات، لننصت إليك تعلقين على انتمائك إلى آل الصباح قائلة:

«هو انتماء يشرفني، ولكنه لا يعطيني أي امتياز ولا يجعلني، كما يتصور البعض، من أصحاب الدم الأزرق، فالدم لا يكون أزرق... ولا أخضر.. ولا أصفر.. وإنما يكون دماً إنسانياً، ودم الإنسان هو هو في كل زمان ومكان، وهو في إنجلترا كما في بنجلاديش، وفي استوكهولم كما هو في الكونغو، وفي نيويورك كما هو في حي سيدنا الحسين والغورية في القاهرة، وفي باريس كما هو في السالمية والفحيحيل في الكويت...».

ما أنبل تواضعك وخلقك! وما أحد ذكاءك في انتقاء أمثلتك تلك، من كبريات مختلف عواصم الدنيا إلى الأحياء الأكثر شعبية، من أرقى المراكز حضارة مادية ومستوى مجتمعياً إلى أسفلها ضيق عيش وحلكة مصير!. لا فرق بين آدمييها ككائنات بشرية مهما اشتدت الفوارق المشخصنة التي تبوئهم مقاعد متميزة في قطار الحياة. إن الدم لم يكن، ولن يكون أبداً محدداً لأنواع من الهويات الإنسانية ولا عنصراً مميزاً لتفوق بعضها. فالدم الأحمر يسري في العروق عبر جميع الأعضاء التي تحتل نفس المواقع في أجسام جميع الكائنات البشرية، ويقوم بنفس المهام لحياتها، تحت ظل جميع السماوات، سواء كان لون بشرة الجسم أبيض أم أسود، وسواء كان الفرد غنياً أم فقيراً، حاكماً أو محكوماً.

لقد ترعرعتِ، أيتها الإنسانة النبيلة، في حضن عائلة مثقفة، متزنة، عاقلة، محترمة لمكانتها التي أرادها لها الله، خالية من الهزات التي تنم عن مطبات متفاوتة العمق والقوة. كان الأب معلمك الأول الذي علمك الكتابة والقراءة وبذل قصارى الجهد لينمي ثقافتك العامة، يحمل لك يومياً آخر ما صدر من كتب «عالم المعرفة» والمجلات الثقافية. وكانت الأم ينبوع معارفك التاريخية بما أفادتك به من قراءاتها لبعض الدوريات والمؤلفات، وفي طليعتها كتب جرجي زيدان، دون أن تخل بمسؤوليتها في السهر على

تنشئتك تنشئة يطبعها الحرص على أن تجعل منك سيدة نفسك، مسؤولة عن إدارة البيت ولم تتجاوزي بعد العاشرة من العمر. لقد جسد والداك الشمعة التي شكلت دائرة الضوء في حياتك، وكان بيتهما بحق «عشاً من أعشاش المحبة، وحديقة من الحنان والرحمة» (ص. 84). لم يكن للاضطهاد به مكاناً، ولا للخوف والإرهاب مزاراً. تسوده معادلة التعامل معك، أنت الأنثى، ومع أخيك الذكر من غير فرق بينكما. تسير فيه الأمور كلها وفق مبادئ ديمقراطية ثابتة، فنشأت بفضل هذا الوسط الطاهر العفيف المتزن الرصين بلا عقد ولا تشويهات نفسية. وازى ذلك وسانده ما تلقيته من العلوم الأولية في مدرسة الخنساء بالكويت، وبعدها في ثانوية المرقاب للبنات.

تحت هذا السقف الأبوي الحنون تلقنت كيف تحبين العالم وتكونين صديقة للإنسان، فكانت طفولتك المشتل الذي أينعت أزاهره وانتشر شذاها عبر مسيرتك الطويلة في الحياة. فشكل هذا الصبا الأول، بما تركه من بصمات على جسدك وروحك، محطات القلب التي تضيء في الأعماق كمنارة بحرية، ما تزالين تطربين لذكراها قائلة:

«كانت طفولتي لوحة مرسومة باللون الأخضر، وكانت أحلامي تتراقص مع شجرة الصفصفات، وتغتسل بمياه البحرَ، وتبحر مع

السفن المبحرة إلى جنوب شرق آسيا . هذه المحطة الأولى هي محطة الفرح الحقيقي ، حيث كان كل شيء إما أزرق ، وإما أخضر ، وإما بنفسجي ، أما بقية الألوان الداكنة من أسود ورمادي وكحلي وبني وغامق . . فلم تكن موجودة في علبة ألواني» (ص . 83) .

ويأبى القدر إلا أن تذوق الأميرة ، الصغيرة السن الكبيرة الفكر ، مرارة اليتم لتطل في سن مبكر على عالم آخر من عوالم الحياة ، عالم المحطات القاسية والدروب الوعرة ، إذ اختطف المنون الأم الصدر الحنون ولم يمهلك طويلاً ليختطف الأب سقف البيت وأنت في السنة السابعة عشرة من العمر ، فحلت برحيلهما الفترة المحتومة المؤلمة لتتعرفي على الألوان الأخرى الغامقة ، يتصدّرها السواد تقولين :

« لم أكن أعرف على وجه التحديد ماذا يعني اللون الأسود ، اللون الأسود عرفته أول مرة في عام 1960/1959م حين ماتت أمي ثم لحقها أبي . . .» (ص . 83) .

تلك سنة الحياة ولن تجد لسنة الله تحويلا .

الفلبيين . وكل لغة وأنتم طيبون» (ص . 99) .

ويسكنك هاجس العروبة ومصيرها في الأجيال المقبلة ، ولا تخفين خوفك مما قد يؤول إليه الأمر ، لا قدر الله ، إذا ما ضاعت اللغة العربية بفعل الخادمات المربيات . ولا حل لذلك ، في رأيك ، سوى العمل على الاستغناء عنهن ، تضيفين معقبة : «إن ما يحقق الرباط القومي بين الأبناء ولغتنا هو أن نستغني عن الخادمة السيرلانكية أو الفلبينية أو الهندية ، لننام في غرفة واحدة مع أبنائنا» ، إنها غرفة الحب والحنان والعطف الحميمي حيث يتقاسم الآباء والأبناء لغة التواصل المتسللة إلى الأعماق ، لغة أجدادهم ، لغة العروبة والقرآن الكريم .

إن وعيك ، أيتها الأم الحنون ، بأهمية الروابط العميقة القائمة بين الأم وأبنائها ، إحساساً وواقعاً ولغة وسلوكاً وأخلاقاً ، وكذا اعتزازك بقيم الأمومة الطاهرة وفحواها النبيل جعل أحب الألقاب إليك وأقربها إلى قلبك لقب «أم مبارك» . فلا لقب الدكتورة ولا الشاعرة ولا الشيخة ولا الأميرة يسمو إلى مقام ما يحمله لقب الأمومة التي «تحمل أعظم معاني حياة المرأة» ، فاسم «مبارك» «اسم محفور في شرايين العمر» (ص . 38) . إن الأمومة تعبير عن كمال الأنوثة وعما يغمر وجدان المرأة من إحساس ، من ثمة يأتي الشعور بالمسؤولية إزاء هؤلاء الأطفال الذين أراد الله أن يكون رحم المرأة

مقر تكوينهم، وزرع في قلوب الأمهات بذرة رعايتهم المستمرة ومحبتهم المتجددة التي لا يعتريها البلى ولا القدم، ولا تحتاج إلى وسيط أو محفر. فكيف تبيح بعض النساء لأنفسهن التلاعب والاستهانة بمسؤولية الرعاية اللازمة لتنشئة أطفالهن تنشئة صالحة. لعل فاقد الشيء لا يعطيه!. من يدري؟. والخلاصة لديك أن ليس كل من تضع حملها من بنات حواء «تستحق لقب أم حين تترك أطفالها في أحضان الهنديات والفلبينيات... إلخ» (ص. 124).

لقد تسرب على أعماقك الإحساس بالفحوى العميق للأمومة المتجدد على الدوام من والدتك المرحومة، فجئت صورة لها، مشحونة أنتِ أيضاً، بالحنان والعطف على فلذات كبدك، تخافين عليهم رغم بلوغهم سن الشباب وكأنهم ما يزالون بين أحضانك صغاراً، سلاحك للذود عما قد يعتريهم من مخبوءات القدر الإيمان بقدرة الخالق على حفظهم، والإكثار من الدعاء لهم بالرضى والستر والخير والبركات. وفي حضن والدين عصريين متفتحين، أنت والمرحوم أبوهما الشيخ عبد الله المبارك، تربى الأبناء على احترام أنفسهم، يتمتعون بحرية «لا إسراف فيها ولا إمساك، لا تضع على القلوب أقفالاً ولا على الأفكار نقاباً، ارتضت لها حدوداً يمليها التراث والإيمان» (ص. 92)، وزودتموهم بأفضل كنوز الأرض رصيداً، وأعظمها استثماراً: زاد العلم والمعرفة، فشق كل واحد

منهم طريقه بما هو ميسر له ميولاً وفكراً. كان لتحفيزكم لهم على العلم أكبر الأثر فيما حققوه من نجاحات ارتكزت على الاعتماد على الذات والاقتناع بضرورة السعي للفوز بحياة كريمة تليق بمقامهم المجتمعي والإنساني المتميز، كما كان للاختيار الذي تبنيتموه في تنشئتهم وتوجيههم عميق التأثير في مسيرتهم والتسلح بالثقة بأنفسهم وتكوين شخصيتهم. لقد آمنتم أن الخطأ الفادح يكمن من إرغام بعض الآباء أبناءهم على عبور جسر لم يشركوهم في بنائه ولا خبرة لهم بهيكله وصلابته، مما قد يؤدي إلى تلكؤهم في اجتيازه أو وقوعهم منه، تقولين:

«أنا لا أرسم لأولادي سكة حديد يعبرها قطار حياتهم كما أشاء! هذا خطأ» (ص. 116).

وبقدر ما تسير الأمور سيرها الطبيعي بقدر ما تأتي النتائج حميدة ومرضية. فمنهم من اختار التخصص في العلوم السياسية والاقتصادية، ومنهم من شق طريقه في سكة العلوم الإدارية والتدبير. وجميعهم ـ بحمد الله ـ جاؤوا صورة ثانية لك، كل واحد منهم يعكس قسمة من قسماتك وملمحاً من ملامحك.

يظن بعضهم خطأ أن أبناء الوز يكونون، بالضرورة «عوّامين»، مهرة في فن السباحة، يسألك أحد مستجوبيك باستغراب عن السبب في عدم سير أي واحد من أبنائك على نهجك في قرض

الشعر أو الاهتمام بأي جنس أدبي آخر رغم كون بيتكم يتميز بمستواه الأدبي الرفيع ورغم «سطوتك الشعرية» التي تنفردين بها، مقدماً أطروحة عدم محاولتك جرهم إلى هذا الاتجاه وقصورك عن التأثير فيهم، فيأتي جوابك، مرة أخرى، مفحماً، يعتمد الحجة من التاريخ والإقناع بالمنطق القائم على القياس والاستدلال المذكر بأن عدد الشعراء في العالم وعبر جميع الأزمنة الذين أنجبوا شعراء وفنانين مبدعين قليل جداً، إن لم يكن نادراً فقلت:

«لقد ربينا أولادنا على احترام النفس وعلى ضرورة الاختيار لمنحى حياتهم، فهل يعقل أن نفرض عليهم أن يكونوا شعراء. لا أذكر من بين جميع شعراء وشاعرات العالم العربي من كان أبوه أو أمه من أهل الشعر» (ص. 33).

وتبقى حرية الاختيار، في مثل هذه المجالات، حق كل فرد مهما كانت العلاقة التي تربطه بغيره، تضيفين: «إن كل شيء قابل للتوريث إلا الشعر. إن الاهتمام عموماً مسألة شخصية جداً لا يستطيع أحد أن يفرضها على سواه، ولا يجوز له أن يحاول».

أيتها الأم الحماة والجدة الطفلة!.

تصبحين في مسيرة الحياة، «حماة»، ومرة أخرى تكون والدتك أسوة لك حسنة، في اتخاذك زوجة ابنك ابنة لك، على غير ما هو مألوف لدى جل النساء. لقد جرت العادة في الغالب أن يسود

التوتر إن لم نقل الشنآن، بين العروسة (زوجة الابن) وبين أمه (الحماة) وكأنهما يتنافسان تملك الابن - الزوج. تعمل كل واحدة منهما على أن تنتصر على الأخرى في حرب باردة أحياناً وحامية الوطيس أخرى. أما أنت سعاد، فإن تمردك على التقاليد البالية أحصى كل صغيرة وكبيرة ليتخلص منها مرسخاً أسساً متينة للقيم السامية النبيلة. هكذا سلكت نهج جدتك من أبيك في معاملتها لوالدتك، ورفضت أن تكوني حماة لزوجة ابنك بالمعنى التقليدي السلبي الذي يضفيه المجتمع على العلاقة بينهما، بل جعلتها ابنة «ثالث» أمنية وشيماء، مذكرة بمكانة أمك لدى جدتك، تقولين :

« لم تكن جدتي حماة لأمي، وإنما كانت أماً لها، وكذلك أنا، فزوجة ابني هي ابنتي الثالثة» (ص. 99).

وتتفتح بذرة الأبناء عن براعم، ويكون من حظك أن تصبحي جدة، فيحتل الأحفاد في قلبك مكاناً متميزاً ويشقون للأسرة الصغيرة منطلق حياة جديدة تحفها الأفراح والسعادة والآمال، تجعل منك سعاداً أخرى، تتخلين عن رصانتك التي تميزك كلما رأيت حفيداً أو أكثر من أحفادك، تنسين نفسك وتتحولين إلى لعبة تدخل المرح عليهم، فترفل أعماقك فرحا بشعور العودة إلى الطفولة وأنت تلاعبينهم، إذ ينقلك الأحفاد من عالمك المثقل بما يقتضيه وضع أميرة مثقفة وشاعرة مفكرة وربة أسرة وسيدة أعمال وإنسانة

مسؤولة . . . إلى عالم الطفولة البريئة الخفيفة الجناح كريشة الطائر الحر الأمين، بل تتحولين إلى طفلة كل همك جلب الفرح إليهم والاهتمام بهم، لا يفارقك القلق على فلذات كبدك فيبدو دموعاً تذرفها مقلتيك لسماع صوت أحد الأبناء أو الحفدة عبر الهاتف، وتهدجاً في صوتك عند الحديث إليهم بعيدين عنك في مكان ناء، تصبحين ولهى لا تحتملين البقاء لحظة واحدة حيثما كنت إذا عرفت بمرض أصاب أياً منهم. وباختصار تصبحين سعاد التي تؤكد قائلة بدون تردد: «مع أحفادي أعلق رصانتي وهدوئي وشخصيتي على الباب قبل أن أدخل عليهم» (ص. 99).

تلك حكمة بالغة: إن الخالق الذي قدر عليك الترمل برحيل «فارسك المغوار» أبى إلا أن ينفث من قبس نوره وعزيز لطفه الروعة في حياتك كيما تنشدي إليها طيلة ما قدر لك أن تعيشي في هذا الكون، فيجعل من الأبناء والأحفاد امتداداً للسيل «المبارك» الدفق وتجددا لسيرورة في مسيرة لا تتوقف، ويظل الشيخ عبد الله المبارك «موجوداً في ولديه محمد الذي أخذ الكثير من طباع والده، ومبارك الذي يكاد يكون هو، حين يقبل أو يتحرك تحسبونه عبدالله المبارك» (ص. 40، 92)، وآليتم جميعاً على أنفسكم أن تواصلوا مسيرته وتتمسكوا بحمل سيفه مدافعين عن عزة الوطن وكبرياء البيت الذي تنتمون إليه.

يا لعمق الإخلاص والوفاء للراحل العزيز وللوطن الحبيب وللبيت العريق الأصيل !.

وتظلين في كل المواقف، أيتها الأم - الجدة، بطلة الساحة، تحكمين العقل والرزانة في إدارة البيت ومباشرة أموره بسديد المنطق وكامل اليقظة وكأنك في برلمان مصغر يخضع للتقاليد التي زرعت، منذ آلاف السنين، في هيكل الأسرة العربية الكويتية، حيث يحظى كبير السن بقيمة وجلال لما تمثله تجربته الحياتية من رصيد نفيس يجلي صواب الرؤية، ويعتمد في اتخاذ صحيح القرار، وتصان حرية جميع الأفراد، ويحترم رأي كل واحد منهم عن طريق التشاور والبث الجماعي في مختلف القضايا.

هكذا وقفت - في آن واحد - وقفة الرجل والمرأة في ظل الظروف التي طرأت على بيتك بافتقاد «الحجر الأساسي»، وقفة صمود وشموخ متجلدة ثابتة القدمين تحمي جدران بيتك من السقوط، مؤمنة، كما تقولين، بأن: «في وقت الشدائد تنهار الحدود بين الرجولة وبين الأنوثة، فتصبح المرأة رجلاً ويصبح الرجل امرأة دفاعاً عن غريزة حفظ البقاء حتى تصل السفينة إلى شاطئ السلام» (ص. 89). وما نشك في أن نفحة ربانية ساعدتك وستظل، بحول الله، تساعدك على تحمل مهامك الجديدة التي انضافت إلى ما كان على عاتقك من مسؤوليات، نفحة، تنفث

في روحك طاقة بها تستطيعين تجاوز مختلف مشاكل الحياة، وما أكثرها! . باقتدار وبنجاح. فبارك الله فيك امرأة نموذجية تديرين أعمال مملكتك الصغيرة بتفوق وتتحملين مسؤولياتك الأسرية والاجتماعية بوعي، وبارك لك في سنديك وسيفيك سيدي محمد وسيدي مبارك خير خلف لخير سلف، ومتعكم جميعاً وأمنية وشيماء وجميع الأحفاد الصغار، أشبال الأسود، بموفور الصحة والعافية، وزادك من الطاقة والنعيم والقوة والخير والبركات ما يحقق آمالك وآمال ذويك فيما أنتم إليه ساعون وفيه راغبون.

وإذ أعلم حق العلم أن ثالث أحب المواضيع التي ترغبين في الحديث عنها، وتودين «لو يكون ذلك دون انقطاع، هو الحديث عن أسرتك»؛ وإذ أعلم، كذلك، أن مما يدخل البهجة والسرور على قلبك وقسماتك هو أن «تري سنابل البيت تعطي قمحاً وتتكاثر»، أدعو الله القدير ان يستجيب لأمنيتك ويفسح لك من فرص الهناء ما تحققين فيه أفضل ساعات يومك، التي هي ساعات لهوك وتسليتك مع أحفادك في جوقة تهتز لها أوتار مشاعرك الداخلية غبطة، وتتمازج فيها ضحكاتكم الملائكية لتعزف أجمل سمفونية يطرب لها الوجود المشرق الباسم.

ولعل أفحم كلمة أختم به هذه الإطلالة الحميمية على بيتك العامر هو ما يستقي ألفاظه ورموزه-من لغة الصمت، فهي أفذ

ناطق وأبلغ معبر وأفصحه عمّا يسكن الأعماق . فقد تعلمت منك الحديث بها في عديد من المواقف والأحايين ، أيتها الأم الحنون والشاعرة المتألقة ، إنها مثلك عنوان حضارة ولغة رقي وتسامي عن العبقريات المزيفة .

الهويّة الثانية :

هويّة ثقافية ، اكتسبتها

بالعمل والإرادة والتصميم

محطات العقل أو السفر في فضاءات المعرفة والارتشاف من ينابيع العلم
الإبحار في عالم المعرفة أو محطة العقل والتكوين العلمي
الرحلة الثقافية ومسيرات النضال الفكري والوطني

في حضن معلمك وشيخك عبد الله المبارك ، تحديت زيارات اللون الأسود لك فظللت ممتلئة بالحياة والحيوية والثقة بالله وبالنفس ، يقودك ، كما تقولين : «التفاؤل ، أمشي على الرمل أو أقفز فوق الأرض في خيلاء الصبية المدللة» (ص. 98) ، تناضلين على شتى الجبهات الفكرية والعلمية والأسرية منغمرة في البحث العلمي والدراسات العليا والإصدارات الفكرية في مجال الاقتصاد والسياسة وحقوق الإنسان ، ومتنعمة بموهبتك الإبداعية الشعرية وبما تنشره من قصائد وتصدره من دواوين . لقد كان إبحارك في عالم المعرفة والدرس والبحث والتحصيل يتم في تناسق مع مسيرتك الثقافية والنضالية ، فجاء انتسابك إلى جامعة القاهرة ، سنة 1971 ، بلسما لجرح تأخرك عن متابعة دراستك العليا ، حيث فتحت لك كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ذراعيها بكامل الترحاب واحتضنتك طالبة متميزة . بعد حصولك على شهادة الباكلوريوس في الاقتصاد سنة 1973 أخذت ترددين على جامعة سارجلفورد البريطانية ،

وتوجت دراستك بها على كبار أساتذة وأخصّاء الاقتصاد بالحصول على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد حول موضوع: «التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي» سنة 1981م، وتصدر الدراسة باللغة الإنجليزية في لندن كتاباً يفيد ذوي الاختصاص سنة 1983.

توالت، نشاطاتك الثقافية والسياسية والاقتصادية بالمشاركة في العديد من الندوات والمؤتمرات وإحياء الأمسيات الشعرية في مختلف عواصم العالم العربي، بدءاً من القاهرة فالخرطوم وعمان ودمشق والبحرين ودبي وتونس ومسقط والرياض وفاس ولندن وواشنطن وباريس وجنيف... وازى ذلك ما تنشره لك العديد من الصحف والمجلات العربية، داخل الوطن العربي وخارجه، من مقالات ودراسات اقتصادية وسياسية قومية وأدبية وجدانية، عدا الكتب والأبحاث والدواوين الشعرية. صاحبتك في هذا الجو المليء بالنشاط الثقافي والعطاء الشعري والتأليف في ميادين الاقتصاد والسياسة العناية الإلهية لتجعل منك، أيضاً، المناوئ عن حقوق المستضعفين، فشغلت مجالات الدفاع عن حقوق الإنسان وقضايا المرأة والأسرة والطفل حيزاً مهماً من اهتماماتك المتعددة ونضالك الدؤوب للوقوف في وجه كل حيف وتظلم وانتهاك للحقوق، بالقلم والمال والجاه والمشاركة الفعلية في عضوية المجالس والهيئات الجهوية والدولية المعنية بذلك. وتطول لائحة مجالس أمناء المنتديات

والجمعيات والمنظمات التي شَرُفَتْ بمساهمتك في تأسيسها أو عضويتك فيها عضوية شرفية أو عاملة في لندن والقاهرة والمملكة المتحدة وعمان وبيروت والكويت . . . ، عدا ما شرفتك به بعض الجامعات والهيئات العليا من منحها إياك أوسمة متميزة ودرجات فخرية عالية . وكما أن للفكر مكانة في اهتماماتك الأساسية ، كذلك نجد فيها للتعليم وقضايا الطلاب والنقد والصحافة والصحافيين والعلائق الدبلوماسية والاقتصادية والصداقة بين وطنك وبين بعض الجامعات المراكز والهيئات الاستشارية العليا في دول الغرب والولايات المتحدة الأمريكية مكانة خاصة .

ظل هذا التألق مشعاً ومتدفقاً في مسيرة متصاعدة ، وعرفت نشاطاتك السياسية والصحفية تزايداً وازدهاراً ، فحظيت التلفزات بتسجيل العديد من المقابلات معك ينتظرها الجمهور بشغف ، ويتعرف من خلالها عليك شاعرة رقيقة ومفكرة منظرة ومتخصصة في الاقتصاد وخبيرة في شؤون السياسة ومناضلة من أجل حقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل .

مع مطلع عقد السبعينات هبت نسمة جديدة في طالعك الثقافي حيث أخذت تتوالى الدراسات والأبحاث الجامعية التي اختارت دراسة وتحليل إبداعك الشعري واتخاذه موضوع رسائلها لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه في جامعات الأردن ولبنان والصين

والبحرين وباريس والكويت والقاهرة، ولم تكن تكاد تمر السنة دون أن تصدر المطابع كتبا لباحثين وباحثات ونقاد كبار لهم باع طويل في دراسة الشعر وقراءته وتحليل أبعاده، تعمل على استخلاص ميزات الشاعرة سعاد الصباح، المرأة الاستثنائية، وتحليل قصائدك ودواوينك الشعرية الوجدانية والنضالية الوطنية والعروبية، وإبراز خصوصياتها الإبداعية.

كما عرفت حركة ترجمة بعض دواوينك الشعرية إلى اللغة الانجليزية والفرنسية والإسبانية والصينية والفارسية والبلغارية والأوكرانية والجورجية والألمانية والطاجيكية والإيطالية، نشاطاً فائقاً يخول لمن لا يحسن اللغة العربية نصيباً للتمتع بأشعارك في لغته التي يتقنها.

بلغت نشاطاتك الفكرية والنضالية أوجها حينما حل الحدث الذي لم يكن ليخطر لك في الحسبان، حدث اعتداء الجيش العراقي على وطنك الكويت، فطلعت الشاعرة الرقيقة التي كانت تبجل قبل «صدام»، وتشدو بالعراق وشطآنه ونخيله، طلعت «امرأة نفطية كالخنجر من تحت الرمال... تتحدى كتب التنجيم والسحر وأشباه الرجال» (ص. 52). لا مكان للخوف في صدرك إلا من ثلاثة: الله خالقك، وضميرك الذي يملي عليك تصرفاتك، وورقة الكتابة التي تجسد صلة الوصل بينك وبين الآخرين. سر نجاحك

الصدق، ومحفزك الشجاعة. طلعت نجماً ساطعاً في سماء العلا، تتقدمين صفوف العلم النضالي من أجل تحرير وطنك، وتبوأت الطليعة في اللجنة العليا لتحرير الكويت جندية مضحية بالغالي والنفيس، بالروح والجسد والمال، فمن استئجارك إذاعة خاصة للدفاع عن قضية وطنك من لندن ومؤازرة إصدارات الكتب المتصدية لهذا العدوان والمعرفة بتاريخ الكويت وأصالتها واستقلاليتها إلى الإسهام، إن لم نقل تمويل المؤتمرات التي عقدت دفاعاً عنها في واشنطن ولندن والقاهرة وجنيف وبراغ، فتحريضك لمنظمات عربية على العمل النشيط لفضح العدوان الغاشم ونواياه المقبوحة، وتجنيد قلمك لكتابة ونشر العديد من المقالات في الصحف اليومية العربية الصادرة في لندن: «الحياة» و«الشرق الأوسط»، والأخرى الصادرة في الكويت: «القبس الدولي» و«صوت الكويت» وغيرها. لقد جندت صوتك وطاقاتك كلها في برامج إذاعية يترقب الناس الإنصات إليها صباحاً عبر إذاعة الكويت في الدمام، ضمن برنامج «صباح الخير يا وطني يا ديرة الخير يا كويت»، ومساءً ضمن البرنامج الأسبوعي «الكويت في الصحافة العالمية» الذي تعملين من خلاله على استشراف أبعاد الأحداث وتحليل وضع الكويت السياسي، في الماضي والحاضر والمستقبل.

كان جهادك جهادات متواصلة تتعاقب بتعاقب الليل والنهار،

حركاتها دائبة، ومخططاتها واضحة وأقدامها راسخة وثابتة. لكل خطوة فيها نجاحات ولكل مأمول مسارات. ويكون لعشاق سماع صوتك النافذ عبر اللاسلكي حظ التمتع بما سجله من قصائدك الوطنية في شرائط كاسيت لإسماع صوتك، صوت الحق، إلى أبعد ما يكون، إسهاماً آخر منك متميزاً في النضال ضد الغزو العراقي المشؤوم وانتصاراً للمظلوم وخزياً على الظالم. ويصاحب حدث الانتصار والتحرر فاجعة انتقال شريك حياتك «الذي يسكن القلب ويملأ الروح» إلى الرفيق الأعلى، فاجعة لم يكن لوقعها عليك مثيل في حياتك، لكن بفضل الله خرجت من النفق المظلم شعاعاً متجدد النور، تتابعين مسيرتك في الحياة المجتمعية والثقافية والفكرية على بصيرة من الله وقادة، وعرفت إصداراتك، شعرا ونثراً، ازدهاراً كبيراً.

الاقتصاد هو صلب قضية الحرب والسلام وبضبطه تتسنى المعادلة الحضارية الناجحة

عزل الظاهرة الاقتصادية عن بقية الظواهر المجتمعية يرسخ تخلفنا وتبعيتنا

الإنسان بالتكوين ورقة بألف صفحة، منها الاقتصاد والعلم والإيمان واللغة والتاريخ

لقد آمنت، سعاد، منذ حداثة سنك بأن الإنسان روح وجسد، والروح مجال الفكر والعقل والتفقه والبصيرة، والجسد القالب الذي يحويها والساهر على تهيئة الظروف الملائمة لتفاعلاتها، والمغذي لها والعامل على اتساق مجالاتها المتداخلة والمكاملة في تناسق يعز معه التمييز بين حدود كل منهما أو استغناء أحدهما عن الآخر. تلك سنة الكون التي خلق الله عليها عباده. وعلى قدر ما يتحقق من توازن وانسجام بين الوظيفتين تتحقق سعادة الفرد في الكون وآماله فيما يترقبه بعد الموت. تقنن لذلك نظم القيم والأخلاق والنشاطات الفكرية والثقافية من جهة، وأسس التنمية الاقتصادية وقواعد التعامل مع الكون وتسخير الطبيعة واستغلالها من جهة أخرى. كل اختلال يدب في نسق التكامل بين المنظومتين يسجل تدهوراً في حياة الإنسان الذي كرمه الخالق باستخلافه له في

أرضه . وما أبلغ حكمة الحديث النبوي الشريف الذي يلخص قمة التفاعل بين الجانب الروحي المعنوي وبين الجانب المادي الجسماني للإنسان ، يقول النبي ﷺ : «كاد الفقر أن يكون كفراً» ، ذلك أن الفقر يعتبر عاملاً قاعدياً في اختلال توازن الكائن البشري وسير المجتمعات . فلا بد إذن من توفير المتطلبات المادية التي تسد حاجيات الفرد الفيزيولوجية كيما تستقر أحواله المعنوية في حالتها الطبيعية التي تسري عبرها مدخلات العقل والمنطق والسعادة والشقاء وكل العواطف والإحساسات التي تحقق التوازن المطلوب لدى الكائن البشري وتخلصه من الركون إلى الأرض والالتصاق «بترابها» وتنتزعه من حظيرة الحيوانات التي لا ينقطع لهثها وراء الماديات المحض .

لقد وعت الدكتورة سعاد الصباح هذه الأبعاد الإنسانية الحياتية منذ انطلاقة مسيرتها الفكرية ، فلم تنجرف مع الموهبة الشعرية التي غالباً ما يقع في حبالها الفنية عدد كبير من الشعراء ، فتتغلب عواطفهم على عقولهم . لقد نفذت ببصيرتها إلى أعماق المآسي الإنسانية التي تحتد مع الفقر والعوز وسوء التدبير الاقتصادي في بلدان عالمنا الثالث ، تلك المآسي التي ترزح تحت وطأتها الأغلبية الساحقة من السكنة ولا تتبصر لأحوالهم الثلة المحظوظة مجتمعياً ومادياً . من هنا جاء اهتمامها بدراسة الاقتصاد وتحليل قضاياه ،

والانشغال بمشاكل التنمية في بلادنا العربية وعلاقاتها بما يجري في العالم اقتصادياً . فالاقتصاد كما تراه : «علم شيق يتطرق للإنسان وسلوكه الاقتصادي ، كما أنه يتدرج في أهميته ليرتقي إلى مستوى العلاقات الدولية . ولا أغالي إن قلت إن الاقتصاد هو صلب قضية الحرب والسلام ، وفي هذه الخلفية فإن مساهمة الباحث تكون محدودة تتزايد مع مرور الزمن واكتساب الخبرة» (ص . 121) .

شكل هذا الاهتمام لديها محطات العقل ، حيث سافرت إلى فضاءات المعرفة والارتشاف من ينابيع العلم ، فتربعت مدارج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، وكلها زهو وانشداد إلى نظريات الاقتصاد المعاصرة ، قبل أن تولي وجهها جهة جامعة ساري جلفورد في بريطانيا العظمى لتحصل على الدكتوراه في الاقتصاد ، وتنفتح لها آفق التحصيل والدراسات العلمية الاقتصادية النفطية ، وتصبح متخصصة في التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ، ثم تتولى بعد ذلك عن استحقاق كامل إدارة «مكتب الاستشارات العلمية الاقتصادية» ، تقصد خبرتها ومشورتها في إقامة مشاريع هامة هيئات ومنظمات وشركات كبرى صناعية واقتصادية دولية ، يُزودها المكتب بالدراسات والتصاميم والرؤية البعيدة للتقلبات المالية والتجارية الدولية .

لقد استوعبت قضايا علم الاقتصاد من حيث هو علم مرتبط

ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الاجتماعية وما يقتضيه ذلك من معالجة تأخذ بالحسبان الاعتبارات السيكولوجية في علاقتها بالتقدم السريع المذهل للتخصصات المتداخلة والمتطورة المستحدثة، سواء ما تعلق منها بالرياضيات والإحصاء والهندسة أو بالتنظيرات السياسية في توجهاتها الشمولية.

إن وعيها بذلك جعلها ترى أن على المهتم بهذا الميدان أن يظل، كما تقول: «تلميذاً يتعلم في فروع الاقتصاد المتعددة، فمهما اكتسب الباحث في ظل التقدم العلمي السريع يجد نفسه دائماً في المراحل الأولى لاكتساب المعرفة» (ص. 120)، من هنا جاء حرصها الدائم على تتبع دقائق مستندات هذا الميدان كيما تكون آراؤها «تتماشى مع التطور في عالم متسارع الخطو، متبدل المعطيات»، تحاول ما استطاعت أن تقيم: «التوازن بين قناعات ولدت، وبين واقع يبدل الكثير حتى مما كنا نحسبه متألقاً» (ص. 47).

إن اشتغال باحثتنا بإدارة مكتب الاستشارات العلمية لم يحل دون أن يكون لها إسهام كبير في الكتابة والتأليف في هذا التخصص حيث نشرت العديد من الدراسات الاقتصادية والسياسية التي تتخذ من بحثها الجامعي للحصول على الدكتوراه منطلقاً، تقعد من خلالها لنظريات التطور الاقتصادي القائم على النفط وتأثيراته

في منطقة الخليج العربي، معتمدة في ذلك على تحليل تجارب الأوبك واستشراف آفاقها المستقبلية، لضبط عوامل الأزمات الاقتصادية التي عانت منها الكويت، وجس نبض تقلبات سوق النفط ومستجداتها وما لها من تأثير على أزمة الحوار والجوار في الوطن العربي ككل وعلى تعامله مع الدول الغربية وأمريكا. هدفها من مختلف تلكم الدراسات محاولة التخطيط لتنمية تراعي الازدهار الاقتصادي والنماء الاجتماعي، في ضوء المعطيات القائمة ببلدان الخليج، كما تؤكد ذلك الباحثة نفسها، إذ تقول: «لا بد من أن تؤخذ بعين الاعتبار الطبيعة النفطية لاقتصاديات الدول الخليجية». لقد نهجت الباحثة في دراساتها أسلوب التقدير الكمي والقياسي عن طريق المقارنة واستخلاص العوامل السياسية والمعالم التنموية. وللمنهج الإجرائي الذي تفضله تأثير في اختيارها لاستخدام أساليب البحث الميداني للتعرف على ما يؤثر في السلوك الاقتصادي للمواطن الخليجي كيما تتم معالجة القضايا المطروحة في إطار مفهومها النظري والتطبيقي للتنمية. هذا الإجراء يستدعي، كما ترى، تغييراً هيكلياً في المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة، يتوخى المزج بين ما يجب الحفاظ عليه مما هو أصيل في المنطقة، وبين ما هو معاصر في عالم تتشابك فيه المصالح والعلائق، وتتصارع وتتسارع أحداثه مع عقارب الساعة. وتتوصل باحثتنا

إلى القول بأن في بلادنا العربية ، حيث يتواجد التراثي التقليدي المتخلف والمعاصر الضارب في التقدم ولا يبذل أي جهد لتفعيل العلاقة بينهما تفعيلاً إيجابياً ، يعتبر التركيز على الظاهرة الاقتصادية وعزلها عن بقية الظواهر الاجتماعية هو ما يوغل أمتنا في التخلف ويقوي حدة المشاكل التي ترسخ تبعيتنا وانحباسنا في سياسة الدعم الخارجي ، وانقيادنا لتخطيطات صندوق النقد الدولي . لذا نراها تؤكد على ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية عنصراً هاماً من عناصر السياسة الاقتصادية التطبيقية التي يجب أن تستثمر فيها إيرادات النفط استثماراً تخدمه هياكل اقتصادية موائمة لتنمية العنصر البشري ، عوض تبديد الطاقات والجهود في التنويع اللامجدي للأجهزة الإنتاجية التي تكرس التجزئة والتفرقة بين عوامل الرفاهية الإنسانية المادية والروحية . فلا تنمية إلا في إطار وحدة متكاملة بينهما . وترى الباحثة ، أيضاً ، أن العقل العربي لا تعوزه الديناميكية القمينة بأن تساعده على البحث الجاد والقيام بالتحاليل اللازمة إذا ما حاول العرب الخروج من الاستاتيكية المجمدة والاتكالية القاتلة .

والملاحظ أن معرفة الدكتورة سعاد الصباح بالسوق الاقتصادية معرفة جيدة لم تجتذبها إلى الانقضاض ، كغيرها من رجال الأعمال الاقتصاديين ، على تمويل الصفقات التجارية والنفطية . إنها لا

تهتم بأوراق المناقصات والمضاربات المالية بقدر ما تسعى إلى أن تجعل الاقتصاد والمال في خدمة المشاريع الاجتماعية وتمويل الأنشطة الثقافية الأدبية والفكرية ضمن معادلة تتجاوز حجم المعادلة الاقتصادية المربحة. إنها كما يحلو لها أن تطلق عليها «معادلة حضارية ناجحة» (ص. 60)، تتعاطى فيها للتجارة، في مفهومها السامي لا البسيط المبتذل والمؤقت. من هذا المنظور تعتبر سعاد الصباح، كما قال الصحفي المصري الأستاذ مفيد فوزي، «سيدة أعمال فوق العادة»، وفيه للدائرة الاستشارية التي اختارتها لنفسها ونزيهة في تصرفاتها، لا تأبه للربح ولا للخسارة في الصفقات، لأنها «لا تقيس الأمور بمقياس المال». تبلغ أوج سعادتها عندما تمثل شركة فتفوز الدراسة التي قدمتها فوزاً عادلاً ومفيداً لبلدها، دون أن تصبح هي طرفاً ينافس في كل إعلان.

إن اختيارك، أيتها الإنسانة المفكرة لهذا الطريق الصعب، ومكابدتك لهموم الكتابة بما تسلتزمه من اعتماد على مراجع موثوق بها وتقصي للحقائق ومواكبة للتطورات الاقتصادية والسياسية، وكذا عصاميتك الصوفية بالاعتكاف في محراب البحث والدراسة والتأليف باللغتين العربية والإنكليزية لما يزيد على عشر كتب ومئات المقالات والدراسات الاقتصادية، وأيضاً مشاركتك الفعالة في العديد من الندوات واللقاءات المتخصصة في هذا الميدان،

ومحاضراتك بمختلف الجامعات العربية والأجنبية كل ذلك جعل جامعة أكسفورد تختارك من بين الصفوة المتميزة لدرجة الزمالة في جامعتها، وإنه كما تعبرين عن ذلك: «لحدثٌ رائعٌ وجليلٌ» يحق لك أن تفتخرين به، ويحق للجامعة أن تفخر بك، هي أيضاً، باحثة متفوقة تجسد على أرضية الواقع ما تؤمن به وتدعو إليه من ضرورة الربط بين العمل الثقافي والتنموي في جميع مخططاتنا ومشاريعنا. فالعلاقة بين الثقافة والتنمية علاقة ترابط وتداخل، وبمسيرتهما مسيرة موحدة ومتكاملة يتسنى الرفع من المستوى الحضاري للإنسان؛ إذ الحياة كما ترين «لم تكن، ولن تكون ورقة بصفحة واحدة، إن لكل ورقة صفحتان. والإنسان بالتكوين ورقة بألف صفحة، منها الاقتصاد والعلم، ومنها الإيمان والبيئة واللغة والتاريخ» (ص. 46).

يا لك من إنسانة مثقفة ومفكرة وشاعرة، لها من القدرات النادرة ما يخولها قراءة جميع تلكم الصفحات، والإسهام في تسطير فحواها وتحليله والاستفادة منه بما سيظل صفحة ذهبية في أرشيف التاريخ ويجلي ما قد يبدو مفارقة في شخص الشاعرة الموهوبة، وأستاذة الاقتصاد على المستوى العالمي. لك من الله كل العون والمزيد من التوفيق في زمن تهلهلت فيه العلائق بين ميادين علوم الاجتماع والاقتصاد والتكنولوجيا والعلوم البحتة، وأضحى الإنسان رقماً في

آلة يكاد يفقد كل العواطف والإحساسات ، ويندحر تحت دوامة الماديات ومنافسات البورصة والمضاربات في الأسواق المالية .

وإن تحتك لسريا !

الهويّة الثالثة :

هوية الشعر

«أنا مواطنة عربية خليجيّة يشكل الشعر
إرثاً تاريخياً لها ، ويشكل الإيقاع الشعري
جزءاً من تركيب دمها»

الفعل المرصود بجنبيات اللحظة

الشعر فضاء لا حدود له ومغامرة لا نهاية لجنونها

الشعر شجرة دائمة الخضرة والثمار

الشعر ناقدة روحي على الدنيا ومنتشلي من غبار العذاب

ألجأ إلى الشعر لأتحرر من الخوف الذي تشعر به الأنثى في هذه المنطقة

يسألونك، من أنت؟ فتجيبين:

«أنا امرأة لها ثلاث هويات: هوية عائلية [...]، هوية ثقافية [...] أما هويتي الثالثة فهي الشعر» (ص. 77)، الشعر المطرز بإحساساتك المرهفة والمنسوج بمشاعرك الجياشة. وحيث أنك بالقوة وبالفعل مواطنة عربية خليجية فمن البديهي، كما ترين، أن يشكل الشعر بالنسبة إليك كما هو الشأن بالنسبة لكل عربي، إرثاً تاريخياً يمتزج إيقاعه بخلايا جسدك ككل. «فلوثة الشعر» هذه لم ينج منها رجل عربي ولا امرأة عربية ولا شفي منها شفاء تاماً. وتسيرين إلى أبعد من ذلك لتري أن كل العرب، بلا استثناء، يولدون شعراء بالأساس قبل أن تنتزعهم من عبقر الشعر مهن أخرى تفرضها ظروف الحياة.

منذ دراستك الثانوية سكن أعماقك رنين القصيدة العربية، سيما في عصريها الذهبيين الأموي والعباسي، وتفتقت مواهبك في محاولات أولى لنظم القصيدة، وظل لهيبها يتقد ليصبح قرضه سر وجودك، وفي ذات الوقت ليصبح الشعر بالنسبة إليك الداء والدواء، حاجة «فيسيولوجية» وعضوية، ونفسية توازي «حاجة العصفور لكي يطير، وحاجة المساجين إلى نسمة الحرية». تلجئين إليه لأنه يمنحك الدفء الإنساني الذي لا تمنحه كما تقولين: «بقية الأشياء... فالأساور والخواتم والثياب الفرنسية والأحذية الإيطالية تعطينا فرحاً كاذباً ومؤقتاً، أما الشعر فهو شجرة دائمة الخضرة والثمار» (ص. 78). تلجئين إليه كي تتحرري من الخوف الذي تشعر به الأنثى في منطقتنا العربية، تلجئين إليه لأنه يحميك ويقويك ويستمع بقلب كبير إلى أسرارك الصغيرة، وتلك مطية تعال تحقق حنينك الدائم للخروج من «عالم التراب إلى عالم الضوء» (ص. 78).

إن المتصفح لدواوينك الشعرية يتبين ملامح التطور الذي عرفته القصيدة العربية، شكلاً ومضموناً، في تفاعلها مع المناخ الفني الذي يتقلب فيه العالم عموماً والعالم العربي خصوصاً. فبعد ارتمائك كشعراء جيلك في أحضان رومانسية لامارتين وموسيه وبايرون وورودث، بالتتلمذ على يد شعراء المدرسة الرومانسية اللبنانيين في

المهاجر الأمريكية ، مدرسة أبولو وجبران خليل جبران تبدى لك أن الزمان العربي لم يعد «يسمح بالاستلقاء في ضوء القمر» وأن ذلك أمر أصبح مستحيلاً تتجاوزه الأحداث ، فتخلصت منها بحذق واعتنقت ما تمليه الواقعية من التزام بقضايا الإنسان التي حمي أجيجها مع الواقعية الاشتراكية والماركسية والمادية الجدلية . وكان لك في تحليق بودلير ورامبو وبول إيلوار وأراغون ونيرودا وإيليوث ومايا كوفسكي وويتمان المثل الذي أنار طريق النضال الشعري الذي تجندت له بكل مشاعرك وإحساساتك ملتمسة الحماية من «أسنان هذا العصر الفولاذي» (ص . 118) .

وازى نقلتك هذه إلى الواقعية اهتمامك بمحاولات التحديث التي عرفتها حركة أبولو بمصر وازدهر عطاؤها في الخمسينات على يد صلاح عبد الصبور وحجازي وأمل دنقل . وشد انتباهك ، في نفس الوقت ، ما حققته القصيدة العربية في العراق من ثورة على الجمود وتبني قوائم طبيعة العصر على يد نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري ، عن تلك القوالب تولدت القصيدة النثرية التي تألقت بصدور مجلة «شعر» اللبنانية حيث لمع من روادها أنسي الحاج ومحمد الماغوط وشوقي أبو شقرا . ولم يقل عن ذلك متابعتك ، فيما بعد ، لأشكال الحداثة الشعرية العربية مع أدونيس ومحمود درويش وعدد من الأصوات المشرقية

والمغاربية .

ولأن «لوثة» الشعر كُريّة ثالثة تسبح مع الكريات البيض والحمر في بلازما الدم الذي يسري في عروقك، إذ هو بكل المقاييس النكهة التي تعطي لحياتك مذاقها والظل الذي يلازم وجودك، والمحرك لديناميكية الروح التي تسكن جسدك؛ لكل ذلك يظل الشعر العاشق الذي لا يستأذن للدخول إلى محراب الصلاة ليستلم فتاته التي تستسلم له بعفة وطهر كلما اهتزت المشاعر مهما كانت انشغالاتك الفكرية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . لقد درست الاقتصاد ليقينك بأنه ركيزة أساسية في الحياة، لا مفر من اعتماده لمواجهة الواقع المعيش، فوسعه، كما رأينا، اختصاصك الجامعي وكرست له أبحاثاً ودراسات، ثم اخترت أن تجعلي منه عملاً يومياً في مكتبك الخاص بالاستشارات حيث تصرفين وقتاً طويلاً في استقبال زائريك وحل القضايا الاقتصادية المطروحة على الصعيد القطري والخليجي والعالمي، وتكثف نشاطك في هذا المجال بالانتماء إلى الهيئات والمنظمات المهتمة به، والاسهام البارز في أعمالها . وما كان لهذا الاختيار أن يعكر على معشوقك صفو «اللحظة المرصودة» . بقدر ما شغلك الهم السياسي والتنموي في وطنك الكويت، شغلتك كذلك قضايا القومية العربية وشؤون السياسة الدولية ومشاكل المرأة وحقوق الإنسان وحركة التنمية

بصفة عامة . و لم يكن أقل من ذلك اهتمامك بالشأن الثقافي و تنشيط الحركة الثقافية في مختلف أوجهها ومجالاتها ، بل تبوأت لديك المقام السامي كتابة وتفعيلاً لمجالس ومنتديات فكرية متميزة ، وإسهاماً معنوياً وبذلاً وعطاء مادياً .

وتأتي فوق هذا وذاك ، وقبل كل شيء ، مسؤولياتك الأسرية التي رأيناك تخصينها بقداسة لا تمس وتمارسينها بوعي كامل كسيدة بيت لم يجرفها موقعها المجتمعي كشيخة إلى السقوط في حمأة الاتكال على الخدم والحشم ، تربية للأطفال وتدبيراً لشؤون البيت وإدارته .

علمنا عديد من الشعراء السباحة في الهواء برجل بتراء وأخرى تتصارع مع مطبات الهواء في تمزق مع الذات التائهة التي تبحث عن شيء لا تدري ما هو ، إن لم نقل إن ذلك الشيء ليس محدداً في منظورهم ، هم أيضاً ، فنكاد في هذا التيه المزدوج نقع جميعاً في الغواية ونصبح من الغاوين . أما أنت أيتها الشاعرة فقد تفتحت لك الآفاق وجاءت منذ البدء «ومضات باكرة» تزامنت مع الدفء الذي غطاك به الزواج من ابن عمك الشيخ عبد الله المبارك رحمه الله ، أردفتها في نفس السنة «لحظات من العمر» سجلت أروع ما تميزت به الفترة الأولى من الحدث السعيد الذي رفلت به حياتك ، فاتحة الآفاق لأغلى الأماني التي اختزلها ديوانك «أمنية» ، مخاض

عقد من الزمان بغد صدور ديوانك الأول. ويأبى القدر إلا أن يبتليك فيختطف منك المنون، كما رأينا، ابنك البكر مبارك عبد الله المبارك على متن الطائرة، ويجدك بكل المقاييس المرأة المؤمنة الراضية بقدر الله فأفرغت آلامك وأحزانك مناجية الخالق سبحانه وتعالى في ديوانك «إليك يا ولدي» الذي صدر بعد عقد من الزمان على حادثة المنون المفجعة. يتوالى بعده صدور دواوينك المفعمة بالثورة والتحدي متجاوزة المشاعر والأحاسيس، وحاملة رسالة إصلاحية تنادي بحقوق الإنسان، تدين الظلم والقهر والطغيان، وترتفع بالأنثى إلى ما هي أهل له، فمن «فتافيت امرأة» إلى «في البدء كانت الأنثى» فـ«حوار الورد والبنادق». تراوحت مدة حملك بكل منها بين السنتين والثلاث قبل أن تحل كارثة غزو الجيش العراقي لوطنك الكويت التي وجدنا سهامك إثرها حادة وعالية تتطاير تطاير البرق حركة ونضالاً وسهراً دائباً وأحاديث إذاعية وأشعاراً ومحاضرات واتصالات دبلوماسية جسد تدفقها وحرارتها ما استشرفه قبل ديوانك «برقيات عاجلة إلى وطني الحبيب» الذي جاء كله حدس لم يخطئ وتفانٍ في حب وطنك. لم يكن لفرحة الانتصار بالتحرير ما يكدرها سوى حدث أعظم مما يتصور، انتقال شريك حياتك إلى الرفيق الأعلى، فيكون صمودك أمام الإرادة الإلهية مثلاً يحتذى، ويأتي رثاؤك لرفيق العمر «آخر السيوف»

قمة روائعك الشعرية الفذة . ولم تكن الصدمة المتوغلة ولا الضربة القاصمة سوى حافزاً لك على المزيد من التألق في الإبداع الشعري والبحث والتأليف . وكانت التجربة لديك مفتوحة الآفاق ، صادقة الأحاسيس ومتحررة من القيود التي يصطنعها المجتمع ليكبت ويجمد القدرات المعطاءة ، إذ سلمتك «قصائد حب» لـ«امرأة بلا سواحل» تخترق السماوات . «إلى حدود الشمس» فجاءت دواوينك وظروف صدورها لتبين ما تجمع فيك من ملكات وحباك الله به من سمات ، فكنت بحق الإنسانة المتهللة الوجه ، الباسمة القسمات ، المتعالية عن غليان الصدمات ووقعها بانشراح الصدر ورحابته ، وبشحنات الإيمان القوي بالله الخالق جل علاه التي تنير لك محجة المسيرة في الأرض والتحليق في السماء وتوطئ لك سبل العلم الخيري لصالح المحرومين والضعفاء ، عطاءً مادياً وعوناً فكرياً وكتابة دفاعية عن حقوق المهضومين ، ونداءاً وبيانات في شتى المحافل الجهوية العربية والدولية لانتصار للمقهورين . وفي جميع ذلك نجدك الشاعرة التي تسبح بجوارحها المتزنة ومشاعرها وعواطفها الإنسانية المفعمة براءة وصدقاً ، المحافظة على عذريتها في إصطبل عالم تكاد تتصدع أرجاؤه من وطء المكاره والبهتان ، وتندحر بين ادعاءات برامج الهيكلة ومحاربة الفقر والقضاء على الأمية وضمان الصحة والضروريات الحياتية للجميع ، وبين واقع

معيش من الاستلاب والخنوع والانخفاض ببني آدم إلى أسفل الدرجات التي تكرس استعباد الإنسان للإنسان بصور مستحدثة وأشكال متنوعة وممارسات مخزية. وبين هذا وذاك يعلو صوتك، صوت الحق منادياً، شعراً ونثراً وبرؤية استشرافية تنشد إلى ما يحقق العدالة وسيادة الفضيلة والتسامي والنبل الأخلاقي، منادياً بالقضاء على الاسترقاق والكبرياء والنفاق والزيف. مرجعيتك الأولى والأخيرة القانون السماوي الذي يتجسد في دينك الإسلامي وكتاب الله العزيز، فلا يكاد يخلو ديوان من دواوينك الشعرية أو حديث من أحاديثك دون أن نجد فيها تلك النفحة الإلهية الراسخة تلميحاً أو تصريحاً. فقدرة الله فوق كل القدرات، ونوره فانوس ينير طريقك، وعونه طاقية خفية تخترقين بلطفها الرباني كل المآزق والأزمات، نفحتها سر من أسرار النجاحات التي تحققينها في كل أعمالك ومشاريعك، تنساقين معها تلقائياً من غير انزياح مفتعل، نفحة تسري في المعاني وعبر الألفاظ الصافية والمشاعر والإحساسات يحملها ملاك الشعر فيأخذك إلى عالمه طائعة فرحة كالطفلة يوم العيد، مجردة من كل شيء إلا من الصدق مع الذات ومع الآخر، تطالين ساحة الإبداع الشعري العمودي والحر، لا تستعبدك ضوابط التصنع للتحكم في تدفقه. ومهما كانت قوة انسياب نفسك الشعري وصيغ تدفقها واندفاعها نحو آفاق الغائية

الإنسانية، فإنها جميعها تظل كالماء الذي يبقى هو هو، طعماً ورائحة ولوناً. فسعاد الصباح الشاعرة تظل سعاداً هي، هي، في قصائدها النثرية والحرة والعمودية، ومهما حاول النقاد ضبط لويْنَات الجودة والتفوق لديك عبر قصائدك النثرية والعمودية يبقى عجزهم قائماً وتمحلهم مشهوداً دون جدوى.

إن سهولة تنقلك بين الشعر العمودي التقليدي والشعر الحر الحديث أمر يثير الكثير من الاندهاش لدى بعض النقاد، ويبقى بالنسبة إليك شيئاً هيناً، فكما تقولين: «للماء لون واحد هو لون الماء. للماء طعم واحد هو طعم الماء، للماء رائحة واحدة هي رائحة الماء. من قال أن لا لون ولا طعم ولا رائحة للماء؟ الماء مولود في بحر أما أنا فقد ولدت في وطن يشكل الماء فيه أمنية ونشيد حلم. لذلك، فإن للماء عندي لوناً وطعماً ورائحة واحدة هي للشعر وحده، قد يتغير الكأس الذي يلم حبات الماء، وتتغير الصيغة التي تلم كلماتي ولكن الماء يبقى هو الماء والشعر هو الشعر» (ص. 47). هذا التوحد في النبع، نبع العطاء الثر وصفاء ما يتدفق منه وقوته بتآن ودون انحباس لا يؤثر سلباً على جمالية إنتاجك الشعري حراً كان أم عمودياً، ذاك ما تؤكدينه بقولك: «لعل من الطيب أن أذكر أن واحدة من أجمل ما كتبت من القصائد كانت «آخر السيوف» بعد «في البدء كانت الأنثى» وقبل «قصائد حب». وكانت قصيدة

عمودية» . وبين ثورة فوارة وهدوء مطمئن بريء تخيم شجاعتك الأدبية وطرفة حديثك الذي يخاطب القلوب والعقول والمشاعر في فصاحة وصفاء لغوي مشرق ، يحمل من المعاني أسماها ، ويستخدم من الألفاظ أنسبها للنبتة الطبيعية وللروح البشرية ، ويعتمد من المنطق ما يقوم على الحجة والتشخيص والاقتباس من الحكم والرموز الثقافية والشعبية .

إذا كانت اهتماماتك هاته الموزعة بين مجالات كثيرة لا تسمح لك بمزيد من الإنتاج كتابة وتأليفاً ، وتقلص مدة قراءاتك فإنها تفقد سلطة التحكم في عبقر الشعر الذي يسكنك ، وتنهزم أمام هوسه ويكون هو المنتصر على الدوام ، تقولين : «إن اهتمامي بوطني وبالقضايا المطروحة داخلياً وعالمياً والمتصلة بي تأخذني إلى عالمها فلا أمنح الكتابة الوقت الذي أريد ، كما القراءة ، ولكن حين يطل عليك ندى الشعر فإنه وحده قادر على إبعاد المشاغل عن الطريق» (ص . 28) . ويظل تأثير اهتماماتك الثرية والمتنوعة عليه «محدوداً في أنه يؤدي إلى تأجيل المراجعة والنشر فقط» . هكذا يبقى الشعر فوق أن يطلب منك إجازة للتفرغ كيما تكتبين قصيدتك . إن معاناتك من لحظات الميلاد التي لا تخضع لبرمجة قبلية تؤكد بيقين المجرب أن الشعر ، أو على الأصح «الحالة الشعرية» «هي الفعل المرصود بجنيات اللحظة» (ص . 46) . فحين يحس الشاعر بأن في حنجرته

صرخة تنحبس لها أنفاسه قبل أن تخترق نسيجه الفيزيولوجي لتلامس العالم الخارجي تحل تلكم «اللحظة» التي يبلغ فيها الشاعر أقصى المعاناة قبل أن يتم الانفراج، ولعلها أقسى مراحل الإبداع التي يعيشها الفنان المبدع تقولين: «أصعب ما في الشعر تلك الساعات التي يحس فيها الشاعر أن في حنجرته صرخة لا تجد طريقها بعد إلى الورق، ساعات شاقة على النفس، أحس فيها وكأن بركاناً يسكن صدري» (ص. 24).

إن حلول «اللحظة» مؤشر على «الانفجار» الذي يضع حداً للمعاناة وللمخاض الإبداعي الذي تعانيه كشاعرة. فانفجار الكلمات الأولى هو القرص المهدئ للهيب البركان المتقد في صدرك، تضيفين: «فإذا انفجرت الكلمات الأولى وشَمَمْتُ رائحة احتراقي على الورق شعرت بالراحة». هذا الانفجار لا يستأذن ولا يضرب موعداً كيما يتم الفعل المتوج للتراكمات المكونة لكيمياء القصيدة، فلا يعرف أي شاعر في العالم كيف تتشكل القصيدة في داخله. إن القصيدة هي مجموعة تراكمات ثقافية وحضارية وسيكولوجية، واحة تتجمع كلها في العقل الباطن، ثم يحدث الانفجار على ورقة الكتابة... دون أن نعرف متى وكيف؟» (ص. 105). إن الشعر انفجار داخلي، يتجسد عبر مختلف العناصر المتداخلة في صياغة العملية الإبداعية: انفجار في اللغة، انفجار في

التعابير، انفجار في الصور، انفجار في الموسيقى، انفجار للوعي الباطن. انفجارات تتلاحم لتتم النشأة قصيدة متحررة من سجن الرحم وظلمته إلى رحاب الفضاء الشاسع مسمعة صوتها ومؤدية رسالتها المعبرة عما يتأجج في أعماق الشاعر.

غالباً ما تسبق هذه الانفجارات لديك، أيتها الشاعرة الموهوبة، حالة معاناة متقدة يسجلها ويشهد لها قاموس الألفاظ التي تواكبها: «دم»، «نار»، «استعار»، «هجمة»، «حصار»، «ولادة»...، فإذا كانت القصيدة كما ترين: «شهادة من دم ولحم، يقدمها الشاعر، يثبت أنه عاش حياته بكل فصولها وتحولاتها وصحوها وعواطفها وانفجاراتها» (ص. 109)، لا غرابة إذن أن تكون هذه الشهادة مزيجاً من الحالات المتأججة التي تتقد ناراً، تقولين: «لا أتذكر أنني كتبتُ قصيدة إلا والنار تشتعل في ثيابي وفي صوتي وفي كلماتي». لست أدري هل الموهبة تؤجج لهيب النار أم تجعلها برداً وسلاماً؟ مهما يكن الأمر فإن الشعر بنيرانه وانفجاراته هو منة من الله عليك، لا تطاردينه بل يأتيك متهللاً وبين يديك راكعاً، وأمام استسلامه تفقدين كل مقاومة وتجدك بدورك مستسلمة له، مطواعة لهجمته: «القصيدة هي التي تكتبني، فالشاعر لا يستطيع أن يفعل شيئاً أمام هجمة القصيدة عليه.. ماذا تستطيع أن تفعل جزيرة صغيرة أمام حصار البحر؟ ماذا يستطيع الجنين

أن يفعل حين تجيء ساعة ولادته؟ لا شيء، لا شيء. إنه يجد نفسه ملفوفاً بقماطاته.. وموضوعاً على السرير.. وفي فمه البيبرونة» (ص. 110). إن حديثك عن معاناة الشاعر وتوصيف عذابه في اللحظة المرصودة دليل على موهبتك الشعرية المتجذرة في الأعماق. إنه يتفتق من تأجج المعاناة وينطق بأدق تفاعلاتها، ويسخر ممن يود أن يجعل من الشعر حرفة له بالرغم منه، فيكون إذا صح التعبير «مُتَشَاعَراً» لا شاعراً كما تقولين: «الشاعر الذي يقول لك إنني أفعل كذا.. وكذا.. وكذا، وأجلس إلى مكتبي الساعة كذا وأستقبل القصيدة الساعة كذا.. وأودعها الساعة كذا.. هو شاعر لا يعرف شيئاً عن ميكانيكية الشعر وكيمياء القصيدة» (ص. 110). إن ولادة القصيدة عذاب أقرب صوره كما تعانيه أيتها الشاعرة الحق، صورة: «عذاب اللؤلؤة عندما تخرج من المحارة، وعذاب البرعم في لحظة التشقق، وعذاب الأم في لحظة التكوين» (ص. 112). وتبلغ معاناتك قمتها وعذابك أقصى حدوده أُمّاً عاشت ألم مخاض الولادة في اللحظة المتميزة «لحظة التكوين»، حينما انتزعت المنية من بين أحضانك على متن الطائرة، فجأة، فلذة كبدك، ولم يكن للشعر قلب رؤوف. فلقد ازداد تمنعاً وعناداً، واستعصى التعبير عن فاجعتك في رثاء من كان في عمر الزهور ولم تر قصائد الرثاء طريقها إلى قلمك إلا بعد

إرهاق شديد، تقولين: «أكثر من واحدة تجدها في ديواني [إليك يا ولدي] وكأني أصبت بشلل شعري جزئي، حسبت معه أنني لن أجد طريقاً إلى الشعر بعده». لم يكن من الهين عليك أن تكتبي رثاءًا في «أغلى الحبايب».

لا تنحصر معاناتك أيتها الشاعرة الإنسانية مما يسكن ذاتك من آلامك الخاصة، بل يتسع مجالها فتتضاعف لآلام الآخرين وأحزانهم، وتتجاوزين ذلك فتتبنينها وتعيشينها وإن لم تقاسي ظرفياً وعملياً مرارتها، فيتحقق لديك الانفلات من الحصار المضروب على ذات الفرد لتتمثلي ذوات الآخرين في قضاياهم، تعبرين عنها وتجندين كل طاقاتك لمساندتهم والدفاع عن مصالحهم بلسان صدق وإيثار محموم لا يرى النور إلا بما ينبعث من فوانيس المحرومين والمستغلين والمستضعفين في الأرض، نساءًا وأطفالاً ورجالاً، يمارس عليهم القهر وتغتصب حقوقهم، إيماناً منك بأن «الشاعر في تجربته ليس رهين المعاناة الشخصية ولا هو أسير خلف جدرانها» (ص. 39).

إن عملية الإبداع الشعري مهما كانت وليدة موهبة تظل قاسية، تسلك سكة المعاناة قبل أن يتم «الانفجار» لولوج فردوس راحة البوح وأداء الرسالة. ولعل مرحلة التكوين تلك رغم ما هي حبلى به من آلام، لا تزيد شاعرتنا سوى تعلقاً بهذا الذي

يسكن أعماقها، ولا تجد دواءها إلا في هذا الداء ـ الدواء. فالشعر لديها عبر مختلف الجوانب التي تتحدث فيها عنه، ومهما تعددت مقارباتها لتحديد علاقتها به ونظراتها إليه، هو معشوقها وصديقها وحبيبها ومنقذها من الآلام. ودون أن أذكر هنا، أيتها الشاعرة، المناسبات والتواريخ والأحاديث التي عبر فيها قلمك عن هذه الحميمية القائمة بينك وبينه، سأسمح لنفسي بسرد بعض ما جاء على لسانك منها. نجدك في حديثك عن انشغالك بالاقتصاد وقرض الشعر في آن واحد، ولهى بمعشوقك تعلنين قائلة: «في عمقي الاقتصاد كما السياسة نهاري، أما الشعر فهو ليلي الجميل الغارق بالنجوم وبالغيوم وبالأحلام. كان الشعر ويبقى نافذة روحي على الدنيا ومنتشلي من غبار العذاب، وموقع هذا وذاك مني يحدده موقعي معهما» (ص. 46). لا يتكرر مع معشوقك هذا ما عانيته من خيبة لخيانة بعض الأصدقاء، فوفاؤكما متبادل وأصيل، تقولين: «... إنه الصديق الرائع الذي أستطيع أن أبوح له بكل شيء... دون أن يخونني أو يكتب عني تقريراً إلى المباحث العامة، ألجأ إلى الشعر لأنه المكان الوحيد الذي فيه أستطيع أن أصرخ بحرية وأغني بحرية وأضحك بحرية وأبكي بحرية..» (ص. 79). تلجئين إلى الشعر، كذلك، لأن التجربة الشعرية تحقيق للوجود الذاتي، حيث يتم ترسيخ المتخيل والحلم وكل

الطموحات، ولأنها أيضاً إثبات للحضور الحضاري والإنساني والفني الذي يتجلى من خلال الإنجاز الإبداعي.

القصيدة خنجر في خاصرة الخرافة وقنبلة موقوتة تحت قطار التخلف
يسعى الشعر لإنقاذ الإنسان من مستنقع المادية والأنانية والجرائم
والحروب . . .

هذا الصديق الرائع والفضاء الذي لا تحده حدود، والمغامرة التي لا نهاية لجنونها ليست فنا مطلقاً يسرح في متاهات التقوقع الفني اللا ملتزم، بل هو، كما تراه شاعرتنا، رسالة تمزج النبيل من قيم الإنسان بالنسيج الفني، حيث تتآلف لصوغ التجربة الإبداعية عناصر متعددة بفنية جدلية تتجاوز حدود الذات المبدعة في منطق وجودها لتتمازج مع موضوعاتها المأثورة ومرجعياتها الموغلة في التفاعل مع قضايا إنسانية، وقيم ومفاهيم ومسلمات تسكن وجدان الشاعر فتعكس، أثناء «اللحظة المتميزة»، أحلامه ومواقفه الفكرية الكمينة في ذاته، مناجاة تنطق بمكنون الوجدان وصرخة تتفجر من الأعماق تواجه العالم الخارجي وتقاوم الزيف والتشويه والاحتكار، وتعلن رفضها لكل انحراف عن الطريق السوي، وتمردها على كل ما هو نشاز في منظومة القيم الأخلاقية السامية التي تفيض بها الذات الشاعرة، مجسدة حبها لبني الإنسان وللنبل الدفين

في أعماقها وسمو خلقها وأخلاقها. تلك موهبة فريدة ورسالة متميزة يتحملها ويؤديها الفنانون المبدعون الحق للروائع الخالدة، وقليل هم الذين يعون حق الوعي وزن تلكم الرسالة كما تعيه أنت أيتها الشاعرة. إن حيز القصيدة لديك يحمل وجود ذاتك المبدعة وإشراقها، ويمتلئ ناطقاً بخبايا المكنون الوجداني والهوس الفكري الذي يسكنك. مع لحظة الإبداع تحل لحظة الكشف عما استقر في أعماق الذات من انتماء واعتقاد ومواقف سياسية وفكرية وجمالية، وتعلو الصرخة الوجودية مُعبرة عن رفضك لواقع يسيطر عليه الطغيان والاحتكار بكل صوره السياسية والمجتمعية والاقتصادية، تعلو جاهرة بالبون الشاسع بين مسكون ذاتك مما تتمنين تحقيقه في المجتمع الإنساني، وتلوث الواقع الذي يعوق دون أن يتحول الغضب المبرق من أحداق المقهورين إلى فعل رافض فاعل ومنفعل، وإلى ممارسة تعمل على الانتصار إلى التغيير الإيجابي في حياة الأفراد والجماعات عن طريق السلوك المتخلف والامتزاج بالمعاناة. هكذا تولد القصيدة لديك كفعل لا ينفصل فيه منطوق الذات المتكلمة المفردة عن الوجدان الجماعي فيما تتمنينه وتودين تحقيقه، كإجراء عملي للتغيير. إنها الرسالة الأولى التي يجب أن يبلغها الإبداع الشعري، وإلا فإن القصيدة التي لا تحكي قضية ولا تتخذ موقفاً ولا يكون لها دور تغييري وثوري تظل كلاماً أجوف

لا يسمن ولا يغني من جوع . إن الدارس لدواوين سعاد الصباح وقصائدها يتبين بوضوح ترجمة تجربتها الشعرية لهذه الرسالة وسعيها لإيصالها . لكل قصيدة آفاقها الإنسانية البعيدة مجسدة رغبة الشاعرة في اختيار الطريق الصعب . فالقصيدة ، لديها كما تقول : «إذا لم تكن خنجراً في خاصرة الخرافة . . فهي قصاصة ورق لا شيء غير ذلك. والذين تابعوا شعري العاطفي وشعري القومي يعرفون جيداً أنني أقاتل بالكلمات . . وأحفر الواقع بأظافري . القصيدة ، في نظري ، ليست حفلة عرض أزياء . . ولكنها قنبلة موقوتة تحت قطار التخلف» (ص . 106) .

إن انتماءك ، إلى العالم المتخلف ووعيك بما تعانيه شعوبه من أزمات متعددة الألوان والأشكال يجعلك ترين في الشعر أداة للكفاح ضد التخلف ، ووسيلة لتجنب ما يجب أن يشجب ، ودعما لما يستدعي أن يدعم ، وكفاحاً مريراً وفعلاً حاسماً مغيراً لما يجب أن يغير ، خصوصاً في عالمنا الثالث الذي يسحقه الجوع والفقر والقمع والإرهاب والاعتداء على حقوق الإنسان . تذهبين إلى أبعد من ذلك لتؤكدين أن الشاعر الذي لا يؤمن برسالة الشعر ويكتفي بتقبل الواقع المزري كما هو ، ليس له سبيل للبقاء في فردوس الشعراء وعليه أن ينسحب فوراً من ساحة الشعر وينزوي بعيداً عن الميدان ، تقولين : «الشاعر الذي ينحني أمام الأمر الواقع

ويعتبر أنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان» عليه أن يستقيل من الشعر فوراً.. ويذهب إلى بيته.. إن الشعر كان وسيبقى دائماً لسان حال العرب، والناطق الرسمي باسم أفراحهم وأحزانهم وأحلامهم القومية. إذا فشل بعض الشعراء في أداء دورهم التغييري والنضالي.. فإن الفشل هو فشلهم لا فشل الشعر» (ص. 112).

تتبوأ القصيدة السياسية في نظر شاعرتنا مكانة الصدارة في تحمل هذه المسؤولية بوصفها «قصيدة تعبر عن حالة وليست شقة مفروشة للإيجار» (ص. 116). وتتلخص وظيفة الشعر لديها، عموماً، في كونه يجمل الحياة ويعطيها معنى سامياً، إذ «يسعى إنقاذ الإنسان من مستنقع المادية والأنانية والجرائم والحروب والتلوث المادي والأخلاقي». ذاك ما يجعل سعاد تعيش حالة من التوتر الدائم للانفلات من قبضة الماديات والتمركز على الذات/الآخر للتحليق في الفضاء الشاسع الجميل البعيد عن التلوث المادي والتدهور الأخلاقي، لأن «الشاعر يكتب ليجعل العالم أكثر جمالاً وأكثر حرية»، وما أضيق العيش في عالم يتخلى فيه الشعراء عن مهمتهم السامية تلك، لأن تخليهم عنها سيجعل العالم يتحول «إلى مقبرة كبيرة وغابة للذئاب». لا غرابة، إذن، أن يعيش الشاعر أحوالاً لا تعرف الاستقرار، يطبعها التقلب وحدة الفوران، عبارة عن: «برق ورعد ومطر وسماء دائمة التحولات».

إن ما تعانيه الإنسانية، في زمن الإحباط الذي نعيشه، من يأس يكاد يعم كل النفوس، وما يتخبط فيه العالم من سفالة وتنكر للقيم يجعل الشاعرة سعاد أشد إصراراً على أن تحمل الشاعر مسؤولية التغيير بالنفاذ إلى أعماق الجماهير وتحريضهم على الثورة، وشحن نفوسهم بالآمال والثقة بمستقبل ينتصر فيه الحق على الباطل، وتنهزم فيه الزعامات الكاذبة والديكتاتوريات المبيدة وتسوده الديمقراطية الحق بين الشعوب والأمم. مرجعيتها في تحميل الشاعر لهذه المسؤولية ما يزخر به تاريخ الأدب العربي من أخبار عمالقة الشعراء والمكانة التي كانوا يحتلونها والسلطة التي كان يخولهم إياها الشعر، سلطة لم تكن تقل اعتباراً عن بقية السلطات مما يجعل القبيلة تعتبر ولادة الشاعر فيها قوة لها وذخيرة معنوية روحية. وقد احتفظ الشاعر بهذه السلطة في عصور ازدهار الأمة العربية وحضارتها، كما تؤكد ذلك سعاد قائلة: «لا أبالغ إذا قلت إن الشاعر العربي كان بمثابة وزارة الدفاع تحمي القبيلة، كما كان وزارة إعلام ووزارة خارجية»، وتضيف، مذكرة بالأدوار التي مارسها كبار الشعراء عبر التاريخ، عرباً وغير عرب فتقول: «إنهم كانوا يهزمون الحكومات ويهزون ضمائر الجماهير. وعلى رأس قائمة الشعراء الذين كانوا يهزون الدول، من سيف الدولة إلى طاغور، يأتي عملاق الشعر أبو الطيب المتنبي الذي كان سلطة

فوق السلطان . أما المفكر العربي الكبير الحلاج فقد شُنِقَ في بغداد لأنه كان محامي الحرية ، وسقط الشاعر الإسباني العظيم [لوركا] برصاص الظلم وهو يقاتل قوات النازية والديكتاتورية ، كذلك فإن صوت نيرودا كان يمثل صوت الحرية العظيم في أمريكا اللاتينية ، وكان لصوت الشاعر الثوري ناظم حكمت دور في معركة التحرير من الظلم والتخلف» (ص . 108) .

تلك نماذج لشعراء الثورة الذين حركوا الشعوب وشحذوا هممها للنضال من أجل كرامة الإنسان وحريته وسيادة العدالة .

سيظل الشعر في عصر الكمبيوتر الفضاء الذي لا حدود له والمغامرة التي لا نهاية لجنونها سيكون للأجيال العربية القادمة شعرها وموسيقاها وثقافتها

لإيمانك القوي، أيتها الشاعرة، بما للشعر من سلطة فاعلة نراك مصرة على التأكيد بأن مكانته لن تمس، ودوره لن يتقلص أبداً بفعل التقدم المفرط الذي تعرفه تكنولوجيا الإلكترونيات في القرن الواحد والعشرين مهما كانت سيادتها وتفاقمت سطوتها في كل المجالات وفي جميع المجتمعات. فخلافاً لما يروج في العديد من الأوساط من أن «الرواية الآن هي ديوان العرب وأنها أزاحت الشعر» نجدك، وإن اعترفت بأن العطاء الروائي يزداد غنى في وقت تتراجع فيه ساحة العطاء الشعري، تؤكدين بأن الشعر لا يزال هوا لمنارة، وأن التأثير الشعري سيبقى إلى أبد الآبدين شريطة أن تكون القصيدة قادرة على اختراق الحجب وكشف الأسرار وتأكيد المواقف والزج إلى الشهادة والاستشهاد والحسم للانتصار لتداعيات انتشال اللاممكن من الممكن الذي يتوالد عنه الانفعال المتنقل من الوجدان إلى العقل، ومن التخيل والحلم والمجاز إلى الحقيقة والفعل، ومن مكامن الباطن إلى ساحة الظاهر متحدياً

المساءلات الانطلوجية الدائمة ومنتصراً للهاجس المؤرق الممتع والممتنع في آن واحد، يندلع ناراً تصيب شرارتها العواطف الهامدة فتحركها وتشعلها قوة ونضالاً وثورة في وجه الطغيان. ذاك شرط أساسي، فقصيدة واحدة حقيقية قادرة على أن تظل كما كانت ديوان اللسان العربي.

ودون لف أو دوران، أو تأرجح متشكك مموه تعلنين عن رأيك، بكل وضوح، حول مكانة الشعر في عصر الكمبيوتر الذي اخترق كل الفضاءات، فتقولين: «الشعر فضاء لا حدود له... ومغامرة لا نهاية لجنونها.. إنني ضد كل من يقولون إن الشعر العربي قد ضاع دوره. الكمبيوتر لا يمكنه أن يقود مظاهرة أو يشعل ثورة أو يحرر امرأة واحدة من سجن النساء، ولكن الشعر قادر على ذلك» (ص. 78).

لا تقلق سعاد على مكانة الشعر في زمن الفضائيات واكتشاف الأجرام السماوية كما يبدو من مقارنتها بين فضاء الشعر المقدس وفضاء الأجرام السماوية التي داستها أقدام البشر وكشفت عن أسرارها، تقول: «للشعر فضاؤه الخاص.. كما للقلب شموسه ونجومه وأجرامه السماوية. لا أتصور أن أحداً يمكنه أن يهدد الشعر ويلغي صورته. إن رواد الفضاء استطاعوا بقيادة أمسترونج أن يصلوا إلى قمر السماء وينتهكوا عذريته ولكنهم لم يستطيعوا

أن ينتهكوا قمر العشاق» (ص. 111) . هكذا نجد سعاد المسكونة باستشراف مستقبل الشعر تخلص إلى معادلة يستحيل معها اختلال أحد الطرفين ، معادلة مستقبل الشعر في علاقته بالعواطف الإنسانية وتقلباتها الخاضعة لسنة الكون التي لن نجد لها تحويلاً ما دامت السماء سماء ، والقمر قمراً والإحساسات البشرية غريزية ومتجددة في ديمومتها . تتجلى هذه المعادلة في التوازن الذي تقيمه بين مكانة الشعر وأهميته بموازاة مع الزخم الاستهلاكي المادي الذي يعرفه العالم المعاصر ، تضيف : «القول إن الشعر قد انتهى ، وإن العصر قد استغنى عن الكلمة الجميلة . . والعاطفة الجميلة . . وإن الحب قد انتقل إلى رحمة الله . . والعشاق قد استقالوا ، كلام افتراضي . . إلا إذا تأكدنا أن القمر يمكن أن يستقيل وأن النجوم يمكن أن تنتحر» (ص. 111) .

هذا الدفاع المستميت عن الشعر لا يجعل سعاد تغفل عن واقعه المتردي في عالمنا العربي حيث لم تعد له السطوة التي كانت له من قبل ، وتقلص تأثيره ونفوذه إلى المشاعر والقلوب عما كان عليه في عصره الذهبي ، عصر العباسيين العظيم الذي أعطى للعالم المتنبي وأبا تمام وأبا العلاء المعري . . لكنها تجد بعض العزاء في أن واقعه في عالمنا العربي ليس أسوأ مما هو عليه في العالم ، وأنه لا يختلف عن الشأن الثقافي عموماً في تأثره بالمناخ السياسي الذي يسود

عالمنا العربي . إن أزمة الحالة السياسية في المنطقة العربية بشكل عام تنعكس سلبا على حركة الشعر العربي المعاصر ، ولا يستثنى من ذلك الشعر في منطقة الخليج لأنه فرع من شجرة الشعر العربية ، وهو في بحثه عن هويته لا يشكل استثناء بالنسبة للشعر العربي عموماً ، تقول : «لا يمكن للحالة الثقافية والشعرية إلا أن تتأثر بالحالة السياسية ، وأعتقد أن المنطقة [منطقة الخليج] كلها تعيش في حالة تراجع وانكسار . إن الخط البياني للشعر عموماً يميل إلى الهبوط ، لأن المناخ إجمالاً هو مناخ إحباط وهزيمة إذا قيس بمناخ الخمسينات العظيم» (ص . 110) . إن سعاد لا تتردد في أن تعزو تدهور الشعر العربي وتراجع تأثيره ونفوذه إلى الضعف الذي أصاب العرب : «أعطني عصراً ذهبياً مرة ثانية . . وسأعطيك شعراً ذهبياً رائعاً مرة ثانية . . إن الشعر لا ينفصل أبداً عن الظرف السياسي والقومي والحضاري للأمة . . فحين كان العرب أقوياء وعظماء ومتألقين كان الشعر قوياً عظيماً ومتألقاً . أما في عصر الانحطاط والتمزق والهزائم فإن الشعر يكون متمزقاً ومهزوماً . في العصر العباسي العظيم أعطينا للعالم المتنبي وأبا تمام وأبا العلاء المعري . . أما الآن فليس لدينا ما نعطيه سوى أحزاننا» (ص . 110) .

لا ينبثق استشراف شاعرتنا من خيال أو عاطفة ، بل يقوم على رؤيا يتمازج فيها تحليل معطيات واقع الإبداع الشعري على

مدى العصور وواقعه في عصرنا الحالي. إنها لا تنفي تأثير هجمة التكنلوجيا على تقلص ظاهرة الشعر في العالم العربي إنتاجاً وقراءة، وإنما تجعلها في إطارها العالمي العام، فتنبأ للأجيال الحالية بنمط شعري يتلاءم وطبيعة غد يستجيب لمتطلبات تخضع لمعطيات الثورة الإلكترونية التي ستقودهم للتفاعل معها بشكل تلقائي تنسجم فيه العواطف والإحساسات مع واقع ذي أبعاد جديدة وأنغام متجددة. صحيح أن جمهور الشعر العربي، كما هو ملاحظ، قد أصبح قليلاً في الوطن العربي، وأن الأجيال المقبلة سوف تنظر إلى الشعر نظرة مغايرة لما كان سائداً في الأوساط العربية إلا أن: «ظاهرة انحسار الشعر أمام هجمة التكنلوجيا لا تقتصر على الوطن العربي وإنما هي ظاهرة عالمية» (ص. 118). لا شك أن التقدم العلمي الهائل الذي حققه العالم خلال السنوات العشر الأخيرة على صعيد المواصلات والأقمار الصناعية وتطور الأجهزة السمعية والبصرية قد يشكل، كما تقول: «خطراً حقيقياً على الشعر لأن الذين كانوا يشترون كتاب الشعر.. بدأت تخطفهم صراعات العصر الحديث ولعبة الضوء والصوت وأشعة الليزر». أكيد إذن أن الأجيال العربية القادمة «سيكون لها شعرها.. وموسيقاها، وثقافتها»، وتضيف سعاد وكأنها تأسى على ما سيفوت الأجيال الحالية من متعة وشغف بمحبوبها عملاق الشعر العربي، أبو الطيب المتنبي، وبعض كبار

الشعراء فتقول: «ولا أتصور أن هذه الأجيال سوف تبقى على علاقة طيبة مع المتنبي وأبي تمام وأبي نواس» (ص. 118). ومن منطق الواقع تربط غريزة هيام العرب بالشعر وارتباطهم التاريخي بموسيقاه بحتمية التطور الذي يدفع عجلة التاريخ وتخلص إلى التأكيد على أن الشعر سيبقى ولكن بنمط يمليه ما سيعرفه الغد من تحولات، تقول: «صحيح أن الشعب العربي عاشق للشعر بحكم غريزته ومرتبط بالأوزان والقوافي ارتباطاً تاريخياً، ولكن من قال إن التاريخ لا يتطور والأدوات لا تتغير؟ طبعاً، لن ينقرض الشعر نهائياً في القرن الواحد والعشرين ولكنه سيجد طرقاً أخرى للتعبير عن نفسه» (ص. 118).

جاذبية الشعر هي في صدقه وقدرته على استيعاب مشاعر وأفكار
الناس والإجابة على أسئلة التاريخ
ليس في الشعر وساطات ولا مجاملات

يستند استشراف الشاعرة هذا إلى تحليل معطيات الواقع وإلى معاناتها وموهبتها المصقولة بالممارسة الإبداعية التي يتفاعل فيها الحس الشعري والذوق الفني وصدق المشاعر وجمالية اللغة وعذوبتها مع وضوح الرؤيا ونبل الهدف ونهج مسالك الواقع، واقع الذات الحبلى بقضايا وهموم الآخر. هكذا، خلافاً للمقولة السائدة «إن أعذب الشعر أكذبه» تكمن جاذبية قصائد سعاد الصباح، كتابة وإلقاء وتجاوزاً لحدود المكان الذي يؤطرها وتوغلاً في أعماق المتلقي، تكمن تلك الجاذبية في صدقها وتجاوبها مع ما يسكن أعماق الإنسان من هموم وقضايا. إن سعاد تسعى بكل ما لها من قدرات لتوظيف أشعارها في ما يخدم البشرية ويرفعها إلى مستوى الإنسان الحق، بعيداً عن التمرغ في وجدان الذات المنكفئة على نفسها، وبعيداً أيضاً عن الاختفاء وراء أنغام الشعر وموسيقاه اللافاعلة واللامغيرة، تقول: «إن جاذبية الشعر هي

في صدقه وقدرته على استيعاب مشاعر وأفكار الناس والإجابة على أسئلة التاريخ». تستجيب هذه الرؤيا المتميزة للمنظور الذي تُعرف من خلاله الشعر بقولها: «الشعر حصاد إنساني يجب أن يوظف لخدمة كل البشر، وليس هناك شعر حقيقي يتوجه إلى سكان الكواكب الأخرى» (ص. 112). يعجبك في الشاعرة صراحتها وإيمانها الراسخ بهذه الوظيفة السامية، واعتزازها بتوقف شعرها في أدائها، ولا تخفي سر ما حقق لشعرها هذا النجاح فتضيف: «إذا استطاع شعري أن يتجاوز حدود المكان ويذهب بعيداً ليذوب في وجدان الناس فلأنه كان صوت من لا صوت لهم، وشفاه من لا شفاه لهم، وكان دائماً يثير قضايا ويطرح أسئلة» (ص. 112).

يسوق هذا الاختيار شاعرتنا، بشكل حتمي، إلى اختيار آخر يخدم أهدافها النبيلة، ينبثق من أخلاقها الإنسانية السامية، وينسجم مع طبيعتها وسلوكاتها في الحياة. لقد اختارت بكامل الاقتناع تخطي بروتوكول الإمارة في مظاهره الموروثة والمستحدثة التي تحاصر العددين من ذوي الجاه والسلطة في أبراج عاجية، لتعايش بسطاء القوم وتقاسمهم آمالهم وآلامهم وما يعانونه من قساوة عيش تنفعل لها أحاسيسها وعواطفها وتتفاعل معها. هذا الاختيار يفسر ما تتميز به قصائدها من جمالية الصورة وبساطة التعبير وعذوبة اللفظ، ويكشف عن سر التواصل الحميمي القائم بينها وبين

القراء والجماهير الولوعة بأشعارها، ويجسد ثورتها على التعقيد والغموض اللذين يعتقد بعضهم أنهما شرطان أساسيان من شروط القصيدة الناجحة وعنواناً على النجومية والتميز في مجال الإبداع الأدبي عموماً، فينساقون معهما انسياقاً كبشياً لدرجة أضحى اللهث وراءهما موضة ككل الموضات في الزي والأكل،ونمط العيش والتعامل بين الأفراد والجماعات. وتظل سعاد الصباح الشاعرة هي هي، وفية لطبيعتها ومنسجمة مع ذاتها وسلوكاتها النبيلة المتواضعة، ترفض الموضة الشعرية السائدة معتزة بنهجها مسلك البساطة، تقول: «إذا كنت أستطيع أن أجلس مع الناس ببساطة، وأتكلم معهم ببساطة، وأنقل أحاسيسي لهم ببساطة فلماذا أفعل العكس؟ إن كل ما في الدنيا يستهدف الإيصال... أي يفترض وجود طرف ثان يقرؤه أو يسمعه أو يتذوقه، وحين ينتفي الطرف الثاني أي المتذوق ينتفي الفن» (ص. 111).

تتحقق لها هذه البساطة بتلافي التكلف اللغوي والانحباس في البحث عن الألفاظ الغريبة، والغرف من التدفق الصليقي للكلمات والتعابير التي تفي بأغراضها دون كلفة أو مزايدة، تضيف: «إن اللغة الشعرية عندي لا تختلف كثيراً عن اللغة اليومية التي أتكلم بها... فليس هناك، في نظري، لغتان للكاتب: لغة سرية يتكلم بها مع نفسه، ولغة علنية يخاطب بها الآخرين. وبكلمة واحدة أقول :إنني

ضد كل اللغات السرية ، فأنا أكتب كما أتنفس» (ص. 111) . إن معين هذا الدفق الفياض للكلمات والألفاظ الجميلة والبسيطة في لغتها الشعرية ثر لا ينضب معينه ، يفيض نبرات شعرية منسابة في مقالاتها وكتاباتها النثرية في مختلف المجالات مما يؤكد عنصر الملكة المتميزة لديها ويبين عن مواهبها وعطاءاتها الكمينة التي لا تحتاج معها إلى بذل الجهد بحثاً عن لفظة أو لهثاً وراء تعبير يفي الموضوع حقه ، تقول : «أنا لا أختار كلماتي ، هي التي تختارني ، دفق يمنحني الله فيه التعبير بالكلمات ، وهكذا تتسرب الكلمة الشعرية صورة أو تعبيراً ضمن المقالة» (ص. 106) .

إن اختيار الكلمات لسعاد يعكس اختيار عبقر الشعر لها ، فيلتقي في إبداعها الشعري غدق الدفق وموهبة الإبداع ليجعلا منها الشاعرة التي يأتي إليها الشعر مراوداً عن نفسه : «إن الشعر هو الذي يكتبني ، قلت هذا وأعيده» (ص. 47) ، ليجعلا منها الشاعرة التي لا تملك التحكم في ما يسكن وجدانها من شعلة متوقدة ولا تستطيع أن تستقيل منه أو تتنطع عن مطاوعته فتنقاد مستسلمة له ببراءة تقول : «يا لهذا الملاك الذي ظلموه بالقول إنه شيطان ، كيف يأخذنا إلى عالمه طائعين وفرحين كأطفال العيد ، ثم يضعنا أمام أنفسنا مجردين إلا من الصدق ، وما للصدق شكل وحيد !» (ص. 47) .

وكما أن المرء لا يتحكم في خفقان قلبه، ولا يستطيع تحديد لحظة توقفه عن الخفقان، كذلك سعاد لا تستطيع أن تتحكم في لحظة الانفجار والانفراج الشعري، فبين قرض الشعر وخفقان قلبها علاقة البيضة بالدجاجة، تناسل لا يدرى معه أيهما ينجب الآخر، كل ما في الأمر أنها تسلم الزمام لمشاعرها المسكوبة كلمات دافقة، المتقدة بمشاعر زمن الإحباط والانحطاط، تقول: «لا أحد يعرف متى يتوقف قلبه عن الخفقان، إن كتابة الشعر ليست بيدي، والاستقالة منه ليست بيدي، والشاعر لا يستقيل» (ص. 107). إن الشعر في معاناتها لحظات متميزة و«ليس مهنة كمهنة الخياطة والنجارة والبقالة يمكن لصاحبها أن يقفل دكانه ويقول «السلام عليكم». الشعر مهنة لا نختارها نحن، ولكنها هي التي تختارنا، ويوم يقول لنا الشعر: «مع السلامة ولا أريد أن أرى وجهكم مرة أخرى... فهذا يعني أن قسمتنا انتهت مع الكتابة، ولا بد لنا من البحث عن مهنة أخرى» (ص. 107).

تتأكد هذه العلاقة التي تكاد تكون غريزية لدى شاعرتنا بتتريه عاشقها عن المحسوبية، تقول: «في الشعر لا توجد وساطات ولا مجاملات ولا محسوبيات (...)، إنه رب عمل صعب جداً وقاس جداً، ولا يمكن لأي شاعر أن يرشوه بأي نوع من أنواع الهدايا والإغراءات» (ص. 107) ليمنحه ترقية كبيرة أو مكانة مخصوصة.

إن الشاعر الحقيقي في منظورها هو الذي يضع نصب عينيه أن يستشهد على ورقة الكتابة ، وهو الذي يقول الكلمة بكل زخمها وأبعادها لأن الكلمات لا تعرف الحصار . ويظل جديد الشعر الذي يتطلع إليه جمهورها رهيناً بقرار العاشق الولهان في زيارته لها ، فكل سؤال عن هذا الجديد يجب أن يوجه إلى الشعر ليخبر عن موعد الزيارة وإشعال النار في ثياب الشاعرة وأوراقها ، لأن القرار قراره لا قرارها كل ما في الأمر أنها تتحمل الاحتراق واشتعال النار بشكل دائم وثابت لا ينفصل عن اللحظة المتميزة ، لحظة الانفجار الخلاق الذي ينبئ عن ساعة الميلاد . وما امتزاج افتتانك الشعري بمحبتك للوطن ومعانقتك قضاياه والتغني بآلامه وآماله سوى قوة متجددة للغليان الذي يؤججه كل منهما فهمك العميق لقضايا العالم ، وانخراطك في معامعها والسعي إلى معالجتها . ألم يكن لحرب الخليج أكبر الوقع عليك؟ . وكأنما أصبت بذهول فلم تدر معه كيف انكسر زجاج السماء فوق رأسك ودخلت شظاياه في عيونك . إن إخلاصك للوطن وإخلاصك للإنسان وإخلاصك لنصرة الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه هو الروح المغذية لقلمك في كل ما يخطه معبراً عن الواقع المعيشي ومجسداً للالتهاب الذي يشتد أواره ، وكأنك تمارسين الكتابة على «فوهة بركان» ، لها طعم الحريق كحريق نار إبراهيم ، برد وسلام وأمن وآمال ، لأنك

أحببت عن اقتناع كل الميادين والمهام التي تشتغلين بها والمسؤوليات التي حملت نفسك إياها ، ولم تبعدك كل تلك الانشغالات ، كما تبعد الكثيرين غيرك ، عن الميدان الذي أحببته بشغف وصدق ، وأفصحت عنه بموهبة نافذة ، ميدان الشعر الذي لم يتوقف تدفقه الثر الزلال . يكفيك فخراً أن يكون سر انتصارك على كل التحديات التي لم تأل جهدا في كبح عطائك الفياض وقتل روح الإبداع فيك ، هو الإطاحة بكل الخيارات الواردة حين «وضعت نصب عينيك الاستشهاد على ورقة الكتابة» (ص. 54) ، ولم تعرف كلماتك قط أنصاف الحلول ولا أجادت فن البهلوانيات والرقص على الحبال . . . فجاءت دائماً شامخة شموخ الجبال العالية ، ترسمينها بكل زخمها وأبعادها متجاوزة في حديثك عن الذات ما هو خاص ليصبح القاعدة المؤسسة لتفاعلك مع الآخر ، ومتجاوزة لبوس الحالة الفردية المتفردة لترتدي عباءة الإنسان ككل ، فانضويت بذلك في صف الشعراء والمفكرين الكبار الذين يعملون على توظيف الفكر ليصبح شمولياً يخدم قضايا الإنسانية في كل مكان وعبر كل زمان .

ليس مفارقة إذن أن نراك معتكفة في محراب الشعر وفي نفس الوقت «امرأة بلا سواحل» «هوايتك» الرسم بالكلمات و«احترافك» القتال بالكلمات ، وكل عمرك وأنت تحملين سيف

الكلمات . آليت على نفسك بأن تظلي صامدة في محراب الصلاة بالكلمات بما عهدناه فيك من جرأة في لباقة ، ولطف في قوة ، وإيثار في صمود ، تقولين :

«معذرة معذرة
لن أتخلى قط عن أظافري ،
فسوف أبقى دائماً أمشي أمام القافله
وسوف أبقى دائماً مقتولة أو قاتله» .

تحولك الحرائق المشتعلة فيك على الدوام ، على كوم رماد متجدد التوقد في قصائد جميلة تحرك الوجدان بما يميزها من بوح تلقائي صادق بعيد عن التصنع ، ينفلت من تحمل تنظيرات النقاد وسعيهم لتصنيفه قلماً نسائياً أم ذكورياً . ولأنها قصائد تتفتق من أعماق وجدان ذي قدرات إبداعية لبلورة مضامين وقضايا فإنها ككل إنتاج أدبي رفيع تسمو عن كل تصنيف ذكوري أو أنثوي لتتبوأ مكانة سامية كإبداع إنساني ، بصرف النظر عن جنس المبدع من حيث كونه رجلاً أم امرأة ، ويبقى الأمر لمن أراد من النقاد أن ينجرف إلى الوقوع في إشكالية التفرقة بين إنتاج الجنسين . إنها ، كما ترين ، متاهة مضلة كلما ازداد المرء توغلاً فيها اشتدت حلكة دروبها وتشابكت تشعباتها ، خصوصاً وأن الحديث عن

الكتابة النسائية والأدب النسائي، أصبح مستهلكاً، وأنت تقولين: «بصراحة، لا أحس بالفارق في الكتابة بين أن يكون القلم ذكورياً أو نسائياً، فما يحدد القيمة هو المضمون والأسلوب كلاهما يمنح العمل قدرة بصرف النظر عن جنس الكاتب». من ثمة يعتمد تقييمك للأقلام النسائية جودة النص في حد ذاته، دون إعارة اهتمام بجنس صاحبه. فكل من تكتب نصاً متميزاً ومدهشاً تسكنه الدهر ترتقي في عينيك إلى سماء الشواعر وتعجبين بها، غير أنك ما تزالين جادة في البحث عن شاعرة عربية تملأ عينيك بما توفره لشعرها من عوامل الدهشة والتميز. ولعل معاناة شاعراتنا العربيات لم تتوفق لأن تترجم في إبداع راق تؤدي فيه المبدعة، كما تؤدين أنت، الثمن غالياً وتتفرد بالتنعم بما يمنحه إياها إبداعها من لذة يفوق وزنها كل المحن. فالثمن الفادح ليس له حساب لأن ما يمنحه الشعر والفن عموماً للمبدع «أرقى وأغلى من كل الصعاب، فكل طين الأرض، حسب تعبيرك، لا يغطي وجه البحر» (ص. 91).

وبدورنا، نحن أيضاً نرى أن ما تفردت به أنت سعاد، الشاعرة «المغوار» من شاعرية فذة وعطاء خصب، جعل منك بحق، ما قاله عنك الصحفي المصري الكبير مفيد فوزي: «سيدة في الذاكرة وشاعرة الانتماء الحميم، تتمتعين باحترام الأوساط الأدبية على تنوع مشاربها» (ص. 76). تشهد لك بذلك قصائدك التي تقتحم

على النساء والرجال بالسواء حميميتهم أينما وجدوا ، في المكتب أم في غرفهم الخاصة ، في خلوة مع الذات أم في حوار مع الأصدقاء . إنك لا ترحمين المتلقي ، قارئاً ومنصتاً ، إلا بعد أن يقاسمك الهموم الإنسانية التي تشغلك . ولا تجدين راحتك إلا بعد البوح بمشاعر المرأة على حقيقتها دون تنكر أو انطوائية . تلك ميزة أخرى تنفردين بها أيتها الشاعرة المبدعة .

حديث الحب بكل أجزائه هو التابو الحرام
يقولون إن التغزل فن الرجال فلا تعشقي
الحب الذي عرفناه قدم استقالته

حينما تتوجه سعاد المنافحة عن حقوق المرأة، بانتقاداتها للرجل، وترغبه في معالجة نفسه من عقدة التفوق وتغيير نظرته للمرأة ومعاملته لها، كما سنرى، لا تريد منه أن يفرغ الساحة ويتركها للمرأة، كما لا تسعى لقلب الصورة باكتساح المرأة وحدها للميدان، ذلك أنها تؤمن بأن لا سعادة للمرأة في غياب الرجل ولا سعادة للرجل في غياب المرأة وأن الحياة الطبيعية تستدعي تواجد «الاثنين» معاً وتساكنهما في فردوس التفاهم والتكامل والتواد، فلا نهوض للمجتمع إلا بهما معاً، ولا يستطيع أن يطير إلا بجناحيه الاثنين «المرأة والرجل»، ولا أن يمشي إلا على قدميه الاثنين. من ثمة لا ترى سعاد تناقضاً بين دفاعها عن المرأة وبين اعترافها بأن أنوثتها لا تكتمل طبقاً لسنة الحياة إلا بوجود الرجل، مؤكدة أن مرافعاتها من أجل بنت جنسها لا تعني أنها ترغب في وجود مستقل عن الرجل، بل تعني، كذلك، توعية الرجل بضرورة العمل لأن

يرتفع إلى مستوى يفسح المجال لتبادل الاعتبار والحب الصادق بينه وبين المرأة عموماً، تقول: «إنني كأنثى أبقى دائماً خاضعة لقانون الأنوثة، إنني لا أريد إلغاء الرجل، لكنني أريد «تحضيره» بحيث يكون حبيبي وصديقي، لا مستعمري» (ص. 86).

يتجلى موقفها هذا بوضوح فيما تكنه للرجل من مشاعر الحب التي تلتهب في أعماقها نحوه، وخصوصاً في جرأتها على تخطي «الخطوط الحمراء» التي تضعها القبيلة، وتحفظها التقاليد، ويتوارثها المجتمع ليقمع مشاعر المرأة ويشل لسانها عن البوح بعواطفها نحو الجنس الآخر، وعن حبها له. تخطت المحظورات اللامعقولة، وخرجت في هالة من العفة لتبوح بعواطف كل النساء اللواتي تكبدن، منذ أقدم العصور، آلام كبت عواطفهن المشروعة نحو الرجل. تقبلن إن طوعاً أو كرهاً كل الاتهامات، ورمين كما رميت أمهن حواء بإغواء آدم للأكل من الشجرة المحرمة، بتهمة استفزاز الرجل واستثارة غريزة الجنس لديه والزج به في متاهات الخلاعة والخداع. تخطت سعاد تلكم الخطوط المحظورة لتعلن عن مشروعية بوح المرأة بعواطفها وعشقها للرجل، إذ الحب غريزة إنسانية خلقها الله بالتساوي عند الرجل وعند المرأة، فكيف يجيز له المجتمع ما لا يجيز لها، ويمنعها مما يبيحه له خضوعاً لتقاليد وأعراف متوارثة تسبب أفظع المشاكل التي تعاني منها المجتمعات، خصوصاً

مجتمعاتنا العربية التي تعيش في صراع دائم بين واقعين ، بين الظاهر والباطن ، بين المحظور في العلن والجائز في الخفاء ، بين تحريم الحلال وتحليل الحرام ، بين . . . وبين . . .

لا تعبأ الشاعرة سعاد الصباح بغوغاء المجتمع وتقاليده البالية الجوفاء ، وترفرف عالياً مصدرة مجموعاتها الشعرية «قصائد حب» غير آبهة بما قيل عنه من تجاوز في الكتابة ومعتبرة انتقادات المناهضين للمرأة تكريساً للميز الجنسي المتوارث ، تقول : «لو أنني كنت رجلاً لجاز لي ما لا يجوز لي اليوم ، دعني أضيف أن حديث الحب بكل أجزائه هو «التابو» الحرام ، جريمة تحاسب عليها الأنثى ، لكنني لا أعبأ بالعواصف الرملية ، فقد تجاوزت خطوط الحسابات هذه من زمن بعيد» (ص . 38) . إن حب الرجل لكذا امرأة قضية فيها نظر ، وحب امرأة لرجل جريمة لا تغتفر .

إن البوح بالعواطف والأحاسيس ليس حكراً على الرجال ما دامت العواطف والمشاعر الإنسانية حق كل إنسان دون ميز جنسي أو هوية أو لون ، وبتحد صارخ وعفة وطهر ترفع صوتها عالياً معلنة موقفها ، فتقول :

«يقولون :

إن الكلام امتياز الرجال

فلا تنطقي ،

وأن التغزل فن الرجال . . .

فلا تعشقي ،

وأن الكتابة بحر عميق المياه . . .

فلا تغرقي ،

وها أنذا

قد سبحت كثيرا ،

وقاومت كل البحار

ولم أغرق . . .

لماذا ؟ » . (أنظر ديون فتافيت امرأة) .

لم تغرقي أيتها البارعة في فن العوم . . . لأنك مناضلة مثقفة واعية بين أقوام ما يزال جهلهم يزداد ضلالة في جهالة جهلاء . ومما يؤسف له أن مجتمعاتنا العربية ستظل تدور حول نفسها في دائرة مفرغة تسيجها أمثال هذه الاعتبارات والمواقف في انشغال عما يخرجها من التخلف ويخطو بها نحو التقدم والنمو .

إنها دائرة الثالثية الأسطوانية الشكل ، الجوفاء بكل المقاييس كما تعبرين عن ذلك ببرهنة استهزائية :

«ولأن الحب عندنا انفعال من الدرجة الثالثة

والمرأة مواطنة من الدرجة الثالثة

وكتب الشعر كتب من الدرجة الثالثة
يسمونتا شعوب العالم الثالث» .

(انظر ديوان «في البدء كانت الأنثى») .

إن الحب عالم فسيح الأرجاء يتأبى عن الأسوار والأبواب، وعن الأوصاف والنعوت المقلصة له بداية ونهاية، لا تضيق سعاد الصباح مجاله بتصنيف تراتبي بين أول.. وثان.. وثالث...، ولا تشاطر عبد القدوس الرأي في إغلاق باب المعبد بعد الحب الأول، فقد يكون «هو الأكثر إثارة للروح، ولكنه ليس الأكبر دائماً، والأكثر استيعابا لمتطلبات الإنسان (...). إن الحب عالم واسع، لا يمكن أن تغلق بابه مرة واحدة وكأنك تملك مفتاحه الوحيد» (ص. 86) .

بدورك، أيتها الولهى، تتأبين عن الخنوع لتابوهات المجتمع ومحظوراته، ولا تستكينين إلى الاستسلام الذي يريح صاحبه، ولا لهدوء فصول الطبيعة الفيحاء وتأبين إلا أن تخرجي من حصار كل الدوائر لتلجي خضم الأجواء المتقلبة، يلجلج صوتك الملائكي أن حي على النضال من أجل الحرية والديمقراطية في التعامل مع الأحاسيس البشرية والغرائز الإنية التي أودعها الله في قلب كل رجل وامرأة، متصاممة عن انتقادات من على قلوبهم أقفالهم،

فتقولين :

«وأنا مبهورة بجسدي

أشهر الصيف لكم

فاتركوا لي انقلابات الشتاء» .

(انظر ديوان «فتافيت امرأة») .

ما أجل اختيارك لسلاحك هذا لخوض معركة الكفاح ، سلاح الكلمات النفاثة الساخرة بالقوى الرافضة لحقوق المرأة في كل أشكالها ، والنافذة إلى الأعماق لانتزاع حقوقها المغتصبة بما فيها العواطف الطبيعية الحيوية ! . وما أشد ذكاءك في تخطيط سياسة الدفاع والبوح ، واستغلال مواهبك للتعبير بتحد واع عن رحلة العذاب التي عانت منها المرأة عبر التاريخ وما تزال تعاني من جراء كبح مشاعرها . لقد انطلق نداؤك بصوت ينم عن البراءة الفطرية وكامل الإخلاص للمشاعر الإنسانية لرفع الحصار عن أحاسيس المرأة كي تنطلق في الفضاء الرحب وتعبر بكامل الحرية عن ذاتها ومشاعرها ، دون تقوقع أو خوف من رقيب محاسب . وبكامل الإصرار تؤكدين أن تثقيف المجتمع وطلب المعرفة هما مفتاح باب النضال للإطاحة بقيود الرقابة المتعسفة المتوارثة التي أجبرت المرأة على الصمت طيلة قرون . يكفيك فخراً أن تكوني ، أيتها

الأميرة الشاعرة المثقفة خير قدوة، قولاً وعملاً، لنساء العالم عموماً وللمرأة في وطنك العربي خصوصاً. إن شجاعتك وسعة ثقافتك وعمق فكرك ورفضك لكل منطق لا عقلاني متخلف، ووقوفك ضد كل جبان وضد كل من يعتبر قرض الشعر عيباً وعدواناً على عذرية المجتمع، كل ذلك فسح لموهبتك فضاءات للتحليق عالياً دون لهث وراء صك العبور، أو استجداء لتفضل رقيب أو مسؤول، تقولين: «إن الموهبة الحقيقية لا تستأذن أحداً لتتشكل على الورق، والمنبع الصافي لا بد أن يثقب قشرة الأرض مهما وضعوا في وجهه من العراقيل والسدود» (ص. 108).

يستوقف المتتبع لمرافعتك دفاعاً عن حق المرأة في التعبير عن عواطفها نحو الرجل، انسياقك في تقصي مفاهيم الحب في معناه المطلق، الحب كبعد إنساني بصرف النظر عن علاقة المحب بالمحبوب، معشوقاً كان أم أبا أم أما أم ابنا أم أي إنسان آخر تحبه لذات الحب الإنساني. إن الحب، كما تراه في مفاهيمه الشاسعة السامية، قاعدة لكل هيكل، وروح لكل جسد في هذا الكون. هذا الحب أضحى اليوم يشكو من لوثة الماديات التي ترزح تحت نيرها كل مظاهر الحياة في عصرنا الحالي، عصر الكمبيوتر والليزر والصواريخ العابرة للقارّات، عصر موسيقى الديسكو وجحافل «البانك»، عصر تتساقط تحت أقدامه كل الأشياء

الجميلة ، وبتساقطها يمسك الحب بعصا الترحال باحثاً عن حيث يجد قلوباً آدمية بكراً يطمئن لسكناها . يؤسيك ، أيتها الإنسانة المحبة ، واقع زماننا الذي تراجع فيه الحب ، وشق العشاق فيه بدورهم طريق الهجرة ، إذ كما تقولين : «عندما يهاجر الحب ، تهاجر معه كل الأشياء الجميلة» ، وحيث إن بذرة الشعر تعتبر من جوهر الحب ، فمع رحيله «يرحل الشعر والأغنية واللون الأخضر وأزهار الياسمين وضوء القمر ، وتقص الغاب شعرها الطويل» (ص . 92) .

إن أشكال التردي وموجات العنف التي تجتاح ، اليوم ، كبريات عواصم الغرب تعتبر مظهراً من مظاهر هجرة الحب لها . وإن أفظع ما تخشينه هو أن تصيب عدواها بلادنا العربية ، تقولين «بهجرة الحب تصبح الكرة الأرضية برتقالة عفنة . إنها مجزرة حقيقية أكلت قلب أوربا . . . وهي الآن تحاول أن تأكل قلوبنا» (ص . 92) .

وكالطبيب الذي يشخص الداء ثم يقدم وصفة العلاج تتوجهين ، بعد هذا التشخيص لواقع الحب في زماننا بما عهد فيك من لباقة ولطف ورهافة ذوق ، إلى من يسكن السحر أناملهم فيستطيعون بإبداعهم تقليب القلوب ، والنفخ فيها من أرواحهم الأثيرية ، ملتمسة «من الشعراء والكتاب والفنانين العرب أن يتمسكوا بثياب

الحب . . قبل أن يجمع حقائبه ، ويركب أول طائرة ويرحل؛ لأن رحيله يعني موت العصافير ، وموت الشجر ، وموت القمر ، وموت كل لمسة حنان أو رقة شعر في حياتنا» (ص . 93) .

ولعلّي لا أخطئ إذا قلت إنك تحدسين رحيل الحب ، بل تلمسين بوادر انطلاقة رحيله عن هذا العالم الصلد الذي لا يلين آدميوه لأنوثة حواء ، وكأنما تمت بالفعل القطيعة بين قلوبهم وبين ما كان يسكن قلوب أجيال زماننا نحن ، والأجيال التي سبقتنا من رومانسية الحب الطاهر العفيف . لقد أضحت مفاهيم الحب اليوم غريبة لا يقدر شباب الجيل الحالي على حل شفراتها ، لا غرابة في الأمر ما دمنا نعيش عصراً تداخلت فيه الشفرات ، ما إن يتوصل المرء إلى فك رموز بعضها حتى تغزو الساحة شفرات أخرى أكثر تعقيداً فتراه يسعى عبثاً للخروج من متاهة اللهث وراء إتقان فن التعامل مع الرموز والشفرات الإلكتروينة السريعة التغير . فأنى له أن يتذوق عذوبة الحب في بكارته ، تقولين : «إن الحب الذي عرفناه قدم استقالته ، والعشاق القدامى أصبحوا عملة نادرة ، والرومانسية أصبحت لغة من اللغات غير المستعملة كالمسمارية ، والحقيقة أن الإنسان الذي استطاع بحماقته أن يثقب غلاف الأوزون الذي يحمي الكرة الأرضية قد أحدث ثقباً كبيراً في غلاف القلب أيضاً» (ص . 93) .

هل يداوي الطبيب مريضه مما أفسده الكيميائي ولو بإبدال قلبه؟.

رحماك أيتها السماء! فلتتعلق القلوب الآدمية بثريا الحب في عذريته إلى أن نرحل جميعاً عن هذا الكون على جناحه لفردوس المحبة في الآخرة.

نزار جامعة شعرية تعلمنا فيها جميعاً
من منكم لم يتأثر بنزار فليرفع أصبعه ؟
لو كان الإبداع يصنعه المال لأصبحت كارولين ماناكو شاعرة الشاعرات

إن إثبات الذات وتحقيق وجودها يتم بترسيخ متخيلها وحلمها وحدسه وإشعاعه الحضاري والإنساني والوجداني من خلال الإنجاز الإبداعي . ولعل الشعر أعرق الفنون الإبداعية وألصقها بوجدان الكائن البشري . وبقدر ما تستجيب موهبة المبدع وملكاته الفنية لعبقر الشعر الذي يسكن أعماقه بقدر ما يأتي إبداعه في قمة الصدق مع الذات في تفاعلها مع مجموع العوامل المؤثرة الخارجة عنها . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الإبداع الشعري كما يتجلى في قصائدك ومختلف دواوينك يعكس بصدق ، روعة فنية متجذرة ويملأ حيزاً يتجاوز منطوق ذاتك الوجداني والفكري ليسمو في صلة وثيقة دائمة التجدد بالمعيش والمتخيل. إن لحظة الإبداع لديك لحظة كشف عما استقر في مكنون الذات من انتماء واعتقاد ومواقف سياسية وجمالية وطموحات وآمال تكسبك مناعة وقوة ضد كل الاهتزازات التي تستهدفها هجومات بعض

المغرضين واتهاماتهم المجانية على اختلاف مشاربها وتباين أهدافها وتلون أساليب إفرازاتها. إن رزانتك التي لا تضاهى وما عهد فيك من إخلاص الود وجهل مسارب الخصام والتغاضي عن سالكيها يجعلك تقاومين في شموخ كل الترهات والادعاءات التي يود بها بعضهم النيل من مقدرتك الإبداعية. لقد استثارت تجربتك الشعرية، منذ بدايتها، العديد من التساؤلات، وارتطمت بصددها الآراء وشكلت مجالاً لحملات جهولة متظلمة، واستهدفها وابل من الانتقادات الفجة التي تنأى عن النقد الأدبي النزيه وتدور حول نفسها في دوامتي الاتهام والتجني عليك في شعرك ومشاريعك الفكرية والثقافية. لم يستسغ بعضهم أن تكون للأميرة الكويتية ذات الجاه والمال والمقام السامي قريحة شعرية وذكاء وقاداً، فساقهم ذلك إلى تجريدك من كفاءة الإبداع الشعري وإلى التساؤل عمن يكتب لك قصائدك الشعرية. وأملى عليهم سوء نيتهم رؤية «سحرية» فاقلوا: «إنك تدفعين من مالك لمن يكتب لك»! أليس المال العصى السحري لنيل كل الرغبات؟! فتفضحين باستهزاء وسخرية بلادتهم وقصورهم عن استخلاص النتيجة من المقدمتين طبقاً لمنطق القياس الصوري في بداهته ومسلماته: فلو كان المال يصنع الشعر لكان جميع أغنياء العالم شعراء، تقولين: «إذا كنت امرأة غنية فهناك ملايين الرجال والنساء أغنياء (...). ولو كان

الإبداع يصنعه المال لأصبحت كارولين موناكو شاعرة الشاعرات ، ولأصبح الأمير تشارلز من أشهر الكتاب والشعراء» (ص. 16) .

كل العقوبات التي أصدرتها محاكم التفتيش لا تزعجني أبداً الحملات
الشرسة ضد اسمي وضد وطني وضد كلماتي شحنات نار شدت من
مواقفي

يا من عزت قصائدك عن كل رجم و لم تعبئي بما يراه المغلفون من أن تجاوز أية امرأة عربية «للخطوط الحمراء» التي يسيج بها الرجل أملاكه الشاسعة، وأن كل محاولة منها لِ«توزيع الأراضي» أو توزيع المحاصيل... أو توزيع الدخل بينها وبينه هو انتهاك للحرمات والنواميس التي أكسبها التاريخ قدسية لا تمس، فأضحت كل محاولة من المرأة لأن تدخل حرمه الخاص به، حرم الكتابة، تعرضها لآلاف البنادق والسكاكين التي ترفع في وجهها. ويصبح الأمر أخطر إذا تضاعفت جرأتها، ووطئت قدماها حرماً آخر «خاصاً» بالرجل لا يقل «قدسية» عن ميدان الكتابة، حرم السياسة الذي دخلته، أيتها الشاعرة الأنثى، مخلصة لتوجهاتك القومية. لقد شكلت القضايا السياسية والقومية العربية هَمًّا كبيراً تربع قمة انشغالاتك الحياتية فدخلت الحرم السياسي بكل ثقلك لممارسة دورك التنظيري والاستشاري والنضالي، الشيء الذي عرضك

لهجومات أعنف وأشد. لكن بصمود معقلن قاومت، بما لا يقبل المزاد، الفكر التجزيئي والفئوي والإقليمي والطائفي، منسجمة مع طباعك في خلقتها الأولى التي كانت «دائماً ضد القبح بكل أشكاله، والانحرافات بكل أشكالها.. وكل التسلط بجميع أشكاله» (ص. 110)، دخلت ساحة المقاومة بثبات وإيمان قوي بأن من الطبيعي، بل أمر حتمي أن تتعرضي، كأديبة مناضلة، لشتى أشكال الهجوم والافتراء عليك وعلى أعمالك، فلم تفلح جميعها في أن تثبط عزيمتك، تقولين: «كل العقوبات التي أصدرتها محاكم التفتيش لا تزعجني أبداً، بل أعتبرها ميداليات ذهبية وضعت على صدري» (ص. 110). مهما حاول، صغار القوم، وحتى كبارهم، تسلق أسوار روضتك المهيبة للنيل من قوة شخصيتك وجرأة قلمك ووجاهة مقامك فإنهم لم ولن يفلحوا في زحزحة مبادئك القومية والإنسانية، ولن يجدوا وسيلة للحجر على عطائك الإبداعي الفياض. إن الهجوم الذي تشنه أقلام عربية ضدك وضد الشعر وبعض رموزه، وضد القلم الخليجي عموماً يستهدف، كما ترين، غايات لا تتصل بالشعر أساساً، تعوزها روح العروبة الصادقة وتفوح منها رائحة مآربهم المريبة ونواياهم المبيتة. وبكامل الاعتزاز تنصحين من يطلقون سهامهم صوبك بأن يتوجهوا وجهة أخرى لعلهم يحسنون فيها صنعاً. إن قصورهم على

أن ينجزوا ولو واحداً بالمائة مما أنجزتِ دليل على أنهم ليسوا في مستوى أي حوار أو مناقشة، والأليق أن يترفع المرء عن إعارتهم أي اهتمام. إن إصدار الأحكام المسبقة السلبية الجوفاء والمتطاولة أمر سهل، بيد أنها تظل كالنار يأكل بعضها بعضاً حين لا تجد ما تأكله، وكفقاقيع الصابون التي تضيع، والزبد الذي يذهب جفاء ويبقى النافع غرة في جبين التاريخ. ما أكثر عدد أولئك الذين يجهلون، كما تؤكدين، أن الشجر المثمر هو الذي يتعرض للقذف بالأحجار، إذ لو كان شجر صبار لما استثار قذفا. ومن سامي مقامك وبشموخ وفخر ووعي وإيمان بما وهبك الله من قوة بيان وصدق كلمة وحسن نية، تعلنين صمودك وصلابتك في الثبات على مبادئك دون أن تنال منك سهامهم الصدئة، فتقولين: «لقد حاولوا كسر عنقي لكنهم لم يستطيعوا كسر كلماتي.. وحاولوا أن يرجموني لكنهم لم يستطيعوا رجم القصيدة.. وحاولت مقصات الرقباء أن تقص كتبي ولكن كتبي تناسلت كالأرانب في كل بيت عربي» (ص. 117). فلا المديح يغريك ولا الهجوم يضنيك، تضيفين قائلة: «لم يزدني قوة وعزيمة مديح ألقاه حيث أذهب، بل كانت الحملات الشرسة ضد اسمي، وضد وطني، وضد كلماتي شحنات نار شدت من موقفي وزادتني صلابة على الصلابة التي جبلت عليها، ولا أحسب الساخرين

والشامتين والشتامين هم الذين صمدوا بل نحن» (ص. 24).

هكذا تظل قافلتك تحت الخطى والمشتغلون بك يلهثون خلفها في غوغاء وظلامية.

دوري في تمويل الثقافة شرف لي لا أدعيه
علمني الشعر بأن أمشي ورأسي في السماء

ويشتغل آخرون بك شيخة مترفة، لاغين تفوقك الإبداعي الشعري وقدراتك الفكرية. وتترفعين عن النزول إلى مستوى محاصرتهم لك داخل حجرة متصدعة الأركان لأنك كل لا يتجزأ، لك من المناعة ما يجعلك لا تعبئين بالمواقف التي تفصل بين إنسانيتك كشاعرة مثقفة ومفكرة رصينة وبين انتمائك العائلي وما لك من جاه وما تنعمين فيه من ترف. لا تسمعين ولا ترين غير ما اعتدته من ذوي المواقف والسلوكيات الحضارية القمينة بأن يكون لها وزن. ولم يكن الشعر وحده الجريمة التي تُقتحم أبوابها لاتهامك، فأبواق المغرضين وذوي النيات الخبيثة والنفوس الشريرة لا تحتاج إلى أسلاك كهربائية. إنها من بدائع الالكترونيات الحديثة، لها براعة متميزة في اختلاق الترهات وتأويل المواقف وكل التحركات. يرى هؤلاء القوم أن إخلاصك لمبادئك النضالية الملتزمة، وصراحتك النزيهة في التعامل مع صغار القوم وكبارهم تمرداً على المألوف، وخروجاً عن الأعراف والتقاليد التي

يقدسونها . وتمتد ألسنتهم لتطول تصرفاتك الشخصية فيما أفاء الله به عليك من وافر عطائه المادي وألهمك تسخيره لخدمة الثقافة ، فأولوا بسوء مفرط تمويلك ، مثلاً ، للمؤتمر الثقافي الذي عقد في مصر ، وشنوا عليك حملة شرسة وكأنهم كانوا خارج الزمان والمكان ، لا علم لهم بما لك من حرص دائم ، منذ عقود ، على تشجيع اللقاءات والمؤتمرات الثقافية والإنفاق عليها في العديد من الأقطار . وبالرصانة المعهودة فيك ، لم تنفعلي لاتهاماتهم المغرضة ، وفاق نبلك كل تلك السفالات مؤكدة تعاليك على استفزازاتهم بقولك : «كنت سأغضب لو اتهموني بتمويل مؤتمر يمجد الطغاة أو الإرهاب ، أما الثقافة فدوري في تمويلها شرف لي لا أدعيه» (ص . 133) . والواقع أنك لا تدخرين جهداً في مؤازرة العديد من الأعمال الفكرية والفنية ، والأنشطة الثقافية والمجتمعية التي تمارسها المنتديات والمراكز والجمعيات والمؤسسات الأدبية والفكرية . فمتى تبدى لك العمل الثقافي هادفاً وخادماً لقضايا الأمة الحقيقية جاء عطاؤك مدراراً ومساندتك سبيلاً له لتحقيق أهدافه ، في عزوف منك عن البهرجة والتهريج عبر أضواء الكاميرات وبريق الصكوك ورنات الدينارات . ويظل مهاجموك خلف القافلة يجترون الهذيان ، وتتابعين أنت السير إلى الأمام مرددة على مسمع من الجميع قصيدتك الرائعة التي تسجل بعد نظرك وعلو همتك :

«. . غير أني
ما تعودت لأنِ أنظر يوماً للوراء .
فأنا أعرف دربي جيداً ،
والصعاليك على كثرتهم
لن ينالوا شعرة
واحدة من كبريائي
فلقد علمني الشعر
بأن أمشي ورأسي في السماء» .

(انظر ديوان : «امرأة بلا سواحل») .

الشاعر لا يستقيل، الجمهور هو الذي يقيله
أستلهم من التجاوب الحار مع الجمهور دفئاً سرعان ما يشعل ثورتي
وتحولاتي

بعيداً عن كل تنطع أو غرور، كما قد يبدو من اعتزاز سعاد بموهبتها الشعرية وبالدفق الخلاق الذي يشتد أوراه في أعماقها، تأبى شاعرتنا إلا أن تتواضع تواضع أباة النفس، وتسلم قياد تقييم تجربتها الشعرية للمتلقي إذ تجعل من الجمهور الحكم الذي بإمكانه أن يقيل الشاعر من مهنته أو يرفع مقامه ليتربع عرش الشعر: «الجمهور وحده هو الذي يرمي الشاعر بالورود أو يرميه بالبيض والطماطم» (ص. 107).

فماذا عن جمهور الشاعرة سعاد الصباح؟.

كانت أول أمسية شعرية تلتقي فيها الشاعرة الشابة بالجمهور إثر وفاة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وليس في الأمر غرابة لما نعلمه عن حبها وتقديرها لهذا الزعيم الكبير. كان ذلك في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة حيث تلقت دراستها الجامعية في مادة الاقتصاد. ثم توالت أمسياتها الشعرية الحافلة في

العديد من البلدان العربية : البحرين ، الإمارات ، مسقط ، الرياض ، بيروت ، دمشق ، عمان ، الخرطوم ، الدوحة ، القاهرة ، تونس ، فاس ، بغداد ؛ وفي أمريكا وأوروبا : واشنطن ، لندن ، جنيف ، باريس . . . فتغص القاعات والمدرجات بمئات الجماهير الذين يهبون للانغمار في موكب الشعر والتمتع بإلقائها المتميز وقصائدها الرقيقة القوية التي تخترق الأجساد لتنفذ إلى الأعماق . وفرق ما بين أمسية شعرية وما يليها من أمسيات هو فرق مختلف العمليات الحسابية التي يظل الحاصل فيها واحداً مهما تعددت أشكالها وتنوعت ، ففي العمليات التالية يظل الحاصل أربعة هو هو ، واحداً لا يتغير : 3 + 1 – 4 أو 2 + 2 – 4 و9 – 5 – 4 ، أو 7 – 3 – 4 ، 2 × 2 – 4 و8 ÷ 2 – 4 .

كذلك الأمر بالنسبة لشاعرتنا ، فإذا كان النجاح في أمسية شعرية تتلمس من خلالها حباً كبيراً في العيون ، يحتل صدارة ما يدخل على قلبها البهجة ويسعدها كثيراً فإن ما يراودها من شعور في مستهل كل لقاء يظل هو هو ، كما يظل حضور الجمهور ووفاؤه والدفء المتولد عن التجاوب المتبادل بينها وبينه يشكل الشرارة الأولى التي توقد لهيب تحليقها في الفضاء القدسي لملاك الشعر . لننصت إليها وهي تعبر عن هذه الأحاسيس : «عندما أواجه الجمهور وعيونه المتفحصة أحس كأنني أقف لأول مرة على المنبر (. .) ، أبدأ بخوف

طفولي ، ثم أستلهم من التجاوب الحار دفئاً سرعان ما يشعل ثورتي وتحولاتي» (ص. 109).

إن تبدل بعض شرائح الجمهور وتنوعها ووفاء بعضها لمتابعة كل أمسياتها سنوات طوالاً. يغمرها سعادة ويدفعها إلى دراسة جمهورها ومحاولة فهم المعنى الذي يعبر عنه حضوره، فتتملكها قوة تقودها تلقائياً إلى الاندماج معه، والانشغال بهمومه وقضاياه والاستجابة إلى رغباته وميولاته. ولا تخفي الشاعرة المتواضعة سعادتها واعتزازها به أيما اعتزاز إذ تقول: «يسعدني دائماً أن أرى هذه الشريحة من الجمهور تتبدل وتتنوع، وإن كان بعضها يغمرني بوفائه إذ يتابع كل أمسياتي منذ أكثر من عشر سنوات (. . .). وللصدق أقول إنني أدرس جمهوري جيداً، وأحاول فهم معاني حضوره، فتملكني القوة كلما فعلت. أليس رائعاً أن يكون الحضور من الرجال ومن السيدات؟. أليس رائعاً حتى أقصى حدود الرضا أن يقول لي أحدهم لقد وقف القدر بيني وبين حضور أمسيتك في معرض الكتاب، إذ جئت متأخراً على موعد الإعلان عنها في أولى أمسياته، واضطررت مكرهًا للسفر إلى بلدي قبل حلول موعد الأمسية الأخيرة؟. أليس رائعاً أن يحيط بي حضور في عمر الياسمين جاؤوا من دول مجاورة ليستمعوا إلي؟ (. . .). إن الدفء الذي أستشعره خلال الأمسيات الشعرية لا يعدله دفء الشمس،

إن في عيون الجمهور ذبذبات كهربائية تخترق الروح وتعيد إلى الذات الفرح والتوازن» (ص. 24).

يصنف بعضهم هذا الجمهور الذي تستلهم منه الشاعرة «الفرح والتوازن» فيرى أنه يقتصر في غالبيته على نوع وطبقة اجتماعية معينة، وأنه ليس بجمهور شعر ولكنه جمهور مناسبات اجتماعية فقط. ويلاحظ بعضهم ارتباط الجمهور بشكل قوي بقصائد معينة فيطالب الشاعرة بإلقائها خلال الأمسيات، مثل قصيدة «كن صديقي» و«نحن باقون هنا»، في حين لا تجد أخرى لديه صدى. يظل موقف سعاد من جمهورها هو هو، موقف تقدير وإعجاب وإنصاف. إنه سيد نفسه، ولا أحد يجبره على الحضور، ولا أحد بوسعه أن يتحكم في ذوقه وميولاته ما دامت الأمسية الشعرية كما ترى «ليست حفلة كوكتيل، والمستمع الذي يخصص ساعتين من وقته للوصول والاستماع ثم المغادرة لا يفعل ذلك للتسلية، إنه يتحمل العناء حتى يحصل على ما يريده» (ص. 68). لكنها لا تستسيغ قول من يدعي أن «جمهورها يمثل طبقة اجتماعية معينة»، وتجد في هذا الرأي «الكثير من الغلو»، لأن لها اقتناعاً كاملاً بأن الشعر الذي تلقيه ليس طبقياً، وبأن الشعر في تكوينه يستهدف الإنسان عموماً «وليس فئة من الناس»، ويبقى للجمهور، كيفما كان نوعه، حق الإعجاب ببعض القصائد وعدم استساغة أخرى.

فسعاد الشاعرة المقتدرة تعي ذلك وتصف جمهورها معلنة : «يحق للجمهور أن يطلب قصائد معينة ، ويستعيد مقاطع من قصيدة ، ولكن ذلك ليس شرطاً لكل قصيدة» (ص . 33) . ونجد سعاد تتعمد أحياناً ، خلال أمسياتها الشعرية ، إلقاء نفس القصائد رغم ما يتوفر لها من جديد تأكيداً لموقف سياسي وطني أو قومي ، ورغبة في إيصال رسالة تحملها تلك القصائد بالذات ، إلى أكبر عدد ممكن من الناس ، ما دام الجمهور ليس هو هو في جميع الأمسيات التي تقيمها عبر العديد من البلدان . إن التجاوب مع الجمهور والوصول إلى هدف التفاعل معه فيما يخص قضايا وطنية وسياسية معينة هوا الذي يتحكم في اختيارها لبعض القصائد رغم التكرار ، تقول : «هناك قصائد أعيد قراءتها لأنها تجسد موقفنا الوطني سياسياً وأعرف أن لها وقعها بالنسبة للجمهور ، ثم لا تنس أن الجمهور ليس واحداً في كل أمسية ، من هنا فإنني أريد إيصال صوتي من خلال قصائد معينة إلى أكبر عدد ممكن من الناس» (ص . 32) .

النقد قراءة واعية للنص وحوار معه بعيداً عن شخص الكاتب
النقد الذي يشبط عن قصد هو ميليشات ثقافية تمارس القتل على
قارعة الطريق
على الكاتب الحقيقي أن يتعلم أيضاً ، أن يمشي على المسامير كفقراء
الهنود أضواء الشهرة لا تعمي عيني ولا تفقدني صوابي

إذا كانت شاعرتنا سعاد الصباح تسلم السلطة للجمهور الذي بيده أن يقيل الشاعر من مهنته ويرميه بالبيض والطماطم أو يرقيه فيرميه بالورود ويبوئه أعلى المراتب ، كما رأينا ، سواء أكان هذا الجمهور ممن يحضر أمسياتها الشعرية أم ممن يستهلك قصائدها على أعمدة الصحف وفي دواوينها التي تطلع بها المطابع ، قراءة ونقداً ، فذلك لأنها تؤمن بأن الكاتب بمجرد أن يكتب يدخل إلى محكمة الجمهور فيحكم عليه بعض المحلفين بالبراءة ويصدر بعضهم في حقه الحكم بالإعدام . لكن الشيء الذي يحز في نفسها هو التطرف الذي تشهده ساحة النقد العربية دون وسطية أو اعتدال ونزاهة .

يجد هذا الوضع يجد لدى شاعرتنا صدراً رحباً فتقبله من باب البداهة المطلقة ، وتتخذ من تقلب درجة حرارة الجمهور إزاء

بعض قصائدها مؤشراً إيجابياً تستغله في تأمل الذات المبدعة، تقول: «إن الذين يتحمسون لقصائدي لهم الشكر مرة، والذين يرفضونها لهم الشكر مرتين، فأنا بشر أكتب إلى بشر مثلي، لهم أفكارهم ومواقفهم ومشاعرهم، إنّ الذين ينتقدون شعري لهم عندي ذات الأهمية وذات التقدير لأنّني أتعلم منهم كيف أتجنب عثراتي وأخطائي، وليس هناك أديب أو شاعر في العالم إلاّ ومشى على الورد مرة، وعلى الشوك مرات، لذلك، فإنّ الكلمة التي تجرحني لا تقل أهمية عندي عن الكلمة التي تعانقني» (ص. 111).

انّ اهتمام سعاد بالنقد وبما يراه النقاد أمر لا يشكل استثناء، فما من أديب أديب إلاّ وله اهتمام به. لكن شرطها في ذلك هو أن يكون النقد نزيهاً، نقداً يجسد «علاقة ديمقراطية بين كاتب حر وبين قارئ حر». فالنقد كما تعرفه: «ليس شتيمة مهذبة، أنه قراءة واعية للمضمون بعيداً عن شخص الكاتب، فالمسألة ليست تعريضاً بالكاتب ولا يجوز أن تكون. انّ النقد الحقيقي هو الحوار مع النص وليس مع الكاتب وعائلته ولائحة طعامه وشرابه!» (ص. 23).

ولا يستقيم حكم النقد لديها إلاّ بما تستشفه من آراء الجمهور ومواقفه من أعمالها، الشيء الذي يشكل عناصر أساسية لتقييم النص الأدبي أو القصيدة الشعرية، تضيف قائلة: «في الوقت ذاته يهمني كثيراً رأي الناس الذي لهم تكتب الكلمات، فيكون الحكم

صافياً وصادقاً وشفافاً، وبعيداً عن أي قياس آخر غير قياس الحس الإنساني الصادق». (ص. 23).

هذا لا يعني أنّها لا تعترف بدور النقد الإيجابي، بل على العكس تأخذه بعين الاعتبار وتستفيد من النقد الذي ينصحها ويوجهها ويعلمها. وبقدر ما تؤيد النقد النزيه بقدر ما تمج النقد المغرض وتعتبره أداة هدم وتخريب تعمل على تثبيط العزائم: «إنّ النقد الذي يحاول أن يغتال وردة طالعة ويطفئ نجمة تتوهج ويجهض محاولة إبداعية واعدة، ليس أكثر من ميليشيات ثقافية تمارس القتل على قارعة الطريق» (ص. 106).

لسعاد الشاعرة المتفوقة من المناعة والقوة والثقة بموهبتها الشعرية ما يجعلها لا تعبأ بمن يطعن في كفاءتها تحت عباءة النقد، ولا بالمواقف المسبقة التي يتخذها بعض النقاد من النص للمس بصاحبه وتجريحه أو المبالغة المجانية في إطرائه والتزلف إليه. ففي جميع الأحوال تتخذ من ناقديها موقفاً رزيناً ويقظاً، فلا المديح يغريها ولا التجريح يثير حفيظتها. وحيث أنّها مقتنعة بأن ساحة النقد العربي لا تخلو من نقاد يصدرون أحكاماً جزافية بالمجان في تطرف مفرط، مدحاً أو ذماً، فإنها تتخذ لها مكاناً في صف المرغمين على تقبل الواقع كما هو ضريبة لانتمائها إلى الجنس العربي، ذاك ما تصرح به في ردها على سؤال أحد مستجوبيها حول كلمة المديح

التي أسعدتها وكلمة النقد التي أزعجتها من بين ما قيل عنها ، تقول «بصراحة أقول ذلك : لا هذه أرقصتني فرحاً . . . ولا تلك أسقطتني بالضربة القاضية ، الكاتب بمجرد أن يكتب يدخل إلى محكمة الجمهور ، بعض المحلفين يحكم عليه بالبراءة ، وبعضهم يحكم عليه بالإعدام . نحن قوم لا توسط بيننا ، كما يقول الشاعر . وما دمت أنتمي للجنس العربي وأتوجه بكلامي إلى الشعب العربي . فأنا عليّ أن استقبل قبلاته كما أستقبل لكماته . ليس في الأدب شيء اسمه النوم على فراش من حرير ، فالكاتب الحقيقي عليه أن يتعلم أيضاً ، أن يمشي على المسامير كفقراء الهنود» (ص. 107) .

كما لا يفت من عزيمتها ما تخطه أقلام بعض النقاد من أحكام قاسية على بعض أعمالها ولا يفلت منها كذلك زمام الاتزان والرؤية الصائبة لما حظيت به من مكانة مرموقة في صف مشاهير الشعراء ، بل تنزل نفسها ، تواضعاً ، دون المكانة التي تستحقها بجدارة كشاعرة لها صورتها المميز وأسلوبها الخاص في دنيا الشعر العربي المعاصر ، وعياً منها بمخاطر الانخداع بالشهرة التي تصيب بعض النجوم ، تقول : «إن أضواء الشهرة لا تعمي عيني ولا تفقدني صوابي . إنّ الشهرة سيف ذو حدين ، فإذا لم يعرف الإنسان كيف يمسكه قتله . وبكل تواضع أقول : إنني لم أصل بعد . . . ولا تزال أمامي مسافات طويلة لا بد من أن أمشيها لأصل إلى جزيرة الشعر .

إنّني لا أزال تلميذة شعر . . . ولا بد لي من مذاكرة دروسي جيداً حتى أنجح في امتحاناتي» (ص. 129) .

رغم ذلك نسجل سعادتك القصوى ، بما يكنه لك من حب جمهورك المتهافت على حضور أمسياتك الشعرية والآخر القارئ لك ، وما يخص به إنتاجك المتميز وأشعارك النافذة من إعجاب . إن اصغاءه ونظراته إليك ، وتصفيقاته الحارة لك ورسائله البريدية ومكالماته الهاتفية التي تخترق المسافات القريبة والبعيدة لتصل إلى قلبك حاملة تقديره وأشواقه ، كل ذلك ينفث في روحك من الدفء ما يجعلك تعيشين أعز لحظات السعادة والفرح والتوازن . لعل إحساسك هذا هو إحساس كل مبدع حقيقي ورصيده الثمين في لحظات تواصله مع الجمهور ، تقولين : «كل فنان حقيقي محبوب ، وهو أغنى الأغنياء وعطاؤه باق . وأفضل وأثمن ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان هو أن يكون محبوباً : أحس بروعة أن أحاط بمحبة الإنسان قرائاً أو مستمعاً ، أحس بذلك في كل وقت من يومي ، عبر كل مكالمة هاتفية ، أحس بروعة بروعة أن أتلقى عشرات الرسائل يومياً من قراء محبين وبسطاء في كل مكان . . . أليس رائعاً أن تزين عيني في الصباح برسالة من الجزائر ، وأخرى من السعودية ، وثالثة من مصر ، ورابعة من سوريا ، وغيرها . . . حتى من السويد هناك عربي يكتب . إنهم لا يطلبون إلي عوناً سوى أن يقرأوا لي ، أو أن

يكونوا قراء فأعجبوا فتمنوا لي دوام العطاء» (ص. 22).

إن سعادتك تلك تأتي على قدر وعيك بما يستحقه الجمهور، والقارئ عموماً، وبما يجب أن يلتزم به المبدع إزاءه من استمرارية التجديد ومواكبة همومه واهتماماته، وتجنيبه التشبع منه والوقوع في الملل مما يطلع عليه به مكرّراً في قوالب وكليشيهات تكاد تكون منمطة. إن ذكاءك في التعامل مع قارئك، ومقدرتك على الإبحار في خضم بحاره وتلاطم أمواجه العاطفية والاقتصادية والسياسية اليومية في مختلف أبعادها، وتأهبك لاستيعاب التحولات المفاجئة في كل المجالات يجعل لهيب النار المضطرمة داخلك يزداد اتقاداً، وتتحول ديناميكية الاحتراق ماءاً عذباً وتجاوباً مع ما في قلوب الجمهور، تطفئ ما بداخلهم من نيران الحرمان والاستلاب والقهر... ولا يطفئ النار سوى النار، فالكتابة الملتزمة، والشعر عاهلها، نضال لا يفني، يتجدّد بتجدّد الليل والنهار. إنّ طبائع البشر تهوى الشمس كما تهوى القمر، ومع تعاقبهما يعيش المرء هنيهات تشحن النفوس تعلقاً بالحياة ومحبتها، وما أقدر الشاعر على أن يكون الشحنة والأمل الباسم. ولا يهم أن تكون درجة احتراقه رابعة أو خامسة، المهم أن يبلغ الرسالة التي يتحملها وينجح في أدائها، وله من الجمهور كامل التقدير والود، وبه يشعر بالفخر والاعتزاز للتفاعل المتبادل بينهما والحضور المتآني في أوقات الشدة.

صحيح أنّ المبدع قد يفقد ناره الداخلية ويصاب بالملل إذا كان يمارس فعل الكتابة الاجترارية ويكرر ذاته، أما أنت فإن طبيعتك المتميزة بالتجدد واليقظة تجعلك في منأى عن السقوط في الابتذال، تقولين: «لم يصبني الملل لأن حياتي دائمة الاشتغال ومتعدّدة المسارات، ولا أحسبني في يوم المبدعة الملول، وفقد ولدت في الحياة، ويولد في كل لحظة مشعل جديد تنطلق بي ناره» (ص. 23). وما ذلك إلاّ لأنك تعينَ أن «القارئ لا يحس بالتشبع من الكاتب إلاّ إذا كان الكاتب نفسه قد تحول إلى تكرار التجربة أو الكلمة، فما من جديد عنده سوى العناوين» (ص. 23). لقد عشت التجربة واستفدت منها وكان طبيعياً أن تستشعري من خلال قراءاتك، رغبات المتلقي وأن تتعلمي كيف لا تكونين ملولة لقناعتك بأن القارئ يحتاج إلى ما يفيده أو يمثله أو يزيده في بحر الثقافة، وأن على الفنان، استجابة لذلك، أن يبني نفسه من جديد كي يظل قادراً على العطاء المتجدد. وبالفعل، إن مواكبتك لكل جديد وطارئ يسهل اندماجك في الأحداث وتفاعلك معها وتبني ما قد يغير من حدة السالب منها بتسخير موهبتك الشعرية في العمل النضالي.

لا غرابة، إذن، أن نراك تتخذين موقفاً من الذين يفشلون في أداء دورهم التغييري، ويركنون إلى المديح المتكلف مهما كلفهم ذلك

من تغيير أقنعة النفاق ليعيشوا على فتات موائد الأمراء والأثرياء، وفي أحضان أنظمة تخصهم بالمكانة والجاه، وتدر عليهم من العطاء المادي ما يوغل هبوطهم المعنوي. ودون تردد نراك ترفعين صوتك لطردك من باحة الشعر، قائلة: «إنّ هذا النموذج من الشعراء المرتزقة لا مكان له على خريطة الشعر ومصيره دوماً في سلة المهملات». (ص. 108).

بالمقابل، تؤمنين بضرورة حفظ حقوق الأدباء وتبذلين كبير الجهد لمساندة المنظمات الساهرة على رعايتها. لكن ذلك لا يمنعك من أن تصري على نسبة هذه الظاهرة، ظاهرة الارتزاق المتفشية بين بعض الشعراء العرب، على عصر الشحاذة، ولا ترددين في إدانة أصحابها والتنبيه إلى أن كرامة الأدباء رهن بتصرف الأديب نفسه واختياره للنهج الذي يشقه، ورهن كذلك بإقامة مشروع يضمن لذوي الكفاءة حقوقهم، تقولين: «... فعصر الشحاذة ينهيه أصحابه وحدهم، وكرامة الأدباء مصانة بقدر ما يصون الأديب نفسه عن الولوغ في دمه، يبقى ممكناً تعاون الاتحادات الأدبية مع المؤسسات الخاصة للسير بمشروع تاريخي يوفر للمستحق حقه فلا يضام» (ص. 106).

سحب الملحنون الاعزاء بساط السحر من بين أصابعي بما اختاروه
من قصائدي
صوت ماجدة الرومي يأخذني إلى عالم غير ملوث

بعد طول ممانعة من سعاد الشاعرة في أن تهب شعرها صك المرور إلى مدائن الموسيقى والغناء تشق بعض قصائدها الحدود دون استئذان لتجد في الأصوات الجميلة جسرها إلى الناس، فتطرب هي آنئذ لذلك أيما طرب، ولا تجد حرجاً في أن تقر بأن قناعاتها قد تغيرت لتغيير الزمن... فبعد أن كانت لا تستوعب أن تكون لها قصيدة مغناة حين صدور ديوانها «أمنية» وعزوفها عن تلبية رغبة الفنانة الكبيرة أم كلثوم والفنان الأصيل عبد الحليم حافظ في أن يسعدا بغناء بعض قصائدها، ها هو صوت ماجدة الرومي يصدح بأشعارها ملحنة ومغناة.

ليس معنى ذلك أنه كان لسعاد عداء مع الموسيقى والغناء، بل على العكس إنها كما تؤكد «تعشق الغناء أصلاً»، كل ما في الأمر أنها كانت في بداياتها الشعرية «خجولة» فدثرت خجلها بالممانعة، تقول: «في بداياتي كنت خجولة ورومانسية رغم أن الصديقة أم

كلثوم طلبت مني بعض قصائد ديواني «أمنية» وكذلك الصديق عبد الحليم حافظ ولكنني لم أكن أستوعب أن تكون لي قصيدة مغناة، الزمن تغير وقناعاتي تغيرت (. . . إذ) لكل عمل زمان» (ص. 40).
ومع رسوخ الجذع في فردوس الابداع تفرعت الأغصان وتعالت لتتذوق ثمارها مختلف الأفواه. فلقد شهدت الحركة الثقافية على الساحة العربية اهتماماً متزايداً بالشعر الجيد، وأضحى كبار الملحنين يتصدون للحالات المتنوعة التي يعيشها الناس. من هذا المنطلق جاء الالحاح على اختيار قصائدها لأنها بكل المقاييس بلغت الذروة في الاستجابة لهذه المتطلبات التي عرفتها فترة التأزم العربية. وكان طبيعياً أن لا يتردد الملحنون في انتزاع حق الجمهور الكبير في التمتع بشعرها فيختاروا قصيدتها «كن صديقي» لتغنيها المطربة النجمة ماجدة الرومي، دون أن تلهث، كما يفعل بعضهم، وراء من يغني لها قصائدها كيما تجد طريقاً أمهد وأفسح للجمهور، تقول: «لقد سحب الملحنون الأعزاء بساط السحر من بين أصابعي بما اختاروه من قصائدي و لم أسع وراء انتشار الشعر من خلال الأغنية، وإن كنت أسعد بذلك كثيراً» (ص. 40). ويذهب بها الاعجاب بقصيدتها المغناة وبالمغنية لأن تتبين للقصيدة أبعاداً أعمق وترى في ملامح وجه المغنية تعابير المخاض الذي عانته لدى ولادة القصيدة، تضيف: «ما أروع أن يرى الإنسان نفسه في ذات الآخر بآمالها

وآلامها ، وبانتشاءاتها وأحلامها !» . حقاً ، تعكس المرآة بكل أمانة تقاطيع الوجه وابتساماته ولكن حامل ذلك الوجه يظل هو المؤثر على تقاسيمه ولا يجد له بعداً جديداً في ذات مغايرة تؤكد تلك القسمات . لقد أكدت تجربة سعاد مع ماجدة أن التفاعل الفني مع العمل الإبداعي الممتاز قد يصل تمازجه إلى درجة الحلول الذي تذوب فيه الاحساسات لتجعل منه صورة مطابقة . وقد تجسد هذا الحلول في أداء ماجدة الرومي لقصيدتها ، كما تؤكد ذلك بقولها : «أشعر حين أشاهد «كن صديقي» أو أستمع إليها مغناة على الكاسيت أن صوت الفنانة المبدعة السيدة «ماجدة الرومي» يأخذني معه إلى عالم غير ملوث . في بعض لقطات الشريط التلفزيوني أكاد أرى تقاطيع وجهي في تعبيرات وجهها . «ماجدة الرومي» لم تنشد «كن صديقي» وحسب لقد أعطتها شهادة ميلاد جديدة وكتبت القصيدة مرة أخرى بصوتها» (ص . 41) .

إنّ عشق سعاد للغناء وطربها لسماع قصيدة لها مغناة لا يعني تغييراً اعتباطياً لقناعاتها وانضمامها إلى صف الشعراء الذين يفضلون شدو الأصوات المحترفة للغناء لكلماتهم المنظومة ، فهي شخصياً بقدر ما تطرب لاتساع جمهورها عن طريق غناء قصائدها بقدر ما تعتز بجمهورها الواسع الذي يتمتع بأمسياتها الشعرية ويقرأ لها ويتأثر بها ، تقول : «أنا أعشق الغناء أصلاً ، لذلك لا أخفي أنني

أطرب لسماع قصيدة لي مغناة . ثم إنني لا أرى تناقضاً بين ذلك . لقد طبعت من دواويني عشرات ألوف النسخ ، وأنشدت شعري في عشرات الأمسيات ، وأذيع عبر الإذاعات والتلفزيونات ، ويدرسه الطلبة في المرحلة الثانوية والجامعات ، ومع ذلك فإن غناءه ييسر لمن لم يقرأه سماعه (. . . إنه) على اختلاف أنماطه وموسيقاه يجد في الأصوات الجميلة جسره إلى الناس» (ص . 106) . ولا يقلص من سعادتها بالنجاح الباهر الذي فازت به بعض قصائدها المغناة عدم تحقق نفس الفوز للبعض ، فاحترامها لذوق الجمهور وتفهمها لتفاعل التلحين والأداء مع بعض القصائد في كلماتها وأوزانها وأنغامها وانعدام هذا التفاعل أحياناً شيء طبيعي لا تأثير له في مزاجها ونظرتها إلى علاقة شعرها بمجال الموسيقى والفن الغنائي بصفة عامة ، تقول : «أليس طبيعياً أن تكون للفارس جائزة السبق يوماً وأن يحرم منها في حين آخر» . (ص . 25) .

انه موقف كبار النفوس الذين لا ينهزمون لأبسط العثرات . ولكِ نقول : أي سعاد ، إنك على الدوام فارس ميدانه ، فمزيداً من البطولات !

مرافعات

المرافعة الأولى:

من أجل المرأة العربية

«أريد أن أفك «الحجر التاريخي»
عن عقل المرأة
لأن بقاءها في الكرنتينا أو في مستشفى المعاقين
سيجعل المجتمع كله معاقاً»

الأنوثة سلطة أعطاها الله للمرأة فعليها ألا تسيء استعمالها ولا تبالغ في
استعمال هذا السلاح لأنه ذو حدين
الرجل هو المغني الوحيد في أوبرا الحياة وكل النساء «كورس»
إن نظام السخرة قد انتهى
ديوك القبيلة المتبجحون بالتقدمية يرتعشون لنجاح أية دجاجة

إنّ الدارس لدواوين شاعرتنا الدكتورة سعاد الصباح، يتبين بوضوح آلامها العميقة لمعاناة المرأة العربية، وعذاباتها ولجراح الأمة العربية وانتكاساتها. فمعظم قصائدها يحمل لواءين: لواء المرأة ولواء العروبة. إن كليهما يقع ضحية قاسم مشترك أعظم: القهر والغلبة، تقول: «المرأة العربية مغلوبة على أمرها... والعروبة مغلوبة على أمرها. وهذا التشابه في الحزن والقهر والاستلاب بين معاناة المرأة ومعاناة الوطن هو الذي جعلني أضع القضيتين في ملف واحد أثناء مرافعاتي الشعرية» (ص. 91).

إن العروبة نسيج لحمته قدرات الرجال والنساء معاً وعطاءاتهم المتكاملة، فإذا اختل دور المرأة في حياكته جاء رثاً مهلهلاً. وطبيعي أن نراك، كمفكرة وشاعرة، تلتجئين إلى الشعر وتتخذين منه

سلاحاً وأداة للمرافعة، محققة ذاتك وذوات النساء العربيات، بكامل البوح، في عامل الإبداع الذي يتحدى أجهزة المراقبة التي يبدع العام العربي في ضبط قوة التقاطها للحركات والسكنات في واضحة النهار وفي جنح الليل البهيم، تقولين: «ألجأ إلى الشعر، لأنّه المكان الوحيد الذي أستطيع أن أصرخ فيه بحرية وأغني بحرية وأضحك بحرية وأبكي بحرية. كل الأمكنة الأخرى في العالم العربي موضوعة تحت المراقبة وواقعة في دائرة أجهزة التصنت، والنساء بشكل خاص هن الأكثر تعرضاً للمراقبة. فما من امرأة إلا وتمشي خلفها مخبر خصوصي، يراقب حركتها وأنفاسها وأفكارها وعواطفها ورسائلها ومقالاتها وقصائدها وحقيبة يدها لذلك تلجأ المرأة إلى القلم والورقة لتقول ما لا تستطيع أن تقوله أمام مجتمع لا يعترف إلا بكلام الذكور ومنطق الذكور وذكاء الذكور» (ص. 79).

عرف العصر الحالي أصواتاً نسائية عديدة تدافع عن حرية المرأة وتتبنى قضيتها، أصوات نساء عانين، عموماً، الكبت والحرمان من جراء معاملة الرجال لهن (أقرباء: آباء وإخوة وأعماماً وأزواجاً؛ وأجانب: مسؤولين وحكاماً داخل البيت وخارجه) معاملة قاسية حرمتهن من حقوقهن، بما فيها التي خولهن دينهن الإسلامي، ووقفن دون تمكنهن من تحقيق رغباتهن، فكان رد الفعل انفجاراً

ثورياً: مرافعة معاناة بالدرجة الأولى، من زاوية ضيقة لم تستطع أن تجعل قضية المرأة في مستوى القضايا الكبرى لأمتنا وتصهرها في نهر التنمية ومحاربة التخلق الذي تعاني منه. أما أنت، سعاد الصباح، فإن مرافعتك لم تنبثق عن معاناة، فكما تقولين: «لم أعان من شيء كهذا، لا في صغري ولا في شبابي ولا في زواجي. لم أعان من ازدواجية، كما لم أعان من ظلم الرجل أو قمعه أو نرجسيته» (ص. 13)، كذلك لم تحرمي من حرية تمنيتها. لقد كان المرحوم زوجك الشيخ عبد الله المبارك إنساناً عصرياً منفتحاً إلى حد بعيد، تشهد على ذلك قصائدك الشعرية وكتاباتك ومحاضراتك ومشاركاتك في مختلف الندوات والمؤتمرات، ونشاطات ضمن العديد من الهيآت والمنظمات العربية والدولية. فكما رأينا في بداية هذا السجل ـ الشهادة لم يتوان، رحمه الله، في مؤازرتك وشد عضدك لتستغلي مواهبتك الفكرية والإبداعية في النضال الثقافي والفكري والمجتمعي.

هكذا تبوأ طليعة مختلف نشاطاتك الدفاع عن حقوق المرأة لمقاسمتك معاناتها، أكيد أن ذاك أمر غريب لأنك شيخة، فما رفلت فيه في بيت أبيك ثم في بيت زوجك من دلال ورفه، وتمتعت به من حرية ونعمت به من جاه الإمارة، يؤكد أن تبنيك لقضية المرأة ودفاعك عن حقوقها يعتبر من قبيل الشّاذ الذي لا يقاس

عليه ، إذا الطبيعي المعتاد عند مثيلاتك من الأميرات وذوات الجاه ألا يعرن الأمر سوى اهتماماً «كاميرائياً» ، إذا جاز التعبير للظهور على شاشات التلفزات وأغلفة المجلات وأوليات صفحات الجرائد وعلى مختلف أحجام الملصقات . إن ما يؤكد الشذوذ في مرافعتك من أجل قضيتها هو ارتداؤك أسمال شقائها وتمثل معاناتها ، فكل ما أتيح لك من سبل الحرية والنعيم والجاه لم يمنعك من أن تتسربي إلى أعماق مجتمعك العربي الكبير ، قراءة وتجوالاً في أرجائه ، شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، فتلمست عن كثب جراحات ابنة جلدتك وما ترزح تحته من قمع الرجل لها ، قمعاً متعدد الألوان والأشكال ، المتوارث التلقائي والمتعمد الماكر ، لم تنج من خناقه سوى نسبة ضئيلة من النساء اللواتي حققن ذواتهن بعيداً عن المعاناة بفضل قلة من الرجال الذين فلتوا من معسكر القمع الذي يحاصر الرجل داخله . لقد أتاحت لك تلك الجولات التعرف ، أيضاً ، على أهوال ما يخطط من سياسات جائرة ومعاملات تفتقد الكرامة ، فقدرت عذابات النساء اللواتي تعانين من التعسف والحرمان واستغلال أنوثتهن ، وانسلخت من جلد الشيخة الأمير المحظوظة التي كان بوسعها أن ترتاح إلى وثير فراشها وتقمصت شخصيتهن وأبيت إلا أن تناضلي بجانبهن ومن أجلهن بإخلاص وإيثار ، ثم أبحرت في قوارب الكفاح تفضحين زيف تلك السياسات وتقوضين زنزانتها ،

شاهرة آراءك النيرة في دروب الحياة المدلهمة.

إن إصرارك على التعبير عن عذاب النساء وحرمانهن، وإن لم تعاني شيئاً منه ودفاعك عن بنات جنسك يعتبر عنوان نبلك وسمو نفسك، وتجسيداً لما تؤمنين به من أن الإنسان لكي يكون صادقاً لا بد أن يتكلم بلسان حال الآخرين ويتقمص أدوارهم، تقولين: «عندما أتكلم فإنني أتكلم بضمير المقموعات المسجونات اللائي لا صوت لهن... وأعتبر نفسي صوت من لا صوت له في هذه الأمة إن استطعت» (ص. 14).

ما أعظم خلقك، أيتها الإنسانة الحق! . بيد أنه لا داعي للاستغراب ما دمنا نعلم الشيء الكثير عن أخلاقك الانسانية وآدابك السامية. وقد لا أبالغ في توصيف طبيعتك المتميزة إذا قلت أن إدانة قصائدك للقيود المكبلة للمرأة وعملك على تكسيرها بنفثك فيها روحاً تغور في أعماق من يلامسها، قراءة وسماعاً، وهو في الواقع تعبير عن معاناتك شخصياً، ولمعاناة بنات حواء عموماً، والعربية خصوصاً. ففعل المعاناة متوغل في أعماقك عن طريق تذويتك للأنثى الأخرى، حيث عذاباتها تشكل، في نفس الوقت، الموضوع والذات في تمازج يكاد يستحيل معه التمييز بينهما. إن قدرتك على «التذويت» المتأتي من إخلاصك في تبني قضية المرأة هو ما يجعل القارئ لقصائدك يقع في مفارقة لا يستوعب معها

البعد الإنساني الذي يتجاوز هوية الذات الشاعرة المشخص في جانبها المجتمعي ، وتتبدى له هوية الأنوثة الفطرية المتسامية عن الأنانية والفردانية وعن صراعات المجتمع المتناقضة في تقلباتها . بيد أن تلك المفارقة ما تلبث أن تنمحي حينما تصرخين قائلة : «ما أكتبه ليس تعبيراً عن حالة خاصة ، وإنما هو تعبير عن «وضع إرهابي» له صفة الشمول فيما يتعلق بالشرط النسائي . وقد أكون أقدر من غيري على التعبير وعلى التحرك ، وعلى التحدي وعلى المواجهة ، ولكنني كامرأة تحترف الكتابة لا أستطيع أن أغمض عيني عن معاناة ملايين النساء المعتقلات في سجون شهريار» (ص . 107) .

إنّ إحساسك بما يسود عالمنا العربي من تظلم يفتك بالمرأة وينتهك حقوقها ، ووقوفك على مختلف واجهات المقاومة متصدية لهذا الحيف ، وداعية إلى العدل والإنصاف جعلك تستحقين الحضور ، ضمن قلة محصورة العدد من نساء العالم ، في مؤتمر بكين بدعوى خاصة وجهها لك الأمين العام للأمم المتحدة ، كما وجهها للسيدات هيلاري كلينتون وحرم الرئيس الفرنسي جاك شيراك ورئيسة جمهورية إيسلندا وإلى السيدة الأولى لأوغندا . ولا نستبعد أن يكون وجودك بين هذه النخبة من السيدات كان ذا طابع خاص ومتميز ، ذلك أن لا أحد يستطيع أن يقف دون أن يتسرب إليه الشك في مدى مصداقية الشعور الفعلي بمعاناة النساء المحرومات في

العالم وقضايا حقوقهن لدى بعض هؤلاء المحظوظات اللواتي هيئ لكل واحدة منهن متكأ في صدارة المؤتمر. إنّ لجرثومة السياسة من البراعة ما تستطيع به أن تجعل الليل نهاراً، والنهار ليلاً، ويبقى الصدق مع الذات والإخلاص للمشاعر الإنسانية، في هذا الحقل كغيره من حقوق الدفاع عن حقوق الإنسان عموماً، من الخصال التي يندر توفرها في العديد ممن تفرش لهم البسط لتبوء أعلى مقاعد المنصات في مختلف الهيآت والمنظمات عبر العالم، وتتهافت على نقل صورهم كاميرات الصحف والمجلات والتلفزات. أما أنت، وشهادتي هذه لله وحده لأنني لمست ذلك فيك مباشرة، فإنك منزهة عن مثل هذه السيناريوهات، لأنك امرأة المعاناة، معاناة هموم الإنسان وهموم النساء بصفة خاصة، لا تألين جهداً للدفاع عنهن ولا تتصامين عن سماع نداء المستصرخات منهن، وتهبين بكل ثقلك لتحلين مشاكلهن، وما أمر المطربة التي تدخلت لرفع الحيف عنها لدى التلفزيون والإذاعة بسر. ولم تكن وقفتك إلى جانبها تحيزاً أو حمية اتجاه الفن، ولكن استجابة لنداء ضميرك الذي يحفزه على الصداح بالحق اقتناع بضرورة رفع المظالم عن كل الضحايا، فنانين كانوا أم كتاباً أم محسنين أم مجرد أناس من بسطاء القوم.

إنّ ما تعاني منه المرأة في عالمنا العربي يعود بالأساس إلى «الحجز

التاريخي» الذي يتحكم في بنيات المجتمع العربي والى الاستسلام للتقاليد البالية المتوارثة في تنشئة كل من الفتى والفتاة، وقواعد السلوك التي تفرض على الأنثى، منذ حداثة سنها، الآمرة بخنوعها للذكر مهما كانت سنه وعلاقته بها، والاكتفاء بهز الرأس تعبيراً عن موافقتها وطاعتها لكل أوامره، وكأنها جهاز طبي لقياس ضغط الدم، عليها أن تعكس ذبذبات مزاجه، ويلزمها أن تتكيف مع تقلباته تطبيقاً لتعليمات مبادئ التربية التي تلقتها، إن في مشرق البلاد العربية أم مغربها، فكما تقولين: «حين كنا فتيات صغيرات علمونا أن قواعد السلوك والحشمة تفرض أن يتكلم الرجل وحده، وتكتفي المرأة بالموافقة وهز الرأس، كما علمونا أنه عندما «يغني الرجل» فإن على المرأة أن «تطرب» بالإكراه» (ص. 137). إنّ تلك التقاليد هي نفسها التي تخول الذكر كل الامتيازات على حساب الأنثى، من ثمة ظلت نظرة الرجل إلى المرأة ومعاملته لها، قريباً ومسؤولاً، «وفية» لجمودها في منطقة السلب رغم ما حققته العديد من النساء من تفوق في شتى الميادين. وكان الأمر طبيعياً، بالنسبة إليه، أن تسير الأمور بالشكل الذي يرتضيه هو، ما دام عقله الباطن يختزن ثوابت لا تتزحزح، ومسلمات غير قابلة للنقاش تنبني عليها جميع تصرفاته. فالتمركز على ذاته، كواحد أحد، يجعله يرى في المرأة، من جميع المواقع، خادمة له سيداً، ومنفذة

لأوامره رجلاً ، فقط لأنه رجل ، وملزمة بالوقوف عند الحدود التي يسطرها لها . لا حق لها في الرفض أو الحوار ، وينحصر وجودها في تنفيذ ما يراد منها وبها . يكفي أن يجيل المرء بصره في أرجاء الوطن العربي ليرى ما يجري ويتأمل ما فيه من أحداث وما يتخبط فيه من مشاكل وصراعات نتيجة هذا المنطق الغبي الذي يجعل المجتمع يدور حول نفسه في حلقة مفرغة ، ويعرقل مسيرته بتعطيل طاقات نسائية هامة ، وكفاءات علياً بمنعها من المشاركة في تحمل المسؤوليات السياسية وتبوء مناصب اتخاذ القرار في إصرار على تهميشها وتثبيط عزيمتها . لقد حرص جل الرجال وحتى المثقفين منهم على الاحتفاظ بهذه النظرة التنقيصية والإحباطية إزاءها ، تقولين : «بما أن الرجل تاريخياً هو الذي يملك سلطة القرار ومفاتيح الحكم والمؤسسات ، فمن الطبيعي أن يعتبر دخول المرأة إلى مجال عمله وسلطته نوعاً من المنافسة ، وكل منافس ، بصورة عامة ، غير مرغوب فيه ، واستناداً إلى هذا الواقع الذي يلعب فيه الرجل دور المشروع والمنفذ ، فإنّ المرأة ، أي امرأة ، لا يمكنها أن تؤدي أي دور إداري أو سياسي أو علمي أو ثقافي إلاّ إذا كانت ترتكز على رجل يقف وراءها ، ويكون مؤمناً بقدراتها الذهنية والعلمية . . .» (ص . 118) .

والحقيقية أن عدداً من النساء ذوات الكفاءات اللواتي تمكّن من

العمل ضمن إطار عال في الدولة قليل جداً قياسياً بما يتوافر من طاقات نسائية كفأة، وحتى اللواتي خولت لهن مناصب سامية لم يتوصلن إليها إلا بمساندة هيأة سياسية أو لمحسوبية أو لحظ، وقليلاً ما يتم ذلك لإنصاف بعض المسؤولين، إذ مما يؤسف له كما تقولين: «إنّ قلة رجالنا تستطيع أن تتغلب على عقدة الرجل الحاكم، وتقبل أن تتخلى للابنة أو الزوجة أو الشقيقة عن الامتيازات التاريخية» (ص. 119). هكذا تظل المرأة، إضافة إلى ما تعانيه من الرجل داخل أسرتها، تنوء تحت قوى محاصرة، تقف دون فسح المجال لها للإسهام في بناء المجتمع، كما تضيفين قائلة بصدد رصد بعض الصعوبات الخارجية التي تعترض عمل المرأة: «... وصعوبة اختراق جدران الدولة التي هي، شئنا أم أبينا، دولة الرجل وتحكم على طريقة الشركات المحدودة الأسهم (...) لصعوبة التشكيل البنيوي للمجتمع الذي لا يزال يعتبر خروج المرأة من دارها للمشاركة في بناء المجتمع نوعاً من الخروج عن التقاليد» (ص. 119). كل ذلك يزيد في تمديد تعطيل دورها الذي تعاني منه منذ الأزل، تبقى محاصرة، وتظل طاقاتها محدودة «كل ما تستطيع أن تخطط له هو قائمة الطعام وألوان أثوابها وأحذيتها، حتى اختيار أسماء أولادها لا تستطيع أن تقرره وحدها» (ص. 121). هكذا قد يسير الحصار بعيداً فلا تعطى الحق لاختيار أسماء أولادها، ويظل

القرار النهائي في كل شيء بيد الرجل.

كم أنت صائبة، أيتها المفكرة الواعية، في تحديدك للشهوات الثلاث التي تذل أعناق الرجال: «شهوة السلطة وشهوة المال، واشتهاء النساء» (ص. 76).

إنّ شهوة السلطة تقود الرجال، في بلادنا العربية، لأن يحتكروا وحدهم المسرح السياسي والاقتصادي والثقافي ويؤدون وحدهم جميع الأدوار فوق المسرح، ويضعون وحدهم خطط التنمية. فهم الذين يرسمون استراتيجية المستقبل، ويمسكون بمفاتيح السياسة والمال والإدارة؛ «لا صوت يعلو على صوت الرجل، إنه المغني الوحيد في أوبرا الحياة العربية، وكل النساء كورس» (ص. 137). وتحت المسرح تتخمر العفونات!.

لا أحد يشك في أن الأوضاع المتدهورة التي يشكو منها الجسم العربي تعود إلى هذا الإقصاء المتعمد للمرأة والتعطيل الإرادي لقدراتها، الشيء الذي يتجلى بوضوح في استفحال أمراضه بكل الميادين المجتمعية والسياسية والاقتصادية والثقافية... إنّ الإصرار على إبقاء دار لقمان على حالها، وعلى إقصاء العنصر النسوي من المساهمة في خطط التنمية المعتمدة في البرامج التشريعية والتنفيذية سيطيل، بكل تأكيد، سباحة عالمنا العربي في بحر متلاطم الأمواج، كثير التقلبات، فلا منقذ من الغرق ولا تحقيق لأي تقدم ونماء إلاّ

بالتغلب على هذا الحيف وفسح المجال لدخول المرأة إلى معركة النضال ضد التخلف، وممارسة دورها في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتقبل الرجل لإسهامها ومشاركتها في مختلف الأعمال والوظائف بما فيها السياسية. لن يتأتى هذا، حسب تحليلك للأوضاع، إلاّ بمراجعة الموروث الثقافي وتجاوز السلبي من تقاليدنا، وذلك أولاً بتغيير منطق الرجل، وثانياً بتغيير منطق المجتمع، وثالثاً بتغيير منطق الدولة. ولن يتم تغيير منطق الرجل إلاّ بتحريره من سجن الزنزانة المظلمة القديمة التي ما يزال حبيساً فيها، زنزانة عصر الحريم، فإلى اليوم لا يرى في المرأة سوى ما يرضي رغباته الجنسية وفحولته الحيوانية. ورغم مظاهر العصرنة التي يتبدى فيها فإنّه يصر على تهميشها ضارباً بعرض الحائط كفاءاتها في ميادين يزداد حرصه على تملكها وحده. فهل عجزت الثقافة والشواهد العلمية العليا عن أن تجعل من الرجل الشرقي الحاصل عليها، إنساناً سوياً وتنتشله من ظلاميه عصر الاسترقاق؟. قد يكون!. ولا أخالفك الرأي فيما ترينه، أيتها السيدة الفاضلة، في أن عصر الحريم ما يزال حياً في عقلنا الباطن كما تؤكدين ذلك قائلة: «ورغم أن بعض ديوك القبيلة لا يزالون يتبجحون بالتقدمية والعصرنة والتحضر . . . فإنهم يرتعشون غضباً لسماعهم عن نجاح أية دجاجة في أي فن» (ص. 90). لم تفلح الثقافة ولا التحضر في علاج جمهور كبير من

رجالاتها من أدواء عقدة شهريار في تنكيله بشهرزاد، وقتله لها قتلاً متجدّداً بطلوع فجر كل يوم. إنهم رغم انتمائهم إلى عالم الثقافة والفكر التقدمي، ظلوا حبيسي آراء مختلفة ورجعية في نظرتهم إلى المرأة واستغلالها وتعدادها من حساب سقط المتاع الذي يشترى ويباع، حسب النظرة الأرسطية. ولا أتردد، شخصياً، في أن أصنفهم في شريحة أنسب مسمياتها «أشباه المثقفين». إن تذمرك أيتها الشاعرة، من هذه الشريحة وآلامك لنفاقها وخداعها ومعاملة رجالاتها للمرأة عموماً، ومواقفهم من النساء المثقفات خصوصاً، قوي جداً يتجلى في أساك وسخريتك من جهالتهم الجهلاء:

«أمثقف
ويقول في وأد النساء؟
فأية شفافية هذي
وأي مثقفين؟
أمثقف
ويريد أن يقي حبيبته بسرداب السنين؟
أتقدمي في كتابته؟
آمنت أنك سيد المتعصبين!
ما كان يخطر لي بأنك جاهلي

من غلاة الجاهلين
فكرت أنك طبعة أخرى
ولكن وجدتك
طبعة عادية كالآخرين» .

(انظر ديوان «فتافيت امرأة»)

أكيد أن هناك ثلة من الرجال تسمو بنفسها عن الإقامة في سجن هؤلاء ، إذ ليس كل الرجال شراً مطلقاً كما أن ليست جميع النساء خيراً مطلقاً . فلا بد من استعمال ميزان العقل في الحكم على تصرف كل منهما إزاء الآخر ومعاملته له . هكذا حينما تبنت الشاعرة سعاد الصباح قضية المرأة العربية وجعلت من قلمها لسان حالها يفضح ، شعراً ونثراً ، الإجرام الذي يمارس في حقها ، ينقل معاناتها ومآسيها ويبث أحزانها وعذاباتها ، لم تكن في معركتها ومرافعاتها تلك ترى في الرجل العربي العدو المطلق الذي تجب إبادته وإنما ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، ترغبه في مراجعة سلوكه وتحرير نفسه من عقدة التفوق التي شد وثاقها موروثنا الثقافي والتقاليد والأعراف البالية . إنها لا تخفي حبها له وإيمانها بأن الحياة لا تستقيم إلا بتكامل الطرفين وتبادلهما الحب والوئام في قشيب أثواب السعادة والتفاهم والاحترام . إنه رأي سديد وموقف نبيل ورصين ، يبين عما تتحلين

به من خلق عظيم وسلوك حضاري رفيع. ولا غرابة في ذلك ما دمت قد رأيت نور الوجود في حضن أسرة ترفل في أسمى مراتب الجاه والآداب وحسن الخلق، وسهرت على تنشئتك تنشئة حسنة ورعايتك وتثقيفك بما هيأ لك، إضافة إلى اللباقة والظرف والهبات المتميزة التي خصك الله بها، ظروفاً ملائمةً وجيدة لتكوني ما أنت عليه من السمو والرفعة.

أكيد، كما قلت ذلك أنت نفسك مما أشرنا إليه سابقاً، أن فضل زوجك المرحوم الشيخ عبد الله المبارك عليك كبير، حيث تعلمت الكثير من مجالسه ولم تحرمي في رفقته من أية حرية تمنيتها، وكان مساندك ومشجعك وعرابك، لكنني لا أتردد في أن أؤكد أن الفضل يعود أساساً لك أنت، سعاد الصباح، التي استطعت بحدة ذكائك أن تقولبي مفهوم الحرية برهافة حس تستجيب لزئبقية أحوال مجتمع يتجاذبه التشبث بما هو سلبي وبالي من تقاليد وأعراف قديمة في موروثنا الثقافي، والانفتاح على معطيات مستحدثة تمليها الحضارة المعاصرة، فأمكنك بذلك أن تعي حق الوعي أبعاد الحرية وحدودها، أولا حريتك أنت الأميرة والزوجة والأم والشاعرة المثقفة والمفكرة المناضلة، وثانياً حرية الانسان عموماً، وحرية المرأة على وجه الخصوص. أدركت أن الحرية فضاءات متنوعة، تتقلص وتتسع طبقاً لما يستدعيه تأقلم مبادئها الثابتة العامة مع مناخات

المجتمع المختلفة والمتقلبة بتقلب ظروف الحياة وموازين الوضع السياسي والاقتصادي المحلي والجهوي والدولي . إنّ المفكر الحق هو الذي يتعامل مع المفاهيم ببالغ الحيطة والحذر ، ويزن دقائقها بعقلانية وواقعية ، ولا ينساق مع ركام الشعارات المملولة التي تفرغ من فحواها العميق الذي يضمن تفاعلها وتقولبها مع عادات المجتمع وطقوسه وشعائره الدينية ، إما بالانغلاق في سلبيات الموروث الثقافي التي تعوق دون التنقيب والتفتح على مستجدات العصر ، وإما بالانبهار بكل جديد مستحدث على حساب ما يشكل الهوية . إن ما لك ، سعاد المفكرة ، من رصانة وقوة تفكير ويقظة ووعي قمينة بكل تشجيع ومساندة ممن يسكن قلبك ، زوجك ومعلمك . وبهذا الصدد أستسمحك لأتساءل فأقول : كم عدد النساء العربيات وحتى غير العربيات يضاهينك مستوى ثقافياً وتفكيراً ووعياً، يخولهن ذلك التشجيع والمساندة ؟ . وكم عدد الرجال ، أزواجاً وآباءاً وإخواناً في عالمنا العربي عموماً في مستوى الشيخ عبد الله المبارك ، رحمه الله ، أخلاقاً وفكراً وسمو نفس؟ . إنّ قلة محصورة العدد من الأسر العربية هي التي تحظى بما تتميز به أسرتك ، المحروسة بحفظ الله ، من تفتح وقدرة على مواكبة مستلزمات المعاصرة مع التشبث بتعاليم ديننا الاسلامي الحنيف وآدابه السامية ، والحفاظ على ما في موروثنا الثقافي من جميل العادات والأعراف

والسلوكات، ونبذ ما فيه مما يخالف المنطق ويعوق التقدم والنماء.

شكل هذا الرصيد الهام الذي تمتلكينه، تنشئة وثقافة وموهبة، أرضية صلبة رصها عمق إحساسك بمعاناة المرأة العربية ومكنك من تحدي الصعاب والانتصار على الرياح والأعاصير والإقلاع إلى فضاءات الحرية الشاسعة ومحيطاتها، متوقفة بالعديد من المطارات والمحيطات عبر أقطار العالم بمختلف القارات، صارخة بالدعوة إلى تحرير المرأة ومنادية في جل نشاطاتك الثقافية وقصائدك الشعرية وكتاباتك النثرية رفع الحجر عنها: حجر الجهل وحجر قمع الرجل واستبداده وظلمه. غايتك استرجاع المرأة لحقوقها المهضومة والخروج بالمجتمع من التخلف الذي يعاني منه، تقولين: «إنني أريد أن أفك هذا «الحجر التاريخي» عن عقل المرأة، لأن بقاء المرأة في «الكرنتينا» أو في مستشفى المعاقين سيجعل المجتمع كله معاقاً» (ص. 123).

هكذا انضاف صوتك إلى أصوات المنافحين، رجالاً ونساء، عن حريتها، وعلا صوتاً متميزاً يزن الأمور بموازين التبصر والحكمة، يحدد نبراته مفهوم الحرية لديك، شاعرة ومفكرة، تعي الحجم الحقيقي للحرية المسؤولة، وتأخذ بعين الاعتبار مساحة وحدود مجال ممارساتها وخصوصيات الأطراف المتعاملة في حيزها. لقد حرصت كل الحرص في مرافعاتك من أجل حرية المرأة على

تحديد نوع الحرية التي تطالبين بها، مما يتناسب وبيئتنا العربية والإسلامية، والتفريق بينها وبين النماذج الغربية المستوردة، وبين الحرية والفوضى أو التسيب. إن الحرية كما ترينها وتعيشينها مسؤولية ليست تسيباً، انتصاراً على القيود لا ثورة على كل الحدود. إنها تناغم منسجم بين الذات والروح التي تسكنها، وإنعاش لشعبيات القصبة الهوائية كيما تؤدي الرئتان وظيفتهما لأكسجنة مجموع أعضاء الجسم. انها، كذلك، جسر الكرامة التي أرادها الله لبني آدم، رجالاً ونساء، تقولين: «عندما أطالب بفتح باب سجن النساء فلكي تتمكن السجينات من استنشاق بعض الهواء، ورؤية لون السماء الحقيقي، واستعادة اعتبارهن ككائنات بشرية لها كرامتها، ولها قيمتها الانسانية. ولما كانت الحرية مسؤولية فمن الطبيعي أن يكون استعمال هذه الحرية استعمالاً مسؤولاً، لا استعمالاً عبثياً أو فوضوياً» (ص. 123).

من هذا المنطلق ومن مبادئ عقيدتك الدينية تؤكدين أن الحرية التي تطالبين بها للمرأة العربية المسلمة هي الحرية التي يجب أن تراعي التقاليد وتعاليم الإسلام الذي ضمن لها حقوقاً سلبها منها المجتمع في فترة انحطاطه، فخص الرجل نفسه بامتيازات لم ينزل بها سلطان سماوي: «إنني لا أقول إن المرأة يجب أن تأخذ الحرية التي لا نؤمن بها، لا نريد لها أن تتحرر من مجتمعها ومن تقاليدها

وقيمتها ودينها الاسلامي الحنيف ، بل أن تتمسك بهذا الدين ، فهو الذي أعطاها الحقوق العظيمة ، بينما نحن نتمسك بالقشور ولا نعطيها الدور الحقيقي الذي أقره لها هذا الدين» (ص . 15) .

إنّ مفهومك لحرية المرأة العربية يختلف عن مفهومها لدى بعض النماذج الأوروبية ، خصوصاً الإباحية المتطرفة منها ، لاختلاف جذور مجتمعنا العربي الثقافية ومكوناته وقيمه عن جذور وبنية المجتمع الغربي ، تضيفن قائلة : «إنني لا أؤمن بالتسيب والفلتان . . . ولا بالنقل عن نموذج الحرية الأوروبية ، فللمجتمع الأوروبي جذوره وميراثه ومكوناته ، وللمجتمع العربي جذوره وميراثه ومكوناته .

إنّ الحرية التي أطالب بها للمرأة هي الحرية التي تسمح لها بأن تختار دون أن يختار أحد عنها ، وأن تقرر دون أن يقرر أحد عنها ، ألا تكون هناك حراسة على أفكارها وأحلامها وتطلعاتها المستقبلية» (ص . 123) .

كما حرصت في دفاعك عن حقوقها على تحديد نوعية العلاقة بين حرية الرجل وحرية المرأة ، فناشدت الرجل المضطهد لها للكف عن استغلال المرأة ومقاسمتها الرغيف الساخن قبل أن يحترق الفرن بما فيه ويصبح هو الجائع العاجز : «الحرية رغيف خبز ساخن يقتسمه الرجل والمرأة معاً . . . وليس من المعقول أن ينصرف صاحب المخبز بكل الخبز ، ويترك لزوجته الفتات ، وإذا لم يفهم صاحب المخبز ،

أن نظام السخرة قد انتهى ، وأن العاملات في المخبز لهن نصيب من الإنتاج فسوف يأتي يوم يجدون فيه صاحب المخبز محترقاً داخل فرنه» . (ص . 123) .

إن مرافعاتك من أجل المرأة انضافت صوتاً يزن الأمور بميزان القسط ، لا يرافع لربح القضية ضد الرجل ولكن ليوقظ وعيه فيستبين بأنّ مصلحته ومصلحة المجتمع تكمن في فك الحصار عن المرأة وتغيير نظرته ومعاملته لها وإعطائها الاعتبار الذي تستحقه كإنسانة لها كرامتها . وخطابك في هذه المرافعات لا يتوجه إلى جميع الرجال ، وإنما للذين تسيطر عليهم عقلية التسلط على المرأة والاستئثار دونها بكل المزايا ، فتعاني هي من تظلمهم ويعانون ، هم أنفسهم ، من عقد التفوق والاستبداد والحجر المتوارثة . إن علاج الوضع ، كما ترين ، يتعلق بالرجل أكثر مما يتعلق بالمرأة وموقوف على مدى استعداده لعلاج نفسه ورغبته في تغيير عقليته . إن حرية المرأة وتطورها يظل رهيناً بتحرر الرجل ، فعليه أن يفهم ذلك ويقتنع به ويفسح المجال للمرأة لتساهم مساهمة فعالة في إدارة شؤون المجتمع والعمل على تنميته ، تقولين : «إن القضية ليست تحرير المرأة فقط ، لا بد أن يتحرر الرجل قبل ذلك لكي تتحرر المرأة . لا بد أن يتنازل عن امتيازاته التاريخية حتى تستطيع المرأة أن تشاركه المقعد (. . .). فالحياة ليست شركة محدودة الأسهم وخاصة للرجال

فقط. لا بد أن تساهم فيها المرأة التي هي الأم والأخت والزوجة والبنت (. . .) على الرجل أن يتنازل عن الامتيازات غير الحقيقية التي أخذها بالعضلات وأن يتحرر من الأفكار غير النابعة من ديننا الحنيف، بل جاءت خلال الحكم التركي للدول العربية، وهو الحكم الذي أوجد عصر الحريم وما يعتبر الفترة المظلمة في تاريخ المنطقة» (ص. 15).

ومتى تمّ ذلك استقامت الأمور بصورة تلقائية، وإذا ما تمادى الرجل في تعنته وظل مغلقاً في كبرياء الذكورة وموغلاً في الرجعية والتعصب، لن يتسنّى للمجتمع أي نماء وستظل دار لقمان على حالها، ويبقى الجميع يدور في منعرجات مغلقة، كما يدور القردة في المتاهات المسدودة.

وتحرصين، كذلك، في مرافعاتك من أجل المرأة على أن تدير وجهها إليها عاملة على توعيتها بحقوقها وواجباتها، فتناجيها «بصوت مرتفع» مناجاة حميمية، وتقدم لها آراء ونصائح تمهد لها الطريق لممارسة الكفاح، وتساعدها على الخروج من التخبط في البريق المعمي للشعارات المنمقة، إلى نور المسالك الواضحة المستقيمة المؤدية، حتماً، إلى ربح الرهان وتحقيق آمالها وطموحاتها النبيلة، منطلقة في ذلك من ممارساتها وتجاربها الفعلية ومما استخلصته من استطلاعاتها المباشرة وتحليلها لأوضاع المرأة في مختلف الأقطار

العربية . إن نسبة مشاركة النساء في بلادنا العربية كقوة فاعلة في المجال السياسي وفي ميادين التنمية المجتمعة تظل ضعيفة جداً ، وهي وإن ارتفعت نسبياً من قطر لآخر لا تزيد على أن تكون مؤشراً على أن الهم النسائي العام يبقى واحداً في جميع إنحاء وطننا العربي ، كما يبقى الحيف الذي يمارس في حقها أمراً مشاعاً وداءاً ، مستفحلاً .

تتوجّه للمرأة بالنصح وتلزمها بمطالب تتوفر فيها هي شخصياً وتجسد فيها القدوة . لا تلقي بمطالبها جزافاً في فضاء المثاليات ، ولكن تنطلق مما يمكن للمرأة أن تحققه وتتحلى به كي تكون في مستوى النضال والمطالبة بحقوقها ودخولها حلبة العمل المرغوب فيه . فكما رأينا سابقاً ، منذ حداثة سنها كان لها شغف بالتعلم وحب القراءة ، ولم تجتذبها حياة الدلال والإمارة ، فانساقت إلى الكد والجد والانغمار في بحر العلم والمعرفة ، ولم يفارقها ذلكم الشغف ، إن لم نقل صوفية الوجد الثقافي والمعرفي والنضالي ، وفي أية مرحلة من مراحل حياتها ، بل بذلت أقصى طاقاتها للمواءمة بينها وبين ما تقتضيه ظرفيه كل مرحلة من مسؤوليات والتزامات ، في توتر دائم على غاية واحدة : تسليح نفسها بما يلزم لممارسة الرسالة التي آلت على نفسها أن تتحملها لخدمة الإنسان والدفاع عن حقوقه بصفة عامة وعن حقوق المرأة بصفة خاصة . هكذا

كانت إحدى المحطات الأساسية، في حياة الشيخة الأصيلة المحتد والشاعرة الرقيقة الموهوبة، والمفكرة المناضلة والقديرة المختصة في الاقتصاد والاستشارة في مجالاته والتنظير لأحواله وتقلباته محطة السفر في فضاءات المعرفة والارتشاف من ينابيع العلم، كاسرة بذلك المقولة التي تدعي أن المرأة كائن «بنصف عقل» (ص. 84)، فشكل ذلك الوثيقة الأم في ملف مرافعتك الذي جاء مكتملاً بما يجب من مستندات ومرتباً حسب منهجية محكمة، تبصر النساء بما لهن وما عليهن، وتقدم للرجال البرهان على فاسد معتقداتهم وآرائهم حول المرأة. فبدءاً ترين أنه إذا كان ذكور القبيلة قد أطلقوا شائعة «المرأة كائن بنصف عقل» وروجوا لها بكل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، فعلى المرأة أن تنهج سبل العلم لتؤكد قدراتها وتكون أهلاً للندية مع الرجل في مطالبها، وهذا يقتضي منها أن تتحلى بسلوكات تجعل منها امرأة صالحة، تراعي تهذيب أخلاقها واحترام نفسها ليحترمها الآخرون وذلك بتجنب التصرفات المتدنية إلى مستوى الأنوثة الحيوانية التي تلقي بها في متاهة المظاهر الخداعة والعهارة، ونهج طريق الجد والاستقامة، وممارسة دورها الأسري والمجتمعي بما يجب من الوعي. على المرأة أن «تعلن الثورة المضادة» للمقولة الشائعة وتعمل على مقاومتها بالأبحاث والدراسات العلمية «لا بالأمشاط ومبارد الأظافر...

والأزياء الباريسية (. . .) عليها أن تخرج من حالة الاستسلام والرضى والقناعة بالقسمة والنصيب، وتقوم بثورتها الخاصة» (ص. 84، 85).

يستقي هذا النداء روحه وركائزه من إيمان الأميرة الاستثنائية بأن كل إنسان بوسعه، متى استعمل إرادته، أن يغير واقعه. دليلها على ذلك سقوط الاستعمار السياسي في البلاد العربية بعد قرون طويلة استفحل خلالها ظلمه واستبزازه لخيراتها. وإنّ أملها لكبير في سقوط الاستعمار الجديد الذي ما يزال وجدان المرأة وعقلها يرزحان تحت نيره.

المرأة الخليجية: مطالب وإنجازات
كانت تشكل عصب الثبات في الأرض وبناء الأسرة وإدارة الأمر الاقتصادي لها

ترغب سعاد الصباح المرأة في «أن تكون في الصفوف الأمامية، وأن تجابه القضايا، لا أن تجابه المرايا، أن تكون بطلة في مسرح الحياة، لا أن تكون «كومبارساً» (ص. 15). تريد أن تراها في قاطرة قيادة المسيرة جنباً إلى جنب مع الرجل تقود قطار الحياة كما يقوده الرجل وليست دولاباً إضافياً تسد به الثغرات. تطالبها أن تضع لمختلف نشاطاتها، خصوصاً السياسية، برامج تحدد آليات نضالها وتقوي جهودها داخل الجمعيات والهيئات، النسائية منها وغير النسائية، مفندة بذلك الادعاءات التي ترمي مطالبها السياسية بالانغلاق في شعار فضفاض: «الحقوق السياسية للمرأة» دون برنامج سياسي مكتمل، مكتفية بترديده من شرفات بيتها بعيداً عن كل مشاركة فعالة في برامج التغيير التي تخطط لها الحركات السياسية المناضلة.

تدعو سعاد المرأة الخليجية، بصفة خاصة، لأن تتحرر من خلخال الرفه الذي قيد رجليها وأشل فكرها فأضحت لا ترى أبعد

من أرنبة أنفها الذي اشتم «عطر» النفط ، فارتاح لعبيره ، و لم تعد تفكر أو تعره أي اهتمام للاسهام في تنمية مجتمعها ، فانخرطت بذلك في نادي الرجال الذين أعمى الرخاء النفطي بصيرتهم وأقعدهم على أرائك وثيرة ، كل همهم الاستهلاك المفرط ، ولا تفكير لهم في غد بلدانهم ولا تنميتها ، تقول : «إنّ مشكلة المرأة الخليجية ، وربما مشكلة الرجل الخليجي أيضاً ، أنها عرفت البحبوحة وأمطار النفط وسهولة الحياة الاستهلاكية ، بحيث صارت تعيش حاضرها فقط دون أن تفكر في المستقبل ، فلم تنظر أمامها ، و لم تعد تتطلع إلى يمينها أو يسارها ، معتبرة أن الأرض ستظل حبلى بالذهب الأسود ، والنخيل سيعطي الرطب . . . والبحر سيعطي اللؤلؤ . . .» (ص . 121) .

إن عمق أسى الإنسانة الخليجية المفكرة لهذا الواقع الذي يعكس النظرة الكسولة المسترخية التي أبعدت المرأة الخليجية عن قضايا الوطن الكبرى وحبستها في دائرة الفردية وعبادة الذات المغلقة ، وإخلاصها الود لها وغيرتها عليها وآمالها في أن تراها تسمو في مجتمعها ، هو ما يدفعها لأن تنتقد سلوكها بحدة وتنبهها إلى أخطائها وترغبها في أن تصلح أحوالها وتفتح عينيها على الواقع المعيش وتخطط لمستقبلها بشكل أفضل ، تقول : «المطلوب من المرأة الخليجية أن تخرج من زجاجة الصمغ التي علقت أقدامها

بها . . . وتكون لها رؤية مستقبلية وطموحات ثقافية وعلمية لأن الحياة ليست ركضاً وراء السراب أو وراء غمامة نفطية سريعة التبخر» (ص . 121) .

تجد سعاد لمواطنتها بعض العذر حيث ترى أن دورها «الباهت» ، سواء في التنمية المجتمعية أم في الثقافة ، يعزى إلى الواقع المعيش ، «فلقد جرفت الحياة الاقتصادية والمادية في الكويت كل شيء في طريقها وأكلت الأخضر واليابس و لم تترك للقلب الإنساني فرصة لينبض» (ص . 136) ، وأسلمته إلى جمود لا يقل عنه جمود ما تعاني منه الثقافة في عصرنا ، جمود تعم إسقاطاته السلبية الرجل والمرأة على السواء ، تقول : «إننّا نعيش العصر الجليدي في الثقافة ، وهذا العصر الجليدي قد غطى بصقيعه الرجل كما غطى المرأة ، وجعل من الخليج «سوبر ماركت» كبيراً ، يبيع كل أنواع الأطعمة ، ما عدا طعام الروح ، وإذا تجاوزنا بعض الأصوات الفردية التي تنطلق من هنا وهناك فإن الأفق الثقافي مغلق» . (ص . 136) .

قد تبدو نظرة سعاد الصباح إلى مواطنتها الخليجية متشائمة أكثر من اللزوم ، والواقع أن الأمر ليس كذلك ما دامت تعترف لها بنجاحات كبيرة حققتها ، تشيد بها وتعدد عواملها . لقد استطاعت المرأة الكويتية المثقفة اختراق جدران المجتمع الإسمنتية لتثبت وجودها وتفرض احترامها على الآخرين من خلال احترام

نفسها والإتقان في عملها . فبفضل خروجها إلى ملاعب الشمس ، وسلوكها طريق العلم أمكنها أن تثبت نجاحها في مختلف مجالات العمل التي دخلتها ، وتعلن عن جدارتها بالمشاركة في الحياة العامة على تعدد مناحيها . يتصدر عوامل هذا التوفيق الذي حالفها في مهامها الحديثة :

- إنّ المرأة في تاريخ الكويت «كانت تشكل عصب الثبات في الأرض وبناء الأسرة وإدارة الأمر الاقتصادي لها» (ص . 28) .
- إنّ أهم المراكز التي تبوأها ، قبل أن ترقى اليوم إلى وظائف ومسؤوليات هامة في المجتمع ، «كانت في أمومتها أولاً ، وفي دورها الاقتصادي والاجتماعي في الزمن الذي سبق ظهور النفط» (ص . 28) إن قسوة الحياة التي عانت منها الكويت ، قبل الطفرة النفطية ، كانت تجعل الرجل يضطر لأن يغيب أسابيع وشهوراً عن البيت طلباً للرزق ، فتتحمل المرأة مسؤوليات الأسرة والسهر على تربية الأبناء ورعايتهم وسد حاجياتهم .
- تشبثها بدينها الإسلامي وتعاليمه وآدابه وأخلاقه السامية .
- إيمانها بالدور الذي يجب أن تلعبه لتنمية بلدها وإخلاصها في أدائه ، فلم يكن : «دخولها الحياة العملية نوعاً من التبرج ، ولكنه بهدف المشاركة في بناء المجتمع العصري القائم على تعاليم الدين الحنيف» . هكذا استطاعت المرأة الكويتية إثبات نجاحها ،

بالإسهام في وضع حجر في بناء صرح المجتمع في كل مجالات العمل التي تقلدتها، كما كانت دائماً العمود الفقري للأسرة» (ص. 122).

إنّ كبر نفس سعاد الصباح جعلها تتعب ولا تقنع بما حققته اليوم بعض النساء المثقفات، من ثمة نراها تشدد لهجة العتاب على بعض الخليجيات لتهاونهن وركونهن إلى الكسل وانسياقهن مع رفه النفط ونعيم ثرواته منسلخات من كل التقاليد العريقة الجيدة التي عرفتها الأسرة الكويتية.

مهما تكن الإحباطات، سواء المتأتية من نسيج المرأة ذاتها أم التي تشكل البنيات المناوئة لها في مختلف المجتمعات والأقطار العربية، ومهما تكن النجاحات التي حققتها بعض النساء العربيات فإن طموح سعاد الصباح يسير بعيداً، وتود أن ترى المرأة العربية عموماً تتبوأ أعلى المراتب ثقافة وعلماً ومكانة وإسهاماً في تنمية مجتمعها وإدارة شؤونه العليا، لا تريدها «مشيأة»، يختزل وجودها ليكون جمالاً «دولته قصيرة» كما يرى ذلك جان جاك روسو. ففي «عقل المرأة الجمال المتجدد، وفي جمال روحها الربيع الدائم»، يكفي أن ينصفها المجتمع لتنساب قدراتها وعطاءاتها بحرية وفاعلية، فهي كما تقول: «جدول الماء الذي يستطيع إطفاء الحريق الذي يلتهب فيه العالم اليوم، وغصن الزيتون الأخضر الذي بوسعه أن

يعيد السلام إلى هذا الكوكب المتفجر الذي تعصف به الحروب شرقاً وغرباً» (ص. 85).

تلك لقطات من مشهد مرافعة سعاد الصباح من أجل المرأة دفاعاً عن حقوقها وتوعية لها بواجباتها، وهي كما لاحظنا مرافعة محام ماهر، دقيقة الخطوات، واضحة الهدف، لا تتوارى، في الحديث عن عواطف المرأة وأحساساتها ومطالبها ورغباتها وما هي مطالبة به، وراء الألفاظ والكلمات. إنها وإن خصت «فتافيت المرأة» بديوان لا تكرس ضعفها إزاء الرجل، حيث تؤكد أن صلابته قياساً بصلابتها واهية، فهو أسهل من المرأة تكسراً، وأكثر قابلية للتفتت، بينما المرأة وإن كانت لها فتافيتها إلا أنها صلبة، والتاريخ مليء بالأمثلة، «إن امرأة واحدة خلعت ملك بريطانيا عن الحكم. وكيلوباترا أشعلت حرب القيصرين» (ص. 105). أين صلابة الرجل، إذن، من صلابة المرأة وهو الذي يذل عنقه شهوة لها ولهثاً وراء إشباع رغبته من أنوثتها.

إن سعاد الصباح ذات السمو النفسي، المتمنعة عن كل حصار تعيش عملياً كل أبعاد الحرية، كما تراها من ذلك، مثلاً، أنها اختارت التحجب وتعتبر ارتداء الحجاب في مجتمعات اليوم، إضافة إلى الوازع الديني، يجسد أحد أوجه ممارسة المرأة لحريتها، ومظهراً من مظاهر تملكها لأمرها إزاء مختلف التيارات المتواجدة في

المجتمع، وتعبيراً عن قناعتها وعن إرادتها الشخصية، تقول: «إنه يخلق لدى صاحبته راحة نفس تحتاجها وارتداؤه شكل من أشكال التعبير عن حرية المرأة» (ص. 93).

ومن ذلك، أيضاً، اختيارها لممارسة عملها اليومي فضاء جغرافيا ممتداً لا حدود له على مستوييه العمودي والأفقي، فلقد تربع مكتبها للاستشارات الاقتصادية وإدارة الأعمال آخر أدراج أعلى عمارة في الكويت، ترافق فيه فضاء السماء الرحب، ويمتد بصرها إلى آفاق شاسعة حيث تتفاعل جميع المستويات بعقلانية وانضباط، تعبر عن ذلك قائلة: «أعشق رؤية السماء من أقرب نقطة إليها وأعشق رؤية المدى في أوسع آفاقه، لا أحب الأماكن المحاصرة» (ص. 123).

سكنك، منذ حداثة سنك، أيتها الإنسانة الطليقة، هاجس الإطاحة بالحواجز التي تقلص مجال الحرية، فانطلقت رحلتك الحياتية عبر الآفاق الممتدة جادة في البحث عن الجزيرة التي لا سواحل لها لتقيم فيها «المرأة التي هي، أيضاً بلا سواحل»، المرأة التي هي أنت، وعبر مرآة غرفة نومك تحققت طموحاتك وانتصب المركب الذي سيبحر بك إلى حيث لا سواحل ولا مرافئ، إلى جزيرة ليست هي جزيرة الوقواق التي تتحدث عنها الأساطير، جزيرة يعز العثور عليها، ولا توجد بوصلة تؤشر على اتجاهها، فأنت

وحدك العالمة بأسرارها والعارفة لمسالكها والخبيرة بتقنيات المركب الذي ينتظرك ليوصلك إليها . ألست القائلة : «أرى عبر مرآة غرفة نومي مركباً ينتظرني ليأخذني إلى جزيرة ما لها من سواحل اسمها الحرية ؟ » .

وليس للحرية مذاق أو طعم لديك إلا حينما يتمتع بها جميع أبناء البشرية بما يجب من عدل وإنصاف ،أيتها المرأة الاستثنائية التي تطلبين من المرأة المثقفة ، في مرافعتك هذه ، بأن تمارس دورها الأساسي في تغيير الأوضاع الجائرة لإعادة التوازن بين كفتي المجتمع ، الرجل والمرأة ، والارتقاء بالأمة العربية إلى المكانة اللائقة بها في كوكبة الحضارة المعاصرة ، لأنها وحدها القمينة بأن تقوم بهذا الدور .

إنك لتجسدين بكامل الاستحقاق أسمى النماذج النسائية التي مارست بالفعل هذا التغيير ، وقد بدأت نتائجه تبدو واضحة للعيان . فلتدومي قوية متألقة في سماء النساء العربيات وفي سماء نساء العالم أجمع ، مرافعة لقضاياهن ، ومدافعة عن حريتهن وحقوقهن المشروعة في الحياة .

يبلغ نبلك مداه حين نرى مرافعاتك من أجل المرأة لم تشغلك أو تستحوذ على كل اهتماماتك دون أن تعيري منها قسطاً لما يزرء تحته الإنسان عموماً من ظلم وما يعانيه من آلام القهر والاستبداد

فوجدناك تتحملين عبئاً آخر في الدفاع عن حقوق كل المستضعفين لا فرق بين رجالهم ونسائهم، بين كبارهم وصغارهم، اتخذت من كل الطبقات أصدقاء ومنحت صداقتك للعديدين وعانيت من خيانة بعضهم، وكان رد فعلك يسجل قمة السمو الأخلاقي كما سنرى في إطلالة هذا السجل ـ الشهادة على بعض مواقفك ونشاطاتك في هذا المجال.

المرافعة الثانية :

من أجل حقوق الإنسان

«رصيدي في الدنيا هم الأصدقاء . . .

صديقي الإنسان هو غايتي . . .

وأنا مستعدة أن أعطي ضوء عيني من أجله ،

بصرف النظر عن جنسه ولونه ولغته»

الغدر ليس طبيعة بشرية، إنه سلوك أعوج شان جميع مظاهر
السلوك البشعة
كشف لي المال آخر ورقة تين تستر أجساد من يخونون صداقاتهم

جعلت سعاد من صديقها الإنسان غايتها وعنوانها الدائم فصدقته القول والفعل، لا تميز في اختيار أصدقائها بين جنس الذكور وجنس الإناث، أساس سمات الصداقة عندها هو «الصدق»، قاعدة وأعمدة وهيكلاً وأثاثاً، ذلك أن الصدق يعادي جموح المزايدة في الإطراء ويحدد حجم العلاقة بين الصديقين في غايتها النبيلة دون شطط أو انتهازية، بل أكثر من ذلك، أنه يجعل الصداقة الحق تتخطى الفوارق الطبقية بينهما. هكذا تلقي الأميرة الأبية النفس بكرسي الإمارة بعيداً لتجالس صديقها مجالسة الند للند مهما كانت طبقته المجتمعية، فأول شروط الصداقة الصدق، وتعاف نفسها الانصياع مع الثناء المجاني الذي يتجاوز حدوده، تقول: «أنا لا أريد صديقاً يحرق لي البخور إطراءاً، إذا كنت أستحق كلمة الثناء أقبلها، فإذا تجاوزت حدودها عافتها نفسي، ثانيها: ألا تكون غايتها أكبر من الصداقة،وأكثر شططاً، ثالثها، أن يعاملني

الصديق كصديقة إنسانة فلا يصنع لي مكانة عالية، ولا يتصل بي عبر المراسم» (ص. 119)، ان الصديق الحق هو صديق الشدة وكل ما توده منه هو ما تضيفه قائلة: «أن يتذكرني الأصدقاء لحظة الحزن وليس في ساعات الفرحة، وأن يكونوا معي في وجه الإعصار لا خلفي» (ص. 119).

حين رسمت سعاد لصداقاتها هذه المحجة البيضاء استطاعت أن تشكل باقات متميزة من الأصدقاء في الوطن العربي وعبر العالم أجمع. ترتاح إليهم وتعتز بصداقتهم، تقول: «لي أصدقاء كثيرون من قاع المدينة، وآخرون في القمة مروراً بمن عرفتهم وتربيت معهم وتعلمت معهم وعلى أيديهم... رصيدي الكبير في هذه الدنيا هم الأصدقاء... كما أنا ثرية بهم ومعتزة بدخولي عالمهم» (ص. 122). حديثها عنهم مفعم بما يليق من شيم الحفاظ على الود والاعتبار. يبدو ذلك في تقييمها لوزن بعضهم الفكري أو الأدبي أو السياسي أو المجتمعي، سواء منهم الذين كانت لها فرص اللقاء بهم ومجالستهم، أو الذين ارتبطت صلتها بهم عن طريق القراءة لهم أو عنهم. وما يعجبك في إبداء رأيها عن بعض الشخصيات المرموقة هو ذلك السمو الخلقي في التقييم الموضوعي البعيد عن التحيز بالمبالغة في الإطراء والمداهنة أو الحيف بالجنوح إلى التنقيص من قيمهم، معترفة بـ: «أن آراء الناس في الناس لا ترضي كل الناس»

لذا تؤكد قائلة «أنا لا أحب إغضاب أحد وفي نفس الوقت أريد أن أكون موضوعية» (ص. 101) . تراها تفكر طويلاً قبل أن تتلفظ بكلمة في حق من طلب منها مستجوبها الصحفي المصري مفيد فوزي رأيها فيهم، مثل مارجريت تاتشر وسوزان مبارك والملكة نور وهيلاري كلينتون وبنازير بوتو وأم كلثوم وغادة السمان وفيروز وفؤاد شهاب وجمال عبد الناصر وأنور السادات والملك محمد الخامس والبابا بولس السادس وعبد الحليم حافظ ووديع الصافي وصالح جودت وأحمد رامي ومحمود درويش وفاروق جويدة وصلاح عبد الصبور وبلند الحيدري وعبد الرحمن الشرقاوي وأحمد عبد المعطي وليلى عسيران وليلى بعلبكي وماجدة الرومي.

بالفعل، جاء قاموس ألفاظها في الحديث عنهم منتقى، ينم عن طيبة نفس وعفة لسان وصدق في التعامل: «إنسانة»، «مثقفة مع بعض التسلط»، «متوازن»، «طاهر اليد»، «عف اللسان»، «عاقل»، «ذكي»، «طموح»، «شجاع»، «مغامر»، «رصانة ورجاجة عقل»، «طهارة»، «قداسة»، «حنان»، «صلابة»، «أفق غير محدود»، «جرأة نادرة»، «حسم»، «جبل في صوت»، «أنشودة المطر في الشعر المصري»، «رومانسي»، «قيثارة الحلم»، «نكهة إنسانية»، «وفية لبيئتها وثقافتها ولقيمها» . . .

وأسمح لنفسي بأن أنقل هنا حديثك، أيتها الصديقة المثالية، عن

ثلاث نساء من عوالم متباينة كنموذج لصدق التعبير وبعد النظر، فمثلاً: عن هجرة غادة السمان من بيروت إلى مدن العالم الأوروبي وعما إذا كانت قد هاجرت معها كلماتها كمعان تقولين: «ما زالت غادة مسكونة ببيروت... أقرأ لها كل أسبوع. العالم كله لم يأخذها من الروشة، لا تعجب، بيروت مدينة المدائن التي هجرتها أو تهاجر منها هي، تختبئ في حقائب القلب (...) إنها جبل نسج خيوطه من جراح قلبه ويحفر كلماته بالسكين» (ص. 122).

وتركت لديك مقابلتك لمارجريت تاتشر، المرأة الحديدية، انطباعاً يتلخص في أنها امرأة تتميز «بصلابة، وأفق غير محدود، وجرأة نادرة وحسم، وأنها بالتأكيد تعرف ما تريد، تنظر إلى البعيد وتستقرئ التاريخ، تحكم بما تؤمن أنه حق ولا تجامل أو تضعف، ولا تهون الصعب، حازمة في قرارها وتعرف أبعاده وتتحمل أخطاره بمسؤولية واقتدار كاملين، ورغم ذلك فهي ست بيت من الطراز الأول» (ص. 124).

ولا تخفين إعجابك الكبير بسيمون دي بوفوار في علاقتها بجان بول سارتر، حيث ترين أن أنبل ما في تلك العلاقة التي كانت تربطهما هو «الوفاء والتفاهم والرؤية المشتركة للحياة والكون والفن، لقد أعطيا بعضهما القدرة على البقاء أحياء، وأحسب هذه العلاقة الكبيرة المعلنة مسؤولة عن إطالة عمرها، فضلاً عن إثراء

التجربة الثقافية التي شكلت منعطفاً فلسفياً في التاريخ البشري» (ص. 124)

هكذا نراك، بنزاهة وعمق تأمل تبدين أراءك المتزنة، بعيداً عن مجانية الأحكام المسبقة وعن المجازفة في القول. ولعمري تلك أسمى شيم الصدق في التعامل مع الآخر.

فجأة، تبرز في سماء الصداقة الصافي كما عاشته سعاد الصديقة الصادقة، والأمينة في أقوالها وأفعالها سحابة سوداء فتصاب بصدمة عنيفة وخيبة مريرة، يوم علا في أفق صداقاتها غدر بعض الأصدقاء، أصدقاء الفكر وأصدقاء الزعامة والقيادة السياسية، وبدا أمر الغدر واضحاً وضوح ضوء الشمس في واضحة النهار، رغم إصرارها على تكذيب الواقع وتنزيه سلوكاتهم عن تصرف يمس أحد مقدساتها في الحياة: الإخلاص والوفاء للصداقة وللأصدقاء!

لا يخفى على أحد، كما ذكرنا ذلك قبل، الجهود الجبارة والمشرفة التي تبذلها الدكتورة سعاد الصباح لمساندة وتشجيع العديد من المشاريع والأعمال الثقافية التي تتبوأ الطليعة في عالمنا العربي، على مستوى المنتديات الفكرية والمراكز الدراسية والمنظمات والهيئات المحلية والجهورية والعالمية، في ميدان الفكر والدفاع عن حقوق الإنسان، وقد كان لها هي، شخصياً مشروع هام حلمت به زمناً طويلاً ورغبت في تحقيقه إسهاماً منها في المزيد من إشعاع

دور الكويت وطنها في ازدهار الثقافة العربية ، وأخيراً ارتأت إنشاءه في مصر لحبها لها وتطلعها لأن «تسترد مصر مكانتها الثقافية» . فانطلق مشروعها «دار سعاد الصباح للطباعة والنشر» بالقاهرة . ثم نقلت الدار إلى الكويت لأسباب لا داعي للخوض فيها .

لم يمهل الزمان طويلاً سعاد المناضلة من أجل القومية العربية كي تصاب بطعنة أغور جرحاً من الرئيس العراقي صدام حسين ، و لم يخطر لها ببال قط أن هذا «الصديق الموقر» سيتجرأ يوماً فيصدر أوامره لجيوشه لتجتاح الكويت وتغتصب وطنها الحبيب في وحشية تفوق كل تصور . تراكمت الكوابيس والأنواء التي جثمت على صدر الصديقة الوفية وافتقدت القدرة على تصديق ما يجري ، وملأت الغصة أعماقها ، وأضحت المرارة كما تقول : «هي الصديق المخلص ، ومذاق طعم الخنجر الرحيق الذي يملأ الشفاه» . لكن ما كان لقوة الخير أن تنهار أبداً أمام قوة الشر . رأينا المناضلة سعاد ، كما أشرنا إلى ذلك قبل ، تنتصب بكل قواها مشهرة سيفها الشعري وقلمها الصاروخي وعلاقاتها الدولية في معركة استرجاع الوطن وتحريره ، فكانت المقالات التي تتصدر الصحف والقصائد التي اهتزت لها القاعات والمدارج والبرامج الإذاعية والتلفزية التي كان يتشوف لها العديدون ، وتم التحرير وتحقق الانتصار المبهر .

وتمر بضع سنوات على هذه الفاجعة الكبرى ، وتسنح الفرصة

لأحد مستجوبيك ، أيتها المناضلة الوطنية الغيور ، فينبش في أعماقك مثيراً «ألماً عملت على إهماده ، وطعنة حاولت بلسمة جروحها» ، فيسألك عن موقفك من صديق يغدر بك ويخون أمانته ، إذ ذاك حلت لحظة البوح بما اختزنه صدرك من آلام انتصاراً لما كان يتطلبه الوضع من رزانة في التصرف واتخاذ مواقف حاسمة ، وتجيبينه قائلة : «ليس هناك لحظة أشد حزناً على النفس من غدر الصديق ، قد تقبل غدر خصم اختار خصومتك ، ولكن أن يكون الغدار صديقاً لك فتلك هي الكارثة» (ص . 97) . بوح بآلام يعقبه إعلان عن قرار إذ تضيفين : «لقد تعودت أن أمسح اسم من يغدر بي من أوراقي وذكرياتي» يا لنبل الموقف الذي يزيده سمواً إصرارك على تنزيه الطبيعة البشرية من أن يكون الغدر شنشنتها ، وحصر دوافعه في محفزات سلوكية لا أخلاقية ،غالباً ما يكون منطلقها الفعل الفردي الذي يستهدف شخصاً معيناً أو جماعة أو وطناً بكامله . لقد عانيت ما هو كاف لأن يؤصل خبرتك ، تقولين : «لا أحسب الغدر طبيعة بشرية ، إنه سلوك أعوج شأن جميع مظاهر السلوك البشعة ، ولقد عرفته على الصعيد الشخصي وعلى الصعيد الوطني ، وهذا هو أعمقها جرحاً» (ص . 97) . مهما كانت دوافع الغدر يظل غادرك في بؤرة الرفض المطلق ، لا يجد لديك ، أبداً مكاناً في فردوس الأصدقاء الطاهر . لقد بذلت من مالك الخاص كثيراً ،

ولكن النهم والشره من طبيعة بعض النفوس الخسيسة التي تقع في قبضة إغراء المال فينسيها كل القيم التي تتشدق بها من أعلى منابر الثقافة والفكر والزعامة، ويسوقها إلى سلوكات دنيئة تنأى عن أخلاقيات الفكر السليم، وتطيح بأصحابها إلى أسفل سافلين. ذاك ما برهن عنه مفعول عبادة المال والجاه في أخلاق الغادرين. لقد مكنتك تصرفات هؤلاء الغادرين من تبين الحدود الحقيقية بين الأخلاق النبيلة والانصياع لحب المال، وبين الصداقة الحق والغدر المبيت. لخصت ذلك في عبارة أجد فيها من عمق التحليل وروعة التعبير وجمالية الصورة ما يجعلني أخطّها بحروف بارزة خاتمة لانتصار صمودك المتخلق في وجه الخيبة والمرارة التي تسربت إلى قصر صداقاتك، تقولين: «لقد كشف لي المال آخر ورقة تين تستر أجسادهم، فإذا بهم عراة من كل ما كانوا يلبسونه من أقنعة الحضارة والثقافة والأخلاق» (ص. 97). ونهجا لسكة مواقفك الثابتة التي تبنيتها سلوكاً حياتياً كان صدك أبدياً عن تفاهاتهم التي لا تستحق أن يلتفت إليها ولا أن تأخذ من وقتك وتفكيرك ما يبذر طاقاتك في الانشغال بها.

الإنسان غايتي وعنواني الدائم وخياري الوحيد
ولدتُ وفي فمي صرخة حب وحنان للمجتمع وإحساس عنيف
بالمسؤولية تجاه الإنسان أصبحت هيروشيما تتفجر في ضمائرنا

إذا كان يحلو لغيرك من الناس أن يفتخر مردداً «ولدتُ وفي فمي ملعقة من ذهب» اعتزازاً بما تيسر له، بالوراثة والانتماء العائلي، من وسائل الرفه والجاه والمال، فإن ما تفخرين به أنت، ويحق لك ذلك، هو الشعور النبيل الإنساني الذي صاحب صيحة استهلالك للوجود المعلنة عن حبك لأخيك الإنسان ووعيك الصارخ بواجبك نحوه، تقولين: «لقد ولدت وفي فمي صرخة حب وحنان للمجتمع وإحساس عنيف بالمسؤولية تجاه الإنسان (. . .) النضال من أجل حقوق الإنسان وحرياته هي الوجه الآخر للحياة التي أحب ولن أكره» (ص. 22). لم يزدك نعيم الحياة، انتماء عائلياً وفيئة ظل وارف، سوى يقظة ضمير بما يرزأ تحته من ضيق وحرمان وقهر ونهب لحقوقه التي شرعها الله له في الحياة. هكذا تحررت نشاطاتك من قيود الأضواء والشاشات والنخبوية لتتجسد ممارسات نضالية، وتجاوز شعرك الانكفاء على الذات

ومعاناتها الشخصية ليكون صوتاً يعبر عمن لا صوت لهم وشفاها لمن لا شفاه لهم. تجاوزت إحساساتك وممارساتك حدود المكان لتستجيب لتلكم الصرخة التي جعلت هدفك الأسمى من الحياة هو الإنسان، وصاغ ذوبان عناصرها مفهوماً جديداً للعمل النضالي وأسلوباً متميزاً نسيجه مشاعرك النبيلة ونضالك النابع من الهاجس الذي يسكن أعماقك، هاجس المسؤولة اتجاه الآخر، بتسامي عن الموقع الاجتماعي والانتماء العائلي والرصيد المالي، مستهدفة رؤيا جديدة وبعداً أعمق في تعريفك الدقيق للكائن البشري، تعريفاً يتبوأ مكاناً بارزاً بين التعاريف المتداولة له، يرى في الإنسان «الحنين الدائم للخروج من مملكة التراب إلى مملكة الضوء» (ص. 52).
فجاء بحق تعريفاً ينفذ إلى البعد الحقيقي الذي اراده الله من استخلافه الإنسان في الأرض حين حثه، تكريماً له وتمييزاً عن بقية مخلوقاته الأخرى، على الترفع عن الالتصاق بترابها، والتسامي إلى حيث يعم الطهر وصفاء الأرواح وانسجامها. ولا يتسنى ذلك إلا لمن يتحلى بأسمى الفضائل وتمام الإيمان بالخالق، فيحب لأخيه الإنسان ما يحبه لنفسه ويعمل على انتشاله من مخالب القمع والاستغلال ومختلف صيغ الاحتكار والاحتقار، وعلى تمكينه من التمتع بحقوقه الإنسانية كاملة غير منقوصة.

قد يبدو مفارقة صارخة تبني الشيخة المترفة التي رفلت في أثواب

الحرية والترف القشيبة في بيت أبيها ثم في بيت زوجها الشيخ عبد الله المبارك، لقضايا الإنسان المعذب المحروم من أبسط حقوقه، وانشغالها بالتعبير عن مشاعره المخدوشة، وتجنيد جميع إمكاناتها لرد الاعتبار لإنسانيته وتكريس حرمته وحقوقه، بيد أنه سرعان ما تنجلي المفارقة حينما نلمس عن كثب تفاعل مناضلتنا مع واقع عصر آمنت بأنه عصر اختفت فيه الحواجز والحجب وتداخلت هموم الأفراد والجماعات والأمم، وأضحت الهموم الشخصية الخاصة هموماً مشاعة عامة يتقاسم إسقاطاتها الجميع، تقول:

«الهموم الذاتية أو الخصوصية قد انتهى أمرها.. فكل همومنا الخاصة ابتداء من الحب.. وانتهاء بالسياسة هي هموم عامة» (ص. 101)، إنها تقتحم على الجميع حميميتهم وتنفث فيها من سمومها مقادير تظل، على تفاوتها، كافية بأن تزعج راحتهم وتجرفهم جميعاً إلى السباحة في خضم بحر متلاطم الأمواج، لا أحد يذوق فيه طعم الراحة، وأصبح «فنجان القهوة الذي نشربه في الصباح ممزوجاً بدموع البشرية كلها.. وأصبحت قطعة اللحم التي نأكلها مختلطة بلحم الأطفال الجائعين في المخيمات... وأصبحت «هيروشيما» تتفجر في ضمائرنا» (ص. 101).

إن أرقَكِ لهموم الإنسانية وإدراكك لانشغال الشعوب اليوم بقضية حقوق الإنسان ومحوريتها في العلاقات الدولية جعلك

الحرية والترف القشيبة في بيت أبيها ثم في بيت زوجها الشيخ عبد الله المبارك ، لقضايا الإنسان المعذب المحروم من أبسط حقوقه ، وانشغالها بالتعبير عن مشاعره المخدوشة ، وتجنيد جميع إمكاناتها لرد الاعتبار لإنسانيته وتكريس حرمته وحقوقه ، بيد أنه سرعان ما تنجلي المفارقة حينما نلمس عن كثب تفاعل مناضلتنا مع واقع عصر آمنت بأنه عصر اختفت فيه الحواجز والحجب وتداخلت هموم الأفراد والجماعات والأمم، وأضحت الهموم الشخصية الخاصة هموماً مشاعة عامة يتقاسم إسقاطاتها الجميع ، تقول :

«الهموم الذاتية أو الخصوصية قد انتهى أمرها . . فكل همومنا الخاصة ابتداء من الحب . . وانتهاء بالسياسة هي هموم عامة» (ص . 101) ، إنها تقتحم على الجميع حميميتهم وتنفث فيها من سمومها مقادير تظل، على تفاوتها، كافية بأن تزعج راحتهم وتجرفهم جميعاً إلى السباحة في خضم بحر متلاطم الأمواج، لا أحد يذوق فيه طعم الراحة ، وأصبح «فنجان القهوة الذي نشربه في الصباح ممزوجاً بدموع البشرية كلها . . وأصبحت قطعة اللحم التي نأكلها مختلطة بلحم الأطفال الجائعين في المخيمات . . . وأصبحت «هيروشيما» تتفجر في ضمائرنا» (ص . 101) .

إن أرقَكِ لهموم الإنسانية وإدراكك لانشغال الشعوب اليوم بقضية حقوق الإنسان ومحوريتها في العلاقات الدولية جعلك

المكان وتذهب بعيداً إلى أعماق الأعماق، يبلغ جمهورك القارئ والمستمع الرسالة التي تحملتها عن طواعية واختيار، رسالة خدمة كل البشر. لقد جاء شعرك بحق، كما أردت أنت له ذلك حين صرحت قائلة: «اعتبرت نفسي صوت من لا صوت له، في هذه الأمة إن استطعت» (ص. 14)، جاء شعرك وصوتك تعبيراً صادقاً عن معاناتك لمعاناة الآخرين وهمومهم، هموم الفقراء المحرومين ذوي الفاقة والاحتياج، هموم ضحايا الحجر الفكري وتحجيم الحريات، ضحايا الاستبداد السياسي والظلم والتعسف، ضحايا احتكار السلطة والرأي المتفرد الأوحد. لقد شكلت هذه الشرائح البشرية المنبوذة والمضطهدة همك الأكبر، وشغلت حيزاً كبيراً في حياتك الخاصة؛ وما فتئت تنفعلين لذبذباتها انفعال الزئبق لتقلب درجة الحرارة، فتسيل دموعك، دون استئذانك، لخنق الحرية واحتضار الديمقراطية، تقولين: «أبكي كلما شعرت أن إنساناً يسحق حرية إنسان آخر.. وكلما شعرت أن الديمقراطية في بلد ما.. أصحبت تتسول على الرصيف» (ص. 100).

تنتصرين للمظلوم دون ميز عنصري ولا جنسي، تزنين الأمور بالقسطاس فلا تتظلمين على أحد، ولا تقبلين حجر حرية أي إنسان، إذ الحرية مطلب وحق مشترك بين الجميع وضرورة حياتية لهم. «للحرية أولاً، وللحرية ثانياً، وللحرية ثالثاً» تمنحين صوتك

مهما كلفك الأمر (ص. 124) . حلمك الدائم رؤية «إنسان حر . . ووطن عربي حر»، وأمنيتك «هي أن يخرجوا الأمة العربية من الزنزانة وأن يحجزوا لها جناحاً في فندق الحرية» (ص. 55)، إذ بالحرية يستطيع الإنسان أن يخطو خطوات إيجابية نحو التطور والنماء، وأن يحقق أمانيه بالشكل الذي يرتاح إليه مهما كان متميزاً ما دام لا يمس بمصالح الآخرين.

لقد شكلت أبعاد الإنسان في مساره وسيرورته وصيرورته دائرة الضوء في حياتك، تحققين داخلها انفلاتك من «مملكة التراب» لتمارسي الرسالة الإنسانية التي صاغت، منذ النشأة، نسيج اللحم الذي يكسو عظامك وخلايا الدم الذي يجري في عروقك فافترشت «سجادة الإنسانية الخضراء»، تتمددين عليها فوجدت كل راحتك في الاسترخاء فوقها، تسعدين لسعادة الإنسان وتحزنين لحزنه، تقولين: «الإنسان هو هدفي الأسمى وهو دائرة الضوء في حياتي، فعلى سجادة الإنسانية الخضراء أتمدد وأجد نفسي، أقاسم الإنسان دمعته ويردد صوتي صدى ضحكته» (ص. 52)، تفعلين ذلك دون أي حرج أو تناقض بين نضالك المناصر للطبقات الكادحة وبين حياتك كشيخة رزقها الله من أفضاله، لأنك سموت عما يلصق الإنسان بتراب الأرض، مسكناً وأكلاً وترفاً، لترقي إلى أجواء الإنسانية الحق التي أرادها الله درجات كي يبلونا من خلال

تعامل بعضنا مع بعض، وكنت في مستوى الترفع عن سلبيات الطبقية المقيتة والتحكم في مغرياتها لتجعلي من انتسابك الأسري والمجتمعي ومن يُسرك المادي وعطائك الفكري مشروعاً وأدوات للتخفيف عن هموم الآخرين. فتحت قلبك وكل مشاعرك على قضاياهم، ولم يقف شِبَعُك دون الإحساس بجوعهم، ولا حريتك دون التضوع لمعاناتهم من عذاب أصناف مختلف السجون وويلاتها. رائدك فكرك المستنير وقلبك الطيب واعتقادك الجازم بأن «الانتماء لأحزان الناسَ وهمومهم ليس مسألة طبقية ولا يتحكم فيها برنامج حياتك اليومية ولا يلغيها الانتساب إلى اليسر» (ص. 62). هكذا تبدى بفصيح الكلام وسديد الفعل حملك هموم الآخرين منذ فتحت قلبك على الدنيا، مثبتة بذلك أنه ليس ضرورياً أن يجوع المرء حتى يعرف آلام الجياع، ولا أن يسجن ليعرف قيمة الحرية. وتقولبت حياتك في قالب سعادة الناس وأحزانهم، تقولين:

«يحزنني حزن من أحب، يحزنني العجز عن أن أكون يداً لكل من يحتاج، وعينا لكل من يطلب بصراً، تحزنني رؤية عجوز تعبر شارع الحياة دون أن تجد من يأخذ بيدها» (ص. 123).

وإذا كان من البديهي أن تكون لشيخة مثلك أحلام من صنف خاص تنسجها مكانتها المجتمعية وإمكاناتها المادية والمعنوية فإن

أحلامك أنت ، الشيخة التي تعتز بجاه المواطنة الكويتية الإنسانة والشاعرة العربية «هي أحلام المقهورين والمعذبين وحاملي أثقال الظلم ، أحلام كل إنسان يبحث عن حق فلا يصل إليه وعن علم فلا يدركه وعن غد يكاد يضيع وسط ركام المهزومين» (ص. 63) .

صحيح أن أمر الحريات لا يرتبط بالإنسان وحده ، ولا فقط بما لديه من قدرات كي يحقق كل أحلامه بل بما يحالفه من توفيق في تحقيق ما يستطيعه منها . هكذا تبلغ بهجتك قمتها وتغمرك الفرحة حينما ترين «السعادة في حياة وعيون من حولك» (ص. 123) . فتيلة صمودك في ساحة النضال الإخلاص لمبادئك السامية ، لا تثبط قوة عزيتك المحبطات ، تصرين مهما ادلهمت الأجواء على السير نحو النور ، جاعلة من إسعاد الإنسان الغاية القصوى من انخراطك في مختلف المنظمات والمؤسسات العربية والدولية ونشاطك في أحضانها ، مستبدلة بـ«الإنسان في كليته» عنوان إقامتك الذي تسجله الدائرة بوطنك الكويت تحت اسم «قصر الصفاة ، رقم . . .» فالإنسان هو عنوانك الأبدي . فما أسعد الإنسان بك إنسانة حق ، بكل ما تجسده كلمة الإنسانية من معنى . توقفين حياتك على الدفاع عنه والعمل على إسعاده مضحية بكل غال ونفيس من أجل بلوغ هذا الهدف السامي الذي تعلنين عنه بقولك على مسمع من الجميع : «صديقي الإنسان هو غايتي . . . وهو عنواني الدائم ، هو

خياري الوحيد.. وأنا مستعدة أن أعطي ضوء عيني من أجله، بصرف النظر عن جنسه ولونه ولغته» (ص. 121).

للأطفال عموماً، وللطفل العربي خصوصاً مكانة متميزة في قلبك، تألمين لمعاناته المشكلة ألوانها، تألمين لأوضاعه في خضم التحولات المجتمعية والصراعات السياسية والنكبات والانكسارات التي تتخبط فيها الأمة العربية، مما يجندك للدفاع عنه والمطالبة بمزيد من الاهتمام بقضاياه.

ما أنبل خيارك هذا الذي يترفع عن كل ميز! . فطوبى لك برسالتك تلك في الوجود، وطوبى لك بما اذخره الله لك ولأمثالك من نعيم الدنيا والآخرة.

المرافعة الثالثة :

من أجل الطفل العربي

«إنه يفتح عينيه ليجد نفسه منفياً مثل أبويه ،
وضائعاً مثلهما ، وفاقداً لحس الانتماء مثلهما»

الطفل العربي يتيم ومعاق وانطوائي

الجيل الحالي يعاني من التغريب الثقافي وموضة استهلاك الجاهز . . .

يفتقد الحلم بالوحدة العربية

أولادنا ضحايا هذا العصر العربي الرديء

أيتها الأم الحنون ! .

إنك لست أمّاً لأطفالك الأربعة فقط بل كذلك أم لكل الأطفال العرب . تحملين هم جيل اليوم وتألمين لأوضاعه ولظروف تنشئته التي وإن وفرت له الكثير من الحاجيات الحياة حرمته مما يضمن تجذره في بيئته العربية ووعيه بقوميته ويحفزه على الدفاع عنها والحفاظ على مقوماتها . لقد عاش جيلنا نحن عصر الأحلام الكبيرة ، وإن عانى فيه من الفقر الشيء الكثير واستطاع في طفرة الغنى أن يتدرج ويتكيف مع عوامل ومظاهر الرفه ، أما جيل أولادنا فإنه يفتقد تلك الأحلام وفي طليعتها الحلم بالوحدة العربية والنضال العربي المشترك الذي تغذيه الاستماتة من أجل القومية العربية . ولم يستطع أن يتكيف مع بيئته التقليدية ومظاهر الرفه ونمط الحياة

العصرية. يؤلمك أن لا يكون لدى هؤلاء الأولاد مشروع يضمهم أو حلم يجمعهم، بالإضافة إلى ما يهاجمهم من عوامل التغريب الثقافي، الذي تبدو بوادره من خلال نمط السلوك الحياتي اليومي في برامج التدريس ومناهجه بالمدارس والثانويات ومعاملة المعلمين والمربين لهم، وعبر الترويج المبتذل للأفلام في الفيديوهات وما تبثه الإذاعات والقنوات والفضائيات التلفزية. موضتهم ومبتغاهم هو استهلاك الجاهز في الأكل واللباس والزينة من كل ما هو أجنبي، تفضيلاً له على كل ما هو عربي الذي أضحى في نظرهم من عداد الساقط التافه. كم أنت صائبة في تحليلك لهذا الوضع كأم ومربية ذات نظرة بعيدة للأفق الشاسع حين تعزين الأمر إلى أن الأطفال خصوصاً في دول الخليج، فتحوا أعينهم في رفه مغدق دافق، لم يعوا قيمة المال و لم يعانوا الحرمان. إن ظروف الترف التي يعيشها الجيل الذي أتى بعدنا، وجهله بماضيه وما عاناه جيل الآباء من أجل إيصال الأبناء إلى مدارس متقدمة والتكيف مع طرق العيش الحديثة، وكذا افتقاده لثقافة عربية ينام على بساطها.. جميع ذلك يساهم في التغريب الذي يعاني منه، يرسخه إسهام الإعلام المرئي والمكتوب في مختلف منابعه. وطبقاً لما عهدناه فيك، في جميع انتقاداتك وتحليلاتك المختلفة، لم تقفي عند التشخيص بل بادرت، شأن كل خبير، باقتراح بعض الحلول الناجعة لتدارك ما

يمكن تداركه . فلا خروج من هذه الحلقة المفرغة إلا بتطوير أنفسنا ومراجعة إعلامنا العربي كي يصحح الوضع ويدفع بالشباب إلى التمحور حول مشروع يخدم وطنهم ويحد من مد التغريب الذي يستفحل أمره بينهم ،ولن يتم ذلك إلا إذا استطعنا أن نقدم لأولادنا بديلاً ثقافياً وجمالياً وعلمياً وروائياً ومسرحياً وقصصياً يغنيهم عن شراء أفلام الفيديو الأمريكية وقراءة سجلات الجنس والجريمة والخلاعة .

المرافعة الرابعة :

من أجل الكويت

«كل مدائن العالم هي مدني . . .
من أجل الكويت أعمل ولغدها المشرق أبقى
في خندق الكتابة»

السفر ثقافة أخرى وقراءة المدن لا تقل أهمية عن قراءة الكتب
مختبر الفنان هو الحياة واكتشافاته الكبرى عن طريق الرحيل والإقلاع في
بحار الحرية مصر وردة تجري في دورتي الدموية

يقال إن الشاعرة سعاد الصباح كثيرة الأسفار والتنقل من بلد لآخر، فمن النقاد من يتساءل عن مدى تأثير عدم الاستقرار في إنتاجها الشعري، ومن بينهم من ينبهر لانشغالها بأعمال متعددة ومتنوعة الاهتمامات، فمن ممارستها الاستشارة في علم الاقتصاد إلى نشاطاتها ضمن الهيئات والمنظمات العربية والدولية، إضافة إلى إنتاجها الشعري وأبحاثها الفكرية. ولكل تجد هذه المرأة الاستثنائية منطقاً يسعفها على الإقناع، وجواباً يفحم كل متسائل. فتقول: «إنني في وقت السفر لا أنقطع عن الاهتمام بالشأن الثقافي وربما كانت رحلاتي فرصة رائعة للكتابة» (ص. 32)، ذلك أن الشعر لا يحتاج إلى إجازة تفرغ، فالشاعر يكتب قصيدته حينما تحل اللحظة، تضيف: «إن تأثير اهتماماتي الأسرية والاجتماعية والسياسية محدود في أنه يؤدي إلى تأجيل المراجعة والنشر فقط» (ص. 32). إن إقامة سعاد في أكثر من مكان وأسفارها المتوالية لا

تعطل إبداعها ، فالعملية الإبداعية لديها لا تحتاج إلى ثبات ، بل على العكس ، كما تؤكد ذلك : «إن ثبات الإنسان في مكان ما يدخله في طور الاعتياد والروتين ويحوله إلى وتد خيمة . أو عامود كهربائي أو خط من خطوط السكك الحديدية» (ص . 119) . أحب المدن إليها هي المدن التي تجد فيها راحتها ولو كانت صغيرة متواضعة ، وحيث تشعر بإنسانيتها وبسلام مع نفسها ومع الآخرين .

كم أنت محقة أيتها المرأة العاقلة فيما ترين خصوصاً إذا كنا نعلم ما تعانيه المرأة عموماً وسيدات المجتمع خصوصاً من رقابة على مختلف المستويات فلا تتحرك إلا وكل العيون تحصي خطواتها وأعمالها مما قد يضطرها إلى تقليص أنشطتها أو إلغائها ، فلا غرابة أن نراك تقولين :

«أحب المدن التي تحترم صمتي . . وحريتي ، ولا تضع أنفها في شؤوني الشخصية ، وأكره المدن التي تتدخل في قضاياي الصغيرة وتقتحم طمأنينتي ، وتلاحقني في المطعم والمقهى وفي المصعد كأنها مخبر سري» (ص . 138) .

ويبقى السفر في منظورك ثقافة أخرى ، مثله مثل قراءة المدن التي لا تقل أهمية عن قراءة الكتب . وفي بطون تاريخ الشرق والغرب أمثلة حية لمبدعين في مجال الشعر والفن التشكيلي والإنتاج المسرحي عرفوا بكثرة ترحالهم ، تقولين : «أهم نماذج الشعر العربي كتبت

في حالات الارتحال، ولولا أسفار المتنبي ما كان هناك متنبي، ولولا الصعلكة لما كان هناك عروة بن الورد. وارتحالات رامبو وهيمنجواي وشوبان ودالي وبيكاسو وازرا باوند ورافائيل ألبرتي، ويونسكو.. هي التي أعطت العالم هذه الثروة الشعرية واللونية المسرحية الهائلة.. وأغاني (التروبادور) و(الجيتان) و(الهيبيين) أليست هي الأخرى ثمرة الرحيل والمغامرة والحرية؟» (ص. 119).

انطلاقاً من تحليل سعاد الشاعرة لمسار هذه النماذج، ومن تجربتها الشخصية المعيشة يتبيّن أن مادة الفنان المبدع تتوافر له من تجواله، حيث تضيف: «إذا كان العالم الفيزيائي والكيميائي قد يحتاج إلى سنوات من الإقامة في مختبره ليتابع تطور خلية أو فيروس، فإن الفنان مختبره العظيم هو الحياة. واكتشافاته الكبرى تكون عن طريق الرحيل... والإقلاع في بحار الحرية...».

تبدو شاعرتنا، وهي تقدم هذه النماذج وتحلل مساراتها وتبرهن على فعالية الأسفار ودورها في تغذية الفنان وإثراء تجاربه وتوسيع آفاقه، كأنها تود أن تخلص إلى البرهنة على صواب اختيارها لسلوك حياتي يقوم على تنوع مدائن إقامتها بتحدٍّ يجد عناصره في نجاح تجاربها ونجومية عطاءاتها على مختلف الأصعدة، تقول: «.. وما دمت أكتب.. فإن كل مدن العالم هي مدني وكل فنادق العالم هي

بيتي» (ص. 119).

إن لحظة «الانفجار» لا تضرب موعداً لميلاد الشعر ولا تختار مكاناً محدداً تتخذه مهداً له، فمتى حلت «اللحظة» وراودها الشعر عن نفسه أسلمت له الأمر أنى كانت وحيثما وجدت. بل قد تكثر زياراته لها ومراوداته أثناء السفر بشكل يفوق ما تعتاده منه في فترات استقرارها، «إن القراءة والسفر والتعامل مع الإنسان يشكل نبعا لإغناء التجربة والكلمة الشعرية» (ص. 41). وإنك سعاد نموذج حي ينطق بنجاح هذه التجارب الثرية.

على أرض البصرة عبث الريح بضفائري
أحب جنيف لأن هدوءها يسكب في نفسي راحة
المدن الأوربية «مكشرة» دائماً ومقلوبة الوجه دائماً وأنانية في فرحها وحزنها
مصر شجرة حنان تستطيع أن تنام تحتها وأنت مطمئن
في مصر تمشي على سجادة من قلوب الناس وأهدابهم

لا مجال للشك إذن في أن سعاد الصباح هاوية أسفار. قد لا يكون في الأمر تعسفاً إذا نظرنا إلى مزاجها الشعري هذا من زاوية تسير بعيداً في أعماق كينونتها لنجد جذوره في واقع ولادتها خارج أرض الكويت، حيث ولدت معها بذرة التأقلم مع مختلف المناخات والاستفادة من جميع خصوصياتها. لقد ولدت في البصرة وأحبتها حباً كثيراً، ففيها تفتحت براعم حياتها وأينعت مرابع طفولتها، وبها تشدو، تقول: «ولدت في البصرة ولي فيها ذكريات وصديقات، على أرض البصرة عبث الريح بضفائري، على أرض البصرة اختلط اللون الأزرق باللون الأخضر وتعانق الثمر بأشجار النخيل (...). لقد كانت البصرة هي البساط

الأخضر الذي ألتجئ إليه كما يلتجئ كل إنسان لمراعي الطفولة. وطفولتنا هي البحر الذي نسبح فيه وعندما تغرقنا أمواج الحزن نحتمي بها» (ص. 19).

حنين دائم وعشق دفين لا يوازيه، أيتها الإنسانة اللبقة، سوى عشقك لمصر ونيل مصر وسماء مصر. ألست القائلة: «مصر وردة تجري في دورتي الدموية ومن الصعب أن أمنعها من التفتح» (ص. 83). لقد أحببتها طبيعة وأقواماً، واطمأننت لمناخها الجغرافي والإنساني، ذلك أنها بيت ينسي الإنسان في أكثر الأحيان بيته، كما ينسيه شعبها شعبه.

نعلم مدى حبك لجنيف وارتياحك لبحيرتها وطيورها وسكينتها، فهي كما تقولين: «تمثل لي بيتاً كأنه خاص بي، أحب جنيف لأن هدوءها يسكب في نفسي راحة. وحين أتمشى على ضفاف البحيرة أحس أنني في حلم وكأنني أتجول على صهوة غيمة وردية» (ص. 131).

وبالرغم من أن جنيف وطبيعتها الغناء تمثل «بيتاً» لك، ومن أن لندن استطاعت أن تأخذك بين أحضان جامعتها وتشدك للإقامة بها خلال فصول زمانية وأوقات معينة إلى اليوم، فليس لهما في قلبك سوى حيزاً محسوباً. لم يغير ترددك على البلدان الأوربية والإقامة بها فترات طويلة، مزاجك العربي الأصيل وطبيعتك

المنطلقة على السجية والمتفتحة، حتى الأعماق، على الإنسان في تلقائيته وبساطته والمستكينة لفراش الدفء والحنان الذي ترفل فيه المدن العربية وشعوبها وفي طليعتها مصر التي تضيفين في حديثك عنها قائلة: «أهم ما في مصر هو أنها شجرة حنان.. تستطيع أن تنام تحتها وأنت مطمئن. والشعب المصري يجعلك تعيش ليلاً ونهاراً على ضفاف ابتسامة، وهذا نادر في لندن. فالمدن الأوربية «مكشرة» دائماً ومقلوبة الوجه دائماً، وأنانية في فرحها وحزنها. أنت في أوربا تمشي على سجادة من الصقيع وأنت في مصر تمشي على سجادة من قلوب الناس وأهدابهم...» (ص. 83).

أي رابطة بين العاشق والمعشوق أسمى من تلك التي نسجتها مقاعد الدراسة، فلا عجب أن تحتل مصر هذه المكانة في قلبك، فلقد جاء انتسابك إلى جامعة القاهرة سنة 1971م بلسماً لجرح تأخرك عن متابعة دراستك الجامعية، وكان في ذلك كل الخير حيث فتحت لك كلية السياسة والاقتصاد ذراعيها بكامل الترحاب لتحتضنك طالبة متميزة في صف زملاء ما تزالين تحتفظين لهم بحسن الذكرى وخالص الود. ولا عجب أيضاً في أن نراك تسجلين بمداد الفخر اعتزازك بالحقبة التي قضيتها على مقاعد مدارجها وتعتبرينها أجمل حقب العمر، تقولين: «يا الله، كم رائعة هذه الرابطة!. هناك جلست لأول مرة على مقاعد الدراسة

الجامعية واختلطت بزميلات وزملاء وتتلمذت على يد أساتذة كبار. فكيف أنسى هذه الحقبة الأجمل من عمري» (ص. 83).

إنها ذكريات عقود مضت، يتجسد حنينك إليها ووفائك لمصر في حرصك على الحضور والإسهام ما أمكن في الندوات والمؤتمرات وفي النشاطات الفكرية والأدبية التي تشهدها رحابها ولا يقل عن ذلك حرصك على الاتصال بالكلية وزيارة بعض الزملاء والزميلات. جاء عنوان هذا الوفاء اتخاذك بوادر متعددة ومتميزة تكريماً لرواد الجامعة وعطفاً وتشجيعاً للأساتذة المتفوقين المسجلين فيها للحصول على درجة الدكتوراه، فخصّت بعثة هؤلاء الطلبة بعطف مادي ومعنوي، وأنشأتِ مكتبة عبد الله المبارك بكلية السياسة والاقتصاد مجسدة بذلك وفاء مزدوجاً: وفاء لرواد مكتبة الكلية يتجدد باستمرار عبر دورات الزمان، ووفاء للشيخ عبد الله المبارك معلمك الذي سيظل اسمه عنوان تقدير لطلب العلم ورمزَ تشجيع ومساندة للمرأة في مسيرتها العلمية، كما سيظل معلمة للأجيال سيتبدى من خلالها اسم سعاد الصباح محفوراً في عروق التاريخ.

وترى النور بادرة أخرى فذة؛ تأسيسك لـ«دار سعاد الصباح للنشر» في قلب القاهرة، التفاتة أخرى منك لهذه العاصمة المشعة في تاريخ الثقافة العربية. عزز ذلك هباتك السخية لمساندة وتمويل

بعض الأعمال والأنشطة الثقافية، تقدمينها بشتى الصور في منأى عن الدعاية كما هي عادتك في كل المشاريع والأعمال الخيرية النبيلة التي تقومين بها.

إنني بنت الكويت
. . بل مدينتي المفضلة هي الكويت !
. . هي الأرض، هي الأم التي ترضعنا
وهي الخيمة والمعطف والملجأ والثوب الذي يسترنا
حتى القبور سرقوها ولا يعطوننا تأشيرة دخول إلى أرضنا لندفن موتانا

بالرغم مما تحظى به مصر من مكانة كبرى في حياتك، وبالرغم من تعلقك بها كواحدة من الأشياء الحميمية في قصيدة حياتك إن لم تكن تحتل أكثر أبياتها، فإن الكويت تظل وطنك الأول والمعشوق الدفين في الأعماق الذي يسكن سويداء القلب، لا تقاس غيرتك عليه، ولا تزيدك الأيام والأحداث سوى تجذراً في الانتماء إليه والدفاع عن كل حبة رمل فيه.

لقد شكل حبك لوطنك والاستماتة فيه ومن أجله وجود ذاتك الحية الواعية، فلا بلد في الدنيا، مهما طالت إقامتك فيه ومهما توافرت لك به من ظروف للعمل والإبداع، يوازي ارتياحك للإقامة في بلدك الكويت، على عكس ما يقع فيه بعضهم من مغالطات. ولنا في حديث الصحفي المصري مفيد فوزي شهادة

على مدى حبك لبلدك الكويت وتقديسك له، يقول: «.. وفي الإبحار مع الشاعرة رأيت أن أستطلع آراءها في وطنها «الكويت»، وأهمس لكم بسر صغير حين قلت لها في لندن: «لماذا لا نسجل حوارنا الطويل في جنيف مدينتك المفضلة؟»، قالت بغضب وعتاب: «بل مدينتي المفضلة هي الكويت وسوف تسجل حوارك الطويل في الكويت وفي القصر الأبيض» واستطردت تقول: «.. أما جنيف ولندن فهي مرافئ راحة صيفية من حر الكويت الذي تعرفه أنت». (ص. 136).

ببراءة الطفولة وشفافيتها تعبرين بشكل تلقائي وصريح عن حبك لوطنك، تبوئينه المرتبة الأولى في جوابك عن سؤال حول أحب المواضيع التي تودين الحديث عنها في كل لقاء صحفي، فتقولين: «أحب أن أتحدث، ولو ملكت دون انقطاع، عن بلدي، وعن أسرتي وعن مرحلة عمري مع رفيق العمر الذي غاب عن العين والساكن في القلب. أريد أن أتحدث عن الكويت وما يجب علينا جميعاً تجاهها، وما هو ممكن فعله من أجلها» (ص. 39). ثم تستفهمين استفهاماً إنكارياً مؤكدة واجب كل مواطن نحوها فتضيفين: «أليس من حق الكويت علينا أن نعيد سؤال أنفسنا: ماذا أعطينا بدل الغرق في حساب ماذا أخذنا فقط؟» (ص. 39).

لا غرابة في محاسبتك للذات هذه وأنت التي تتغنين بأمومة

الكويت وتقدرين حنان الأم التي تعطي من ذاتها لأبنائها، وعمق السكينة والدفء والستر الذي يسعد به كل مواطن ومقيم في أحضانها. «إنها وردة البحر»، تقولين:

«هذه الأرض التي تدعى الكويت
نحن هذا اللؤلؤ المخبوء في أعماقها (...)
هذه الأرض هي الأم التي ترضعنا
وهي الخيمة... والمعطف.. والملجأ.. والثوب الذي يسترنا».

(انظر ديوان «برقيات عاجلة إلى وطني»)

إن الكويت هي معشوقك الذي يتربع عرش قلبك، لم يغب عن عينيك وقلبك قط، يتميز بحضور ملحوظ في جل قصائدك ودواوينك منذ بدإ رحلتك الشعرية. ولم يقلص هاجس القومية العربية الذي يسكنك والتحامك الكامل بالتربة العربية حبه المتنامي باستمرار في أعماقك، ولا قلل من فخرك واعتزازك بالانتماء إليه. إن حَملك لأحزان العرب وآمالهم وآلامهم، كما سنرى، ما كان ليلغي إصرارك على هويتك الوطنية والاهتمام بقضايا بلدك والتفاعل مع أحواله تفاعلاً يدب في جسدك تياراً قوياً كالرعشة التي تخترق أعصاب العاشق ومشاعره. وها «برقياتك العاجلة»

إليه تنطق.بما يتخلل كل شعيرة فيك من وله به وذوبان في حبه وفخار بأن تكوني نبتته، تطلقينها عالياً: «إنني بنت الكويت».

قد لا أجازف إذا قلت يشتم من تلكم «البرقيات العاجلة» حدسك لأحداث مبيتة ضد الوطن، حدساً لا يخضع لبرهنة ولا لدليل عقلاني بقدر ما ينبعث من عمق حبك له، حب ابنة مشدودة إلى أمها الحنون، تستبق إحساساتها الأحداث. ويصدق الحدس بحلول الكارثة، كارثة الغزو العراقي له، فتكشف عن عمق الجذور التي تربطك بأرضه وسمائه، بجغرافيته وأطلسه، ببحره وبحاراته وأسماكه، بكل حبة رمل في شطآنه وصحاريه، وبكل قطرة ماء في ينابيعه وآباره، بكل ارتعاشة غصن في أشجاره ونخيله وخفقة جناح من أجنحة عصافيره، بكل ما يحفل به تاريخه الحضاري والسياسي من أحداث جسام وتختزنه ذاكرته عن بطولات الأمراء والمشايخ الرحل والبداة وأحلامهم وآمالهم المستقبلية، تكشف كارثة الغزو الهمجي عن كل ما يربطك بشعبة في براءته وسمو نفسه ونبله، عن افتتانك به افتتاناً يملأ القلب والعين والخاطر، افتتاناً اشتد أواره عندما رفع ستار الصرح فجأة وظهر على المسرح بطل المأساة البشعة، وتضاعف وقع الكارثة حينما تبين أن بلطها هو صدام حسين. ويكون للطعنة طعم أمر، لأن حلول المأساة العبثية المخزية صادف وجودك خارج الوطن في معاناة مع عزيز عليك

كان في حالة احتضار . وعندنا أسلمت روحه الأمر لربها ، وجدت نفسك في حالة استجداء لنقل جثة عمك الفقيد العزيز إلى أرض الوطن ودفنها تنفيذاً لما أوصاك به قبل وفاته ، وظللت والجثة في حصار ومعاناة قاسية تداخلت عواملها ، ولم يكن لك من ملجأ سوى التضرّع إلى الخالق ، تقولين : «يوم مات عمي بعد أن سمع نبأ الغزو ، كانت الثالثة صباحاً ، والجثة هامدة ساكنة أمامي مغطاة على السرير بملاءة بيضاء ، عشت الكارثة بكل أبعادها ، اجتياح الوطن وفقد عزيز هو بمثابة والدي ، أين أذهب بالجثة وهو الذي حلفني بكل المقدسات أن يدفن في الكويت . وقفت أصلي في الفجر ، تشاركني دموعي ، دموع حارة موجعة ، لا أملك ، مهما وصفت طعم مرارتها . ساعات مريرة وأنا أنتظر في المستشفى حتى يطلع الصباح . بكيت كثيراً ، بكيت فقد ابني ، بكيت سنة 67 انكسارنا القومي ، بكيت رحيل عبد الناصر ، بكيت عندما شعرت أنه حتى القبور سرقوها ولا يعطوننا تأشيرة دخول إلى أرضنا لندفن موتانا» (ص . 19) .

ما أقسى صروف الدهر حين توغل أنيابها فيجد المرء نفسه محاصراً ظلماً وعدواناً ! .

بلغ انفعالك للحدث الجائر درجة لا تجارى فانطلقت ظبية ولهى دون كبح أو جموح ، تقودك الفطرة والسليقة والفكر والمنطق إلى

ساحة الوغى للجهاد في تغريد مسترسل، تعددين ميزات الكويت الجميلة، كويت الحرية، كويت البطولات والشعراء والمغنين، الكويت التي لم تنل منها مكائد الجار الذي حاصرها وهدم معالمها واحتل منازلها وأسواقها وأحرق آبارها النفطية وأسراب عصافيرها. لقد ظللت صامدة كما ظل الكويتيون جميعهم صامدين. أليسوا أبطال المغامرات، لا تخيفهم مفاجآت البحر ولا زمجرة الرياح؟. لقد اعتادوا العيش داخل الإعصار، ودرايتهم بقلق البحر وأسئلة البحارة سلاحهم القوي لمطاردة كل معتد أثيم. فالكويتيون سلالات بحرية تعرف جيداً أحجام الحيتان وعدد أسنانها وطرق صيدها. فلا داعي للخوف، لقد ولدوا من زبد البحر، والصراع مع أسماك القرش بعض هواياتهم، ومن المعروف أن الأسماك الصغيرة تتناسل بسرعة وتتكاثر وتتجمع أمام العاصفة بسرعة. هكذا بكبير الثقة وكامل اليقين تعلنين عن قدرة الشعب الكويتي، رغم قلة عدده، على رد كيد العدو في نحره والانتصار لوطنه. وبالفعل، رفض الانصياع والخضوع وهب هبة رجل واحد بتمسك وتماسك، كما شهد بذلك العالم أجمع، مجنداً بكل ما يملك، بالكلمة، بالإعلام، بالصمود، بالروح وبالدم في مواجهة الغزو والاحتلال. هذا الارتباط الوجودي بينك وبين الكويت المستعر لهيبه في وجدانك يجد في الشعر شريعته ولسانه، يغذي

إلهامك وموهبتك المطواع ويصنع قيثارة الإنشاد الصارخ في إيقاع متراقص بتناغم وانسجام، بين استحضار معالم التاريخ وميزات الشعب الكويتي وتحديك وتحديه للمهزلة وأبطالها وبث آلامك وأحزانك وشكواك من طعنة أبناء عمومتك، وبين إيمانك الجازم بحلول لحظة الخلاص وانهزام الغزاة وقهر الطاغية. يعلو صوتك مُديناً ومندداً بأعداء المروءة قتلة الكويت، في إصرار على الإشادة برحابة صدر الكويتيين وسمو أخلاقهم وشهامتهم مهما كان عمق طعنات السيوف الصدئة. لقد فضحت مرآة شِعْرك المصقولة خساسة صغار النفوس، محترفي النفاق والخديعة والغدر، وأبانت عن قيمة التسلح بالفضائل والتسامي إلى برزخ العمالقة الكبار ذوي الهمم العالية. إن الصدمة التي ألهبت فتيلة عبقر الشعر لديك وأججت مواهبك إشادة ببلدك الكويت هي نفسها التي جندت قلمك في أبحاث ومقالات دفاعاً عنه وخدمة لقضيته، ناقلة للعالم صوته الجريح، وآلامه ومعاناته بأسلوب حضاري راقٍ يعكس مستواك الأخلاقي والفكري الرفيع، ويقدم طروحاتك الصائبة وبعد نظرك الثاقب في التحليل السياسي، ويؤكد مصداقية مواطنتك الدفينة في الأعماق وقوة تشبثك بمبادئها الأصيلة التي تفتقت بذرة وجودك في منابتها وترعرعت فوق تربتها الخصبة في أحضان بيت آل الصباح العريق المحتد، وأينعت أغصانها وآتت

أكلها مع شريك حياتك ومعلمك الشيخ عبد الله المبارك، تغمده الله بواسع رحمته، فهلل إبداعك وكبّر مقالات على أعمدة الصحف وكتباً ودواوين شعرية.

نفس تلكم الصدمة، صدمة الغزو الغاشم جعلتك الصوت المدافع عن بلدك في العديد من المدارج ومنابر المنتديات، واللسان المحاور لكبار المسؤولين والشخصيات، ماسكة عصى الترحال في سفر صحبة طيور السماء، في سفر مع البرق عبر الأسلاك ومطارات العالم، في سفر مع كل الأشياء التي تعرف التوقيت والأخرى التي لا تخضع له، وسجلت في مختلف المدائن والأقطار حضور الكويت وسيادتها بالحجة والبرهان. نفس الصدمة أسمعت صوت الكويت عبر ما سجله صوتك من أحاديث واستجوابات صحفية، وأقمته من أمسيات شعرية. فكان نضالك نضالات، وكنت، بحفظ الله ورعايته، ألف رجل في امرأة، وبرهنت بما لا يحتاج إلى مزيد أنك حقاً الشيخة التي لم تكتف بطرح الفساتين المخملية ولا بالعزوف عن رفه النعيم والارتخاء على وثير الأفرشة يوم شققت طريق العلم والثقافة والكفاح المجتمعي والفكري في سن مبكرة، بل أكثر من ذلك ارتديت، لإصابة وطنك أعز حبيب، بذلة الجندي المقاتل، والايمان يغمر قلبك بانتصار الكويت وتحرير ترابها مهما ادلهمت المسالك وحيكت المكائد واشتعلت حرائق الآبار. رائدك

نبل الهدف وعاصمك الثبات في الموقف ورابطة الجأش وما آليت على نفسك من كفاح وصمود فوق أرض الكويت حتى النصر، مستنفرة الأحجار والأشجار والجدران والأنهار والغابات والوديان لتردد مع أهاليها قسم الكفاح:

«بسم الله،
بسم السيف،
بسم الأرض،
بسم الأطفال والتاريخ،
نحن باقون هنا،
الكويتيون باقون هنا».

(انظر ديوان «برقيات عاجلة إلى وطني»)

الجميع يردد القصيدة ـ القسم، الوطنية الرائعة التي تفجرت فواره من أحشائك مؤكدة انتماء الكويتي لوطنه انتماءاً أبدياً، وولاءه له أبد الدهر، فحركت وجدان المواطنين ورددتها الجماهير في مسيراتها النضالية. جاءت مواقفك تبدي بوضوح قوة شخصيتك وعقلانيتك ورزانتك في تملك زمام الصدمة، وتحكمك في تفعيل ردود الفعل وتوجيهها مؤكدة بأن لا الدبابة تصلح لأن تكون مفاوضاً في التاريخ بل هي أسوؤه، ولا قوة المعدن يمكنها أن تنتصر

على قوة البصيرة والعقل، ولا الصواريخ التي تطلق إرضاء لغرور فردي أو لنرجسية نظام بوسعها، وإن هدمت مدناً وقرى، أن تربح الحرب أو تهدم تاريخ الشعب وتراثه وتطمس ذاكرته.

هذه الكارثة الهوجاء التي جعلت الشعب الكويتي يخسر خلال نصف ساعة اسمه وبيته وعنوانه وثيابه ونقوده وتاريخه وذاكرته ويتحول، كما تقولين: «إلى شعب من الغجر ليحمل حقائبه وأولاده وأحزانه على كتفيه ويبحث عن خيمة يأوي إليها». هذه الكارثة دفعتك لأن تجندي كل طاقاتك بشكل لا يقبل التجزيء وتظلي دائمة الصمود في خندق القتال، لا يفارقك شعور المقاتل على خطوط الدفاع الأمامية في كل المؤتمرات والمنظمات التي تمثلين فيها وطنك، ولا تدخرين جهداً لحضورها وإسماع صوته إحقاقاً لحقه ورداً لكل ما قد يمس بسمعته وسعياً إلى إفادته منها. فوظفت عضويتك في العديد من الجمعيات والهيئات العربية والدولية، وكانت مصلحة الوطن فوق كل مصلحة شخصية قد يرغب فيها غيرك من الأعضاء، فكما تقولين مؤكدة ذلك: «ليست لي فائدة شخصية من مشاركتي في العديد من المنظمات العالمية الأكاديمية الإنسانية. أما بالنسبة لوطني فأعتقد أنه كان دائماً مفيداً وجود الصوت الوطني في مثل هذه الندوات والمؤتمرات، خاصة بعد الهجمة الشرسة علينا في أعقاب التحرير. لقد وقفت، بفضل الله،

مشهورةً كلمتي بالحق دفاعاً عن بلدي وإدانة لمن اختاروا عداءها وكانت المحصلة الدائمة خيراً لنا والحمد لله» (ص. 28).

هكذا بذلت النفس والنفيس في مواجهة خديعة نظام كنت تعتبرينه الجناح العربي القومي والحلم الواعد للأمة العربية، الجناح الذي يغطي العروبة ويحميها ويدافع عن مستقبلها، فاندفعت أيتها الرومانسية «المعذورة» بكل عواطفك وما ترفلين فيه من طيبة نفس، إن لم نقل «براءة طفولة» تدافعين عنه بينما كان هو يخطط في الظلام لإبادة بلادك وإلغائها. لربما كان دفاعك عن ذلكم النظام لأنك، كما تقولين: «كنت ساذجة لأنني لم أتنبأ بأن السيف الذي غنيته في إحدى قصائدي ذبحني وأسأل دمي. وربما كان عذري أنني شاعرة.. ولست منجمة أو طبيبة نفسانية» (ص. 19). أعتقد أن لا هذا ولا ذاك، لأن رد فعلك جاء ذبحاً له متميزاً، فذبح اللسان أشد إيلاماً من ذبح السنان. إن انكشاف الخديعة، في حد ذاته، ذبح معنوي لمدبرها، ما بالك بما حاكته مشاعرك من قصائد وما كان لك من مواقف ونضالات، وسجله التاريخ من انتصار للبراءة والصدق، واحتفظ به من عبرة لمن يريد أن يعتبر. صحيح أنه لم يكن من السهل عليك استساغة هذا التحول المباغت الذي أرغمك على القفز من جبهة الكفاح مع النظام العراقي إلى جبهة الكفاح ضده، ومن الإشادة بما كان يبديه صدام من تأييد للعروبة إلى فضح ما حاكه

لتقويضها . لكن تفاعل صيغ وأوزان الصدمة في أعماقك تجسد صموداً واعياً يستجيب لما تستلزمه استساغة الواقع والتجاوب مع الأحداث مؤمنة بأن «مواقف الإنسان ليست إسمنتية ، بل مصنوعة من الدم واللحم والأعصاب» (ص . 19) . آتى صمودك وصمود الشعب الكويتي وتوحده وتماسكه في ساعة المحنة أكله بحلول ساعة التحرر ، فكانت الفرحة على قدر الصدمة ، فرحة جعلتك إنساناً آخر طهراً وصفاء ، وعشت لحظة إحساس ملائكي بكل المعايير وفي جميع الأبعاد وكأنك ترين نور الوجود من جديد ، لحظة تطير بالكائن ريشة طاووس في أجواء الأثير البعيدة عن تراب الأرض الذي لطخته جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل . والحقيقة ، كما تقولين ، إنه لا يعاني من حدة الرمح إلا من يطعن به ، «ولا يعرف الشعور بالحرية إلا السجناء والمعتقلون ، ولا يعرف معنى استعادة الوطن سوى من فقدوا أوطانهم ، ولذلك شعرت في الساعات التاريخية الحاسمة عندما حررت الكويت أنني أمتلك الدنيا وأنني ولدت من جديد» (ص . 98) .

بيد أنه ما كان لمعاناتك ومعاناة الشعب الكويتي أن تُمْحى وكأن شيئاً لم يكن ، لقد تركت حرب الخليج بصماتها واضحة استخلص منها الكويتي عبرا : انعدمت ثقته بنظام صدام وأضحى يقظاً دائم الحذر والحيطة ، «وعلمته معنى الانتماء لتراب الوطن» وزحزحته

عن أريكته الوثيرة التي استطاب الجلوس فوقها بما در عليه النفط من ثروة ووفر له من رعياً يه، فأدرك أن «استمرار الحال في الرخاء من المحال» ، وأن عليه أن يرى الأشياء بمنظار أدق وعلى مدى أبعد .

أما أنت سعاد الصباح فلم يحتج محلل ولا ناقد ولا طبيب إلى بذل جهد لتشخيص تأثير الحرب فيك ، لقد كفيت الجميع مؤونة ذلك ، وأطلقتِ صوت معاناتك مُعَبِّراً عن نفسه وبَاثّاً شكواه وأحزانه قائلة :

«كم غيرتني الحرب
يا صديقي
وغيرت طبيعتي
وغيرت أنوثتي . . .»

طبعة جديدة لسعاد «منقحة ومزيدة» ، كنت في احتياج إليها وإلى تذكر قول الشاعر العربي الجاهلي :

وظلم ذوي القربة أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

ما بالك حينما يشتد عضد القريب فيمارس ، في آن واحد ، الظلم والطعنة بالحسام ، كان تأثير المأساة ـ المهزلة فيك قوياً ، انضافت آلامها إلى معاناتك ولعلها كانت أقواها كما تقولين :

«جعلتني «الحرب» أكثر حزناً وأكثر إحباطاً . . واغتالت فرحي الداخلي» (ص . 55) .

ليت ذلك كان أقصى بصماتها فيك ، فلقد امتدت مخالبها الشريرة إلى «ذاكرتك التي أصبحت بعد الغزو مثقوبة» (ص . 91) .

مالك في الأمر حيلة ، إنها ضريبة تؤديها النفوس الأبية الشامخة التي تتعلق همتها بالثريا . وما أعتقد أنك اخترت هذا المسلك بحسابات مدروسة وموزونة ، ولكنك انقدت إليه تلقائياً بالطبيعة ، طبيعتك السمحة الشفافة العالية الهمة ، كما ينطق بذلك لسانك الذي يهوى ترديد بيت المتنبي :

وإذا كانــت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

من أجل الكويت أعمل ولغدها المشرق أبقى في خندق الكتابة
وضع مشروع نهضوي ضرورة لتجديد الهياكل والمؤسسات وبناء
الإنسان الكويتي
تجربة الكويت البرلمانية تستحق الإكبار
حددت دوري باختياري لخدمة الوطن
خدمة الوطن تصلح من كل موقع ولها ألف باب

كانت عيارات سلاحك في ذلكم النضال دفاعاً عن الكويت الحبيبة هو ثقافتك الأصلية الحق التي لا تعترف بالحياد إزاء قضية يفوق حجمها كل النسب . لقد قوت عزيمتك بشحنها الفياضة ولم تدع لليأس ، الذي غالباً ما يشكل الوجه الثاني لكل صدمة ، طريقاً إلى نفسك ، إيماناً منك بأن المثقف الحق لا يمكنه أن يقف في نقطة الوسط بين الحرية والعبودية وكأنه لاعب سرك يجتذب المتفرجين ويثير تهيجهم وتصفيقاتهم.بما يرضي ميولاتهم من ألعاب بهلوانية على حساب كل القيم والمبادئ الثقافية ، فجاءت ردود فعلك إيجابية حكيمة ومتبصرة تعتمد النقد البناء وتقدم مقترحات للإصلاح . لقد استطعت ضبط منظار الرؤية بإحكام لتريْ عن

قرب وبكامل الوضوح وبما يجب من الواقعية صورة الكويت كما هي في أدق ملامحها، وكما يجب أن تكون عليه. تأملت الواقع بمعطياته وأبعاده فخلصت إلى الايمان بضرورة التركيز على الشأن الوطني والعمل على تجديد هياكل ومؤسسات الكويت، وتقويم سلوكات أبنائها ونمط حياتهم المجتمعي والاستهلاكي اللامتوازن وتكييفها مع ما يستلزمه المستقبل من تخطيط وبنيات قوية وثابتة تُعتبر الحرية أساسها وأم قضاياها. إن الحياة العامة في الكويت، كما ترين، تفتقر إلى الحيوية المتولدة عن تنوع النشاطات وتعددها، تقتلها النمطية وضعف الاهتمام بالتثقيف الذاتي والانفتاح على مناحي نشاطات وتجارب الآخرين المتعددة، «إن تثقيف الذات وإدخال التنوع في حياتنا ضرورة للعطاء الجديد» (ص. 41)، دليلك على ذلك تجربتك الشخصية التي تثبت أن القراءة والسفر والتعاون مع الإنسان تشكل نبعاً لإغناء التجربة والكلمة الشعرية عموماً. إن واقع الكويت اللامرضي هذا جعلك تحملين هموماً متنوعة تمس تفاصيل العيش في الكويت على جميع الأصعدة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ودفع بك إلى التفكير في كيفية إقامة مشروع نهضوي، يعمل طبق صيغة مشروعة، على انتشال المخططات القائمة من الغرق في صغائر الأمور وتافهها لبناء الكويت وإنسانها، مشروع يراعي الأولويات ويستخدم أجدى

الوسائل لتحقيق حلمك الكبير، حلم الشاعرة والمواطنة والباحثة في علم الاقتصاد التي استخلصت بتحليلها للواقع «أن الكويت من كل موقع واحدة، الوطن يبحث عن حياة أفضل وقيم أسمى وفعل وجود أعظم، الوطن الذي يبني حلمه الكبير لإنسان يأخذ بالحضارة لا بالقشور، يأخذ بالعلم لا بالوهم، يأخذ بالحرية لا بالكبت، يأخذ بالمحبة الإنسانية لا بالحقد» (ص. 48)، وظللت على جبهة الكفاح تناضلين من أجل الكويت التي تحلمين بها، معلنةً على رؤوس الملأ بكل اعتزاز: «هذه هي الكويت التي بها أحلم ومن أجلها أعمل ولغدها المشرق أبقى في خندق الكتابة» (ص. 48). وهب صوتك في مختلف المحافل يجسد مدى تضحيتك ويترجم عزمك على التحريض لإعادة صياغة الحياة في الكويت صياغة جديدة تنتصر على الرتابة والطفو على السطح وتتسامى عن التزايد والارتكان إلى المنفعة الزائلة، إلى كل ما هو هش وقابل للتفتت. إن الإحساس الذي راودك ساعة تحررها وحده كاف للدلالة على مدى تعلقك بوطنك ورغبتك في صنعه صنعاً متكاملاً.

ما أشد هيامك بالكويت!. هيام لم يسعه شعرك ونثرك فامتد ليكتسح كل شعيرة فيك، كل خلية في جسمك، كل ذبذبة في مشاعرك.

حينما أشرقت شمس التحرير وشمرت الكويت عن ساعديها مستأنفة حياتها البرلمانية لم يكن اختيارها للنهج الديمقراطي شيئاً غريباً بالنسبة إليك، ذلك أن الحكم في الكويت كان، على مدى عصوره، يقوم دائماً على الشورى، بعيداً عن التسلط والقهر، تقولين: «نحمد الله أننا لم نعرف في تاريخنا حياة محكومة بالديكتاتورية أو بالعقلية البوليسية، إذ رغم اختلاف وجهات النظر وتباين الرؤية ظل هناك حد أدنى من التمسك والتماسك، وهو ما تأكد لنا وللعالم في أكثر من حالة، وخاصة في مواجهة الغزو والاحتلال الأبشع» (ص. 27). وتظل تجربة البرلمان، في نظرك، وحدها الكفيلة بأن تمنح الشعوب ما تتمناه. لقد جسد اهتمامك بالشأن الكويتي، وآمالك في قيام مشروع نهضوي حرصك الشديد على حضور جلسات مجلس الأمة الكويتي ما أمكنك ذلك، ومتابعة أعمال هذا المنبر السياسي الحيوي، منبر حرية الرأي والحوار في مختلف مناحي الحياة، تتعرفين من خلاله على ما يدور في وطنك، وعلى ما يتم من تطورات على يد الحكومة أو بمبادرة من المجلس، كما تصرحين بذلك قائلة: «أتابعه لأعرف ما يدور في بلدي، ولأتزود بفهم أوسع وأكثر واقعية بمجريات أمورنا، حتى أتمكن من المشاركة في الرأي، وهو ما أفعله عبر لقاءات مغلقة أو مفتوحة، أو من خلال الصحافة» (ص. 119).

لم تنحصر حصيلة هذا الحضور في إثراء معرفتك ولغتك السياسية بل تجاوزت ذلك فأعطتكِ عناصر أساسية لتقييم التجربة البرلمانية بموضوعية تنبئ عن حسك السياسي المستنير وبعد نظرك وثاقبه لاستشراف ما يستطيع مجلس الأمة، إذا نظم شؤونه بشكل أفضل، أن يسهم به في المشروع النهضوي المنشود، تؤكدين ذلك بقولك: «أقولها وبثقة، إن تجربتنا في الكويت تستحق الإكبار رغم كل ما يشوبها أحياناً من تصادم ومن انتقال بين الموضوعات، بحيث يقدم المهم على الأهم. لقد تحقق بوجود مجلس الأمة مبدأ الرقابة والمتابعة والمشاركة في القرار. وهذه أساسيات إيجابية، تبقي الآمال وهي كبيرة ولا تتحقق إلا في إطار منظم، ويبقى ضرورياً أن نتذكر واقعنا، فلكل منهما حسابه الذي يجب ألا نخطئه في تصورنا للحاضر أو في تطلعنا للمستقبل الأفضل» (ص. 28).

بالرغم من اهتمامك المتزايد بأشغال مجلس الأمة والآمال الكبيرة التي تعلقينها على مسيرته مسيرة أفضل لصالح شؤون الكويت السياسية والاقتصادية والاجتماعية...، لم تدخلي، يوماً ما، حلبة الصراع من أجل عضويته، أو تقلد منصب سياسي هام في الدولة. لقد ظل ذلك آخر همومك، إيماناً منك بأن خدمة الوطن تصلح من كل موقع ولها ألف باب (...)، لم يخطر في بالك تسلم أي منصب سياسي، مؤكدة ذلك بقولك: «لكل منا دوره، وقد

حددت دوري باختيار ، وأنا موفقة ومكتفية به ، شاكرة الله على كل ما أعطاني» (ص. 39) .

بيد أن اختيارك هذا لا يغلق الأبواب أمام ما قد تفرضه الأمور من تغيير في المواقف واستبدال للرأي ، فإذا كنت لا ترغبين حالاً في تقلد منصب حكومي فلعل الغد يطلع بما تضطرين معه للاستجابة إلى نداء الوطن ، تقولين : «ليست هناك محرمات نهائية أو مطلوبات دائمة ، تتحكم بذلك الظروف والحالة النفسية والإيمان بتوافق المنصب مع ما أستطيع تقديمه من خدمة» (ص. 61) .

ألست ابنة الكويت الكبيرة في عالمها ، المؤمنة بذاتها ، والحرة في قرارها ؟ .

المرافعة الخامسة :

من أجل العروبة

«أنا قومية عربية وحدوية . . .

الجنس لا يعفي أحداً من المشاركة في الدفاع

عن البيت العربي والمستقبل العربي

ومقومات وجذور الأمة العربية»

أصبح التاريخ عاراً والحلم العربي غباراً
العروبة مغلوبة على أمرها
الانهيارات تحاصرنا في كل جانب، انهيار قومي، انهيار سياسي، انهيار اقتصادي وانهيار ثقافي

يبقى الحلم القومي العروبي الوحدوي، مهما اشتدت حدة انفعالك للواقع المر، وتأجج الهاجس الوطني بحرارة الإصرار على تحقيق الكويت ـ الحلم يتماوجان في دائرة ذاتك الفاعلة والمنفعلة، تتسع داخلها مساحة كل واحد منهما تارة، وتضيق أخرى بنسب متفاوتة عاكسة الوعي التاريخي بالقومية العربية في صراعها مع الانتماء الوطني الذي يموج في الإحساس بالمصير العربي المشترك والمعاناة الواحدة. صراع ينتصر لخفقان قلبك الذي ينبض لهما، ويمزج بينهما مزجاً أضحى معه هذا التلازم يشكل آلية أساسية لبلوغ الغاية القصوى: اختراق الطريق المسدود المؤدي لا محالة إلى موت مؤجل، والتفاؤل بغد أكثر إشراقاً.

إن الغزو البشع للكويت أثار فيك انفعالات وردود فعل بلغت حداً مدهشاً، حيث تأكد لديك مدى الخذلان والاندحار الذي

خزب جسم العروبة، وكشف عن «آخر مشهد لانهيار سمعة العرب أمام الرأي العالمي، ورسخ وطأة الشرخ لدى الأجيال العربية وكفرانها بأمتها». رغم ذلك ظلت انفعالاتك واعية في حدود المنطق، ولم تمتد إلى الوجدان لتحدث فيه انفصاماً وتقيم طلاقاً بائناً، وقطيعة نهائية بين استماتتك في حب وطنك الكويت وإيمانك العميق بوحدة الأمة العربية ونضالك من أجل تحقيقها. يبدو واضحاً، عبر معاناتك المعيشة، ما بين حبك للكويت والاستماتة من أجلها وبين انتمائك للأمة العربية وإيمانك، بل نضالك من أجل تحقيق وحدتها من تقاطع مطّاطي يمليه الأمل الباسم واليأس أو على الأقل الخيبة المريرة. فبعد ما كان بينهما من تطابق تام إبان ذروة المد القومي العربي خلال عقد الستينات وبداية عقد السبعينات نجد توالي النكسات المفجعة على الأمة العربية التي بلغت عنق الزجاجة مع غزو العراق للكويت يرسخ حجم تقاطع الكتلتين، الوطنية والقومية، بشكل واضح. ولعل وقفة متأملة لبعض ما جاء على لسانك عبر مختلف الاستجوابات تعطي صورة متكاملة لملامح هذا التقاطع في حجمه المتفاعل مع الواقع المؤلم الذي أصبحت تعيشه أمتنا العربية.

عرفت حياتك بكامل حجمها وثقلها كشيخة وسيدة بيت وشاعرة مثقفة ومفكرة مناضلة وسيدة أعمال... محطات كثيرة

ومتنوعة، عمل قطار الحياة على تغييب بعضها بينما ظلت أخرى تشدك إليها ويؤجج تأثيرها وذكرياتها مشاعرك وإحساساتك في تفاعل مع العقل والمنطق إزاء قضية كبرى تسكن مكامن قلبك وتحرك ضميرك وآليات ذاتك لتستقي منها عيارات ما تحتاج إليه من أوكسجين الحياة. إنها المحطة الثابتة في حياتك التي تشكلت أيام عشت في مصر كما تقولين: «في ذروة المد العربي القومي وفي ذروة أيام الزهو والعنفوان، وكانت سنوات الستينات بالنسبة لتشكيلي القومي والثقافي هي أزهى وأخصب سنوات العمر» (ص. 83)، وكان جمال عبد الناصر حامل لواء العروبة «هو الأجمل في تاريخنا والنخلة الأطول في صحرائنا. كان هو الحلم الذي يؤرق في أهدابنا. كان بنا يطير فوق جغرافية المكان» (ص. 82)، وكانت نضالات شعوب الأمة العربية من أجل التحررِ من نير الاستعمار ترمي إلى هدف أسمى: تحقيق الوحدة العربية، حلم الشباب المتجسد في الزعامات والقيادات العربية. تشكل تلك المرحلة «قمة الالتزام القومي والاجتماعي والإنساني»، فكواعية ومثقفة كويتية عربية، تعاني مما يخرب جسد أمتك العربية لما يمليه هذا الانتماء المزدوج، كرست حياتك للدفاع عن الحق والعدالة والحرية، وتجندت لخدمة الإنسان داخل وطنك العربي الكبير، معلنة عن موقفك وأساك لواقعه المر ولما يجري على أرضه من

أحداث ويتخبط فيه من مشاكل، تقولين: «إنني ككويتية عربية مثقفة لا يمكنني أن أقف على هامش حركة التاريخ، ولا يمكنني أن أبقى متفرجة على ما يجري على أرض الوطن العربي الكبير من أحداث. إن الخراب يتراكم من حولنا، والمعركة التي نخوضها ضد التخلف وضد الظلام وضد الاستعماريين القديم والحديث، لا تفرق بين رجل وامرأة. فالجنس لا يعفي أحداً من المشاركة في الدفاع عن البيت العربي، والمستقبل العربي، ومقومات وجذور الأمة العربية» (ص. 84).

عبارات مفعمة بحرارة الهاجس الذي يسكن ذاتك، هاجس العروبة وتحقيق وحدتها التي تفوق كل اعتبار، وتُحَمِّل الجميع، ذكوراً وإناثاً، مسؤولية الدفاع والصمود لقيام «البيت العربي» وبناء مستقبله والسهر على حياة جذوره. ألست المعلنة بكل اعتزاز: «أنا قومية عربية وحدوية»؟ (ص. 84)، ألا تصرحين بآلامك لما آلت إليه أوضاع الأمة العربية وما صارت إليه طموحاتها، قائلة: «في زماننا كانت هناك طموحات قومية وأحلام كبرى وانتصارات شعبية ضد الاستعمار أما أولادنا فلم نورثهم، مع الأسف، سوى الإحباط والهزائم وتفتت الحلم القومي» (ص. 85). لقد تدهورت أوضاع الأمة العربية إلى حد بلغت معه درجة الاحتضار المحقق بعدما عانته، منذ خمسين سنة، من احتضارات قدر لها، ولحسن

الحظ، أن تفلت فيها من مخالب الموت كما عبر عن ذلك جبران خليل جبران بقوله: «نحن أمة تحتضر وتموت، وقد احتضرت ألف مرة و لم تمت». رغم طباعك، أيتها المناضلة، التي تميل إلى التفاؤل ورغم حرصك ككاتبة على ممارسة مسؤولية الكاتب الحق القائمة أساساً على بعث الأمل في النفوس كما تقولين: «إنني متفائلة لأنني كاتبة، والكاتب مسؤول عن تفجير الأمل والفرح في صدر أمته، فلا بد لي أن أخترع فجراً في هذه العتمة وأن أزرع وردة في هذه الأرض المالحة»، (ص. 54). أقول رغم تشبثك بكل بصيص أمل يضيء شعاعه حلكة الحياة، فإنك ترين أن التفاؤل الذي يكون في غير محله هو نوع من الغباء، ولا ترددين في أن تؤيدي جبران في توصيفه للأمة العربية، تقولين: «يوجعني أن أقول إنني مع جبران فيما قاله. وإذا كان جبران قد قال كلمته منذ خمسين سنة فإن كلمته تبدو اليوم أصدق وأشد انطباقاً علينا من أي يوم آخر. إن الانهيارات تحاصرنا في كل جانب، انهيار قومي، انهيار سياسي، انهيار اقتصادي وانهيار ثقافي» (ص. 86). إن الفكر النرجسي العربي هو أساس كوارثنا القومية، لكن اشتداد حلكة الواقع لا تتغلب على قوة تفاؤلك ولا تضعك خارج منظومة منطقك السديد، فنراك تقفين بالمرصاد ضد قوى التشاؤم وبوادر الانهزامية، ولا تدعين لها مسلكاً إلى سكّة النضال الذي تحملين

لواءه تنظيراً وممارسة . تضيفين معقبة : «واعترافنا بواقعنا لا يعني أننا متشائمون أو انهزاميون ولكنه يعني أننا لا نزال قادرين على الرؤية وسط الضباب ، ولا نزال قادرين على التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود» ، ثم تقدمين بعض الاقتراحات الاستعجالية التي يتطلبها اليوم انتشالنا من هذا التردي ، على رأسها مراجعة ذواتنا بممارسة النقد الذاتي كيما نتعرف على حجمنا الطبيعي الذي يجب أن يكون لنا على الخريطة . إن رؤية الإيجابي وحده في واقعنا من خلال النظر في العدسات المكبرة التي لا ترينا سوى فضائلنا وانتصاراتنا وجمال صورتنا لن يجدينا في شيء ولن يكون في صالحنا . وترين كذلك أننا في حاجة ملحة إلى المزيد من استعمال العقل ومن التمعن ببصيرة وبكامل الموضوعية ، لأن «رومانسيتنا لن تنفعنا في شيء . في هذا العالم المسلح بالمعرفة واليقين والأرقام . خطأ كبير أن نستعمل النظارات الوردية في هذا العصر العربي الذي ماتت فيه بساتين الورد» (ص . 86) .

إن آلامك لجراح الأمة العربية وانتكاساتها قوية جداً وعميقة ، وتأثير ذلك فيك حاضر لا يغيب . حاضر في محاضراتك وندواتك ، حاضر في كتاباتك ، حاضر في معظم قصائد دواوينك التي تحمل لواءين لواء المرأة ولواء العروبة ضحيتي قاسم مشترك أعظم : القهر والغلبة على الأمرين تقولين : «المرأة العربية مغلوبة على أمرها . .

والعروبة مغلوبة على أمرها. وهذا التشابه في الحزن والقهر والاستلاب بين معاناة المرأة ومعاناة الوطن (في مفهومه الأوسع، الوطن العربي) هو الذي جعلني أضع القضيتين في ملف واحد أثناء مرافعاتي الشعرية» (ص. 91).

فالمواطن في العالم العربي محاصر لأن كل الأمكنة فيه «موضوعة تحت المراقبة وواقعة في دائرة أجهزة التصنت». لا غرابة إذن، أن يزداد فيه عدد المجانين. إن ما يجري على صعيد المسرح السياسي العربي من كوارث وهزائم وتراجعات سيؤدي لا محالة، حسب منظورك، إلى أن يصبح العالم العربي من المحيط إلى الخليج «عصفورية كبيرة». يقوي آلامك أفول عصر الأحلام الكبيرة التي عاشها جيلنا، «إذ لم يبق من العروبة سوى اسمها». ونستشعر أقصى ألمك ومقاسمتك للاختناق الذي يعاني منه المواطن العربي والذي طوحَ به إلى أن يحيا داخل وطنه في غربة ومعاناة من عذابات منفاه الداخلي، جحيم أنظمة تعَلّب أوكسجين الحياة ولا تجود به أو تبيعه إلا لمن يهللون لديكتاتوريتها ويسجدون عند أقدامها. إن الغربة «تكون أحياناً داخل الإنسان وإن كان في وطنه وبين أهله (. . .)، فالمواطنون العرب الذين حكمت عليهم الظروف أن يعيشوا في ظل أنظمة لا تعترف للإنسان بحرية الحوار أو حرية الصراخ أو حرية الغناء أو حرية البكاء، هؤلاء المواطنون يستطيعون

أن يصفوا لنا ما هو المنفى الداخلي وما هي عذاباته . إن الغربة التي يعاني منها المواطن العربي في هذا الزمان الذي لا تسمية له هي غربة الروح وغربة الفكر . وفي هذا المعنى كلنا غرباء ومطاردون ومستلبون . .» . والأنكى من ذلك هو أن المواطن العربي لم يعد مطروداً من وطنه الذي يحاصره فحسب ، بل أضحت جميع الأعين عبر العالم ترى فيه الوحش المهيب وتتفاداه فلا يجد له مكاناً في الدنيا يسعه ويرتاح فيه ، تقولين : «فلئن كان للعصافير مأوى تعود إليه في آخر الليل ، وللقطار محطة يستريح فيها من تعب النهار ، وللمراكب مرفأ تتجه إليه بعد طول السفر فإن المواطن العربي يشبه سفينة الأشباح التي ترفضها جميع المرافئ وتلعنها جميع البحار» (ص . 109) .

أيتها العربية الغيورة ، لقد عانقت قضايا العروبة ومجدت زعاماتها وأبطالها منذ نعومة أظافرك ، فكانت قضية أية دولة عربية قضيتك . لقد تحمست لقضية الجزائر وساندت المنافحين عنها وكان عمرك يومها لا يتجاوز الرابعة عشرة ، فكتبت عن جميلة بوحريد ورأيت في نضالها وما قدمته مشهداً من مشاهد البطولات ، ورمزاً من رموز تقديس الوطن . وسرح قلمك مع أبطال الكفاح في عديد من الأقطار العربية ، في تونس والمغرب والعراق وفلسطين . . . ، لم يكن يعرف وقتها الفاصل بين القضية الوطنية والقضية القومية ،

فجميع النضالات تصب في نهر واحد، نهر الوحدة العربية، الحلم الأكبر المترقب بعد حصول شعوبنا على استقلالها وسيادتها وظل الحلم يبدو باسم القسمات أحياناً وعبوس الملامح أحياناً أخرى عشت ككل العرب الغيورين أسعد لحظات الحلم الباسم يوم سادس أكتوبر 1973م، لحظة العبور على الجبهتين المصرية والسورية التي سجلت انتصاراً تاريخياً لم تعرف بعده الأمة العربية سوى انتكاسات على يد زعاماتها في شتى أقطارها. ثم أخذ الحلم العروبي الوحدوي من جديد يسير وجهة سرابٍ بلغ مداه بقيعة يوم تجرأت يد الغدر معلنة فعلاً عن انقضاء زمن الحلم وتفتحين عينيك على الواقع المر لأمتنا العربية، بغزو جيوش صدام حسين لبلدك الكويت. حدث يحمل أكثر من معنى. ولعله كان الحد الفاصل بين تقاطع الوطني والقومي، بين الآمال التي كانت أناملها تداعب نبضات قلبك فيتغنى بها ويلفظها شعرك اعتزازاً وفخاراً، تحدياً وصموداً، وبين الخيبة التي توخز أظافرها في أعماق أحاسيسك تجرفها نحو حلكة المصير، ولا تدع للنور قبساً يشفع لتأجيل الإعلان عنها بصوت عالٍ، فلا أمل في الأفق أمام السقوط المحقق وتردي الواقع المعضل الذي تتخبط فيه الأمة العربية في علاقات أقطارها بعضها مع بعض، وفي علاقاتها بالعالم المحيط، واقع الزيف والخيانة والأحلام الضائعة الذي جسده غزو العراق للكويت. لقد

كانت الصدمة فاجعة انسحقت لها أشلاؤك وعظامك، ولم يعد يجدي معها فهم ولا كلام، تقولين: «إننا مخدوعين ننام وتحت وسائدنا يختبئ الغدر». إن مجيء الطعنة من الظهر بسيف عربي، وممارسة الذبح في الفراش على يد أبناء العمومة قطف حلمك العروبي وقلب كل الموازين التي كانت «صروفها» تقدر مسيرة الأحداث وتستشرف مستقبلها «فأصبح التاريخ عاراً والحلم العربي غباراً» (ص. 80). يلاحقك شبح الخيبة هذا فيصبح مستقبل الحلم العربي كابوساً تفوح من حديثك عنه مرارة وأسى تسجلهما ألفاظ حديثك عنك المستقاة من قاموس الأحلام المزعجة ومقابر الأموات والشهداء، نسيجها استهزاء وسخرية من سؤال مستجوبك عن رأيك في واقع الوحدة العربية، تقولين: «أخشى أنني لم أعد أسمع الكمات جيداً. تسألني عن الحلم العربي؟ اسألوني عن الكابوس، فذلك هو الأكثر صدقاً وأمانة. لم يبق من الحلم العربي سوى شواهد الشهداء وقوافل المعذبين» (ص. 48). وتلتمسين من سائلك الرأفة بنا والعمل على نسيان الحلم الجميل فتضيفين: «ارحمونا بألا تذكرونا بالكلمة «الحلم»، لأنني أخشى أن نفيق على كابوس العدم كما ننام على حافته اليوم».

لئن كان جرحك عميقاً ويأسك قوياً وخيبتك لغدر الجار ـ الصديق مريرة فإن ذلك لم يؤثر في صمودك على جبهة الكفاح

والمساندة ولا في صلابة مواقفك إزاء كل كارثة يصاب بها أي بلد عربي ووفائك الدائم لتبني قضايا العروبة، ولم يقلص حجم الشحنة المتأججة في كوامنك لنصرة مختلف أقطارها والدفاع عن المقهورين من بني جلدتك تحت سمائها العربية، تقولين: «إن قضية أي دولة عربية هي قضيتي وأنا لا أخجل من ماضي، فقد كان موقفي قوياً، ولا زلت أدافع عن أي عربي يتعرض لأية مهانة» (ص. 17). إن إصرارك على هويتك العربية، رغم كل مظاهر التدجين والاستلاب، ورؤيتك البعيدة في أن لا مستقبل للأمة العربية إلا في رص الصف لبلوغ هدف الوحدة المنشودة حرك الوعي التاريخي الكمين في أعماقك ونفخ روحاً قوية في فتيلة مشاعرك المغذية للموقف الثابت في منظومتك السياسية لتعانق تلك المشاعر الموقف العقلاني، وتحلق من جديد في سماء التطلع والبحث عن آفاق إيجابية بوسعها أن تخرج الممكن من اللاممكن، وتحقق ما قد يبدو مستحيلاً، مصدرها الحب الصوفي الذي يتغلغل في الذات ويجعلها في تمازج حلولي رائق، يقفز على التحليل السياسي المشدود إلى معطيات مثبطة وينتصب منتصراً، فتلبس الذاتي بالوطني الذي لا يجد صورته إلا في الالتحام العربي الحي المنبثق عن إرادة الشعوب. وبأمل متجدد تصعدين من أعماق الأعماق أمنيتك مستصرخة أصحاب القرار «أن يخرجوا الأمة

العربية من الزنزانة، وأن يحجزوا لها جناحاً في فندق الحرية» (ص. 55)، وموجهة «برقية مستعجلة» إلى كل العرب متوسلة إليهم «أن اتقوا الله في أنفسكم».

عسى الله أن يحقق السلام والأمن لهذه الأمة العربية ويحيا الإنسان العربي حرا في وطن عربي حر.

إن شعلة الفتيلة العروبية المستعرة في أعماقك هي الطاقة المغذية لإيمانك بالقومية العربية بشكل لا يتزحزح، والباعثة لأملك الدفين في تحقيقها وإحساسك بذلك إحساساً غريزياً لا يقتله اهتزاز العديد من قناعاتك التي اغتالها بعض الزعماء، قادة أنظمة عربية مهزوزة بانخراطهم في فصول المسرحية التي قدم مشاهدها اللامعقولة الغزو العراقي للكويت، وتجاهلها رجال الفكر والأدباء والمثقفين العرب الذين ما أكثر ما سال مداد أقلامهم وبُحّت أصواتهم تبجحاً بمبادئ العدالة والديمقراطية، وحق الشعوب في تقرير مصيرها.. فكشفت الأحداث عن قزميتهم، حيث انزووا في أصواف خرفان يتفرجون من بعيد على لعبة «الكريدا»، ويترقبون نصيبهم من الغنائم عند بوابات المذابح الدامية وفواهات الخنادق المتأججة. هذا الإيمان العروبي والالتزام بالخط القومي الوحدوي لم تنطفئ جذوته، وظل نابضاً خلف الشرخ الفظيع الذي أحدثته أزمة الخليج، ولم تكن نقمتك على صدام حسين الذي انقاد لنرجسيته فانقض على

الكويت وحشاً مفترشاً سوى شحنة لتجديد إيمانك بالوحدة العربية كمنقذ من الظلام، رغم عتوه وفساده في الأرض. ويتصاعد لهيب هذا الإيمان مؤكداً: «إن الوحدة سوف تبقى دائماً هذه المدينة الفاضلة التي نسعى للوصول إليها رغم ارتفاع الأمواج وجنون العاصفة».

كأنني بك تقرئين ما يجول بخاطر بعضهم من التساؤل حول ما إذا كان العراق سيجد لديك موقعاً له في هذه الوحدة، فتبادرين لطمأنته قائلة: «بأن ما جرى لا يغير موقفي من العراق، فالعراق يبقى بشعبه، وبفضائله ومروءاته، والنظام العراقي، وليس العراق، هو الذي ارتكب ذلك الخطأ الفادح» (ص. 19).

صحيح أنها جراحات متوالية في مسلسل محكم من الانكسارات القومية التي تزودها كل صباح قطرة علقم تلهب شعلة احتراقك، ومع ذلك يظل هاجس القومية العربية يسكن سويداء قلبك في تمازج وانسجام مع هاجس الوطنية وحبك لبلدك الكويت. إنهما يشكلان روحاً طاهرة تسري في جسدك الذي يأبى إلا أن يظل صامداً في خندق الجهاد المقدس.

وما النصر إلا من عند الله، فليكن لك راعياً ولخطواتك مؤيداً ونصيراً.

باقة محطات :

«الثقافة سؤال . . .

من أجل واقع ثقافي أكثر نقاوة وفعلاً وطهارة . . .

الإنسان ثروة حضارية . . .

مأساة المواطن العربي : الغربة والمطاردة والاستلاب»

الحياة إثمار مستمر ونكهة إنسانية وإشراقة متميزة

الثقافة ليست جسراً تجارياً ، بل عمل هادف إلى خلق رؤيا جديدة

الثقافة هي البحث عن النفس وعن آلاف الأسئلة التي تعذبنا

حياة الذين يحترفون الثقافة تشبه حياة البحارة الذين يحترفون المجهول والمرافئ التي لا تأتي

أفضل ما تقدمه العولمة للإنسان هو أنها تجعل العالم يلامس جدران بيته

الاستنساخ طريق لاستئصال الإنسان بشكل مأساوي

المعاصرة الاجتماعية هي العيش في نطاق المعقول دون قيود ودون أن تفلت ، هي أن تمارس حريتك بعيداً عن التبذل

إطلالة خاطفة على بعض آرائك في قضايا المجتمع والثقافة وما حققه التقدم العلمي والإلكتروني من منجزات تطلعنا على الملامح العريضة لمحيط الفلك الفكري لحياتك بكل دفائقها ، وتسجل بوضوح انتماءك إلى وسط إنساني من مستوى ثقافي عالي وحضاري متميز ، وإلى بيئة جغرافية بحرية لها خصائص طبيعية فذة وأعراف نبيلة راسخة . قوائم هذا الهيكل مفاهيم قاعدية يشكل الإيجابي

فيها نسيج فكرك ومزاج طبيعتك، في مقابل السلبي المرفوض. لحمة هذا النسق توترك الدائم نحو المزيد من اختراق المجهول في طموح لا ينتهي. فالمعقول هو ما يفلت من الخروج عن الجادة، والحرية ليست تبذلاً، والصداقات الحق خير وأردؤها ما يجر الشر، والحياة المجتمعية إثمار مستمر وحب صافي وقيثارة حلم ونكهة إنسانية وإشراقة متميزة، وعالم غير ملوث. يعكر صفوها جراح القلب العميقة التي تحفرها سكين الغدر والخيانة في التعامل مع بني الإنسان. وسر تمثل هذه القيم وجوهرها هو الحفاظ على أخلاقيات الضمير الواعي واحترام النفس وتقدير الآخر والحيطة من تقلب بعض من يستغلون إحسان المرء وعطفه. ذاك فانوس المسيرة المستنيرة في نفق الحياة المظلم.

إن الخروج، من فترة لأخرى، من بر الكون إلى ماء بحره هو الوسيلة المفضلة لديك للتسامي عن «تراب الأرض». فلا غرابة، إذن، أن يستعير تعريفك للثقافة صورة البحارة في خوضهم مجاهيل البحر بحثاً عن نفائسه، واقتباسك من قاموس بيئة الكويت البحرية ألفاظاً ومفاهيم سكنت أعماقك من معايشتك لها والتفاعل معها في ظل تقاليد بلدك العريقة. فالثقافة «إبحار مستمر بين حروف الأبجدية، هي البحث عن النفس وعن آلاف الأسئلة التي تعذبنا، علنا نجد جواباً عنها. إن الثقافة سؤال...» (ص. 122) والسؤال

عنوان الحياة الفاعلة والمنفعلة، إذ ما كان الجمود قط مؤشر خير وطموح.

وكما تقولين إن «الإنسان الذي لا يسال يأخذ أوصاف الحبر وثباته. إن حياة الذين يحترفون الثقافة تشبه حياة البحارة الذين يحترفون المجهول والمرافئ التي لا تأتي» (ص. 122). إنهم لذلك في مسيرة مستمرة وبحث دائب. ألست «امرأة بلا سواحل». إن رؤيتك الفكرية العميقة كما نستشفها من مختلف مواقفك وتحليلاتك تقوم على قدمين راسختين في توازن واعتدال: الثورة على الجمود والحدود المقيدة، والعمل بمنطق وعقلانية. فالمعاصرة المجتمعية هي العيش «في نطاق المعقول دون قيود ودون أن تفلت، أن تمارس حريتك بعيداً عن التبذل، أن تكون لك الصداقات التي تغنيك وتعينك على اكتفاء جمال الحياة وروعتها، أن تؤدي واجباتك الاجتماعية كعضو مثمر في مجرى التعامل مع الغير» (ص. 92).

أفضل وسيلة لاتقاء شر الآخرين هي احترامه انطلاقاً من احترام الإنسان لنفسه، الشيء الذي يفرض بالضرورة احترام الآخر له في حلقة محكمة الانغلاق على مشتقات الاحترام فاعلاً ومفعولاً به، ونائب فاعل، ومصدراً...

الصبر عنوان مقرك، والتأمل متعتك تجدينها في الصيد، دون

الرغبة في الفريسة التي يترقبها غيرك من الصيادين، وفي الخلوة والمشي «في الشاطئ على أطراف الماء والانفصال عن العالم» في محاورة للذات الباطنة واستنطاق تفاعلها مع الوجود وتأمين صحتها النفسية.

تؤيد سعاد الصباح التقدم العلمي، وتدعو إلى التفتح على الحضارة المعاصرة والاستفادة من معطياتها التي تسهل العمل والتواصل، فـ «الفاكس رائع في خدماته» و«الكمبيوتر عقل في خدمة العقل»، لكن لا فائدة في التليفون المحمول «إلا للضرورة القصوى». أما العولمة فهي، بالنسبة إليها، «انتصار الإنسان على البعد المكاني والجغرافي...»، وأفضل ما تقدمه له هو أنها «تجعل العالم يلامس جدران بيته» (ص. 53). هذه الإيجابيات لا تعني أن العولمة لا تنطوي على العديد من السلبيات التي تفرض نفسها. وترى سعاد أن بالاستنساخ شق العلماء المختصون في علم الجنيات «طريقا لاستئصال الإنسان بشكل مأساوي» (ص. 53). إن إسهام العلماء بفعالية في فتح هذا المسلك ينبئ عن عدم الاحتفاظ بأخلاقية المهنة، ويدعو إلى ضرورة إيقاظ الضمير المهني حتى لا نسقط بالإنسان في أسفل درجات التدهور الأخلاقي. فلا بد للبحث العلمي أن يستهدف، أساساً، الارتفاع إلى أسمى ما يحقق إنسانية الإنسان في جميع المجالات على اختلاف مستوياتها. أليست سعادة الإنسان هي الغاية

التي يجب أن تتجند من أجلها كل العلوم والفعاليات والطاقات.
هكذا نرى أن جميع الروافد على اختلاف منابعها ومشاربها تصب في نفس النهر، نهر تحقيق كرامة الإنسان وسعادته.

دار سعاد الصباح للطباعة والنشر والتوزيع : من القاهرة إلى الكويت من أجل واقع ثقافي أكثر نقاوة وفعلاً وطهارة ومسؤولية اتجاه أمتنا

إن نظرتك الشمولية إلى الثقافة العربية جعلتك مهوسة بالسعي إلى تنشيطها والمبادرة إلى خلق المشاريع التي تبعث فيها روحاً متجددة ، ولم تكن غيرتك على وطنك الكويت إلا لتقوي هذا الإحساس لديك فعنت لك فكرة إقامة مشروع يشفي الرغبتين .
لقد أبت عليك همتك إلا أن تجعلي من نشاطك الثقافي دفاعاً عن الكويت الذي رماه بعضهم، في طفرة النفط الخليجية بالانغمار والتيه في رفه النفط بعيداً عن مجالات الثقافة والفكر والعلم، وأصررت على أن تجعلي من واقعه المعيش دليلاً قاطعاً على عطائه الفكري وإشعاعه الثقافي مؤكدة أن الكويت ليس نفطاً فقط ، بل إنه أكثر من ذلك ، إنه ثقافة وعطاء فكري وإنساني متجدد .

كانت الحركة الثقافية في البلاد العربية تعيش في عقد السبعينات وبداية الثمانينات فترة جمود ، تعزى في مجملها إلى معاناة المثقفين من ديكتاتورية بعض الأنظمة العربية القائمة ، وإلى اليأس الذي دب في نفوس الجماهير التي أضحى البحث عن لقمة العيش يشكل

همها الأكبر ، وشهدت خلالها مصر ، التي كانت الساحة العربية المتأججة نشاطاً ثقافياً وعلمياً ، وحركة دائبة فكرية وأدبية مشعة ، سحابة جثمت على كبد سمائها ، ما كان لها أن تنقشع إلا بفضل بعض الانفراجات التي هللت في أفقها على يد ما قيضه الله لها من مساندة أقوام يؤمنون حقاً بما للثقافة والكتاب من دور في إيقاظ الشعوب وتهذيبها ، وبناء أجيال المستقبل بناء سليماً يقوم على قوائم راسخة من الانسجام بين ماضيهم الأثيل وما يقتضيه حاضرهم من الانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى والاستفادة من معطياتها وبين ضرورة استقلاليتهم في الفكر ، وإسهامهم في الحضارة الإنسانية الكبرى . وإذ نعلم ما تتميزين به ، أيتها الإنسانة المثقفة الحق والمفكرة الجادة ، من إنشداد إلى الثقافة العربية وتعلق بها ، وانفتاح على مختلف الثقافات المعاصرة ، ونعلم كذلك ما لك من تقدير لقيم العلم وفوائده الجمة وحبك لمصر التي قضيت على مدارج جامعتها الكبرى ، جامعة القاهرة أحلى فترات التعليم العالي والبحث العلمي ، فلن يكون غريباً أن نراك تطلعين نجماً في أفق هذا البلد الذي أحببته بإخلاص لتساهم في تبديد تلك السحابة وتعيد له ، بإسهامك الكبير ، زهو العمل الثقافي المشع دون تردد أو جدل أو مساءلة ، سائرة في درب من اختاروا القاهرة لتكون منبر كلمتهم ، ومنصة انطلاقتهم الثقافية المشعة ، من أمثال دور الطباعة والنشر

اللبنانية والشامية التي ساهمت بقسط وافر في بناء حركة الثقافة والإعلام والمسرح في مصر العربية. لقد كان اختيارك للقاهرة مقراً لـ«دار سعاد الصباح للطباعة والنشر والتوزيع»، في هذا الظرف الاستثنائي أكثر من معنى، فلقد كان عليك، كما قلت، أن تقرري أحد أمرين: «إما العمل الفوري لإثبات حقنا في الحركة الثقافية ودورنا فيها أو الابتعاد، ولو بسبب إعادة البناء. لقد كان قراري أن صوتاً للكويت مؤثراً في دنيا الثقافة، أمر لا يحتمل التأجيل خاصة وأن اختياري لمصر كان اختياراً طبيعياً لواحدة من أعظم منارات الثقافة العربية، كذلك فإن لمصر باعها النير في دفع حركة الثقافة والعلم في عالمنا العربي...» (ص. 27).

انطلقت الدار تعمل باعتماد صاحبتها على الإيمان بعون الله واتكالها عليه وحسن نيتها فيما قصدته، ولكن صاحبتها لم تكن مرتاحة إذ تصرح قائلة: «التجربة كانت على مدى عامين في بدايتها، وقد شعرت في أحيان أن إصداراً وأكثر لم يكن موضع الرضا العام، فضلاً عن عدم رضاي كناشرة» (ص. 25).

خاضت الدار تجربتها وكان أول إصدارها إعادة نشر المجلة المصرية العريقة التي ساهمت في بعث النهضة العربية في العالم العربي «مجلة الرسالة» في أربعين مجلداً، ثم سارت مسيرة متوازية بين ما تطبعه وتنشره، لذلك أقدمت على نقل مقرها، في صمت

العقلاء، على وطنها الكويت، وتبنت خطة نشر خاضعة لمقاييس حددها مجلس الأمناء ترمي إلى تنويع مستنير في الموضوعات والأسماء والبلدان. بعد مرور عامين على استقرارها بالكويت كانا حافلين بالإصدارات تبين لصاحبتها كما تبين لمجلس أمنائها «أن الكويت قادرة على احتضان هذه النواة، والاستمرار في تفجير قوتها البناءة من الكويت» (ص. 24).

عزز مسيرة الدار الإشعاعية الثقافية المتميزة إحداث صاحبتها جوائز تشجيعية للشباب، مثل جوائز معرض الكتاب الدولي بالقاهرة التي نالت نجاحاً فائقاً وكان له تأثير كبير في الساحة الثقافية العربية، وكذا جوائز أخرى تقديرية تخص بها أقطاب الأدب والفكر في العالم العربي. إنها قوة متدفقة، والتزام متجدد وواع.

جوائز «عبدالله المبارك» و«سعاد الصباح» دعم للمشروع الثقافي
وتشجيع للإبداع العلمي والأدبي الفكري لدى الشباب العرب .
ضرورة ترشيد رأس المال العربي في زراعة الأدمغة وري المواهب العربية الشابة

قبل تأسيس دار سعاد الصباح للطباعة والنشر والتوزيع كنا رأيناك ، أنت شخصياً ، وزوجك المرحوم الشيخ عبدالله المبارك تتخذان مبادرة ثقافية هامة فتقدمان على تأسيس أول هيئة عربية تتولى تشجيع مواهب الإبداع لدى الشباب العربي . إن ما تولونه من اهتمام خاص بالطاقات الإبداعية الشابة جعلكم تفكرون في إنشاء جوائز للمبدعين العرب من أبناء الجيل الجديد ، مجسدين بذلك ما لكم من ثقة بالقدرات الخبيئة في أعمالهم . لقد قررتم ، أملاً في تدفق جداول الإبداع الفكري والأدبي والعلمي لديه وإيقاد فتيلة تألق مواهبه الشابة ، تخصيص أربع جوائز سنوية لتشجيع إبداعه تحمل اسم : «جائزة الشيخ عبدالله المبارك للإبداع العلمي» ، وأربع أخرى باسم : «جائزة سعاد الصباح للإبداع الفكري والأدبي» ، وجائزة خاصة بالإبداع الفلسطيني . وبلغ

الاهتمام مداه بالتزام دار سعاد الصباح للطباعة والنشر بإصدار الكتب التي تفوز بهذه الجوائز، بالإضافة إلى ما تمنحونه من مبالغ مالية للفائزين. فكانت الدار بذلك أول ناشر يفتح أبوابه للشباب دون أية نقاط تفتيش.

وظللت وفية لهذه الأمانة في أقسى الظروف والأزمات التي عرفتها الكويت، فلم تتوقف الجوائز ولا طبع الكتب الفائزة في فترة الغزو المشؤوم تحدياً وصموداً وإيماناً منك بأن ذلك عمل تنويري يسهم في ازدهار الثقافة العربية بقدر ما يسهم في ما لحبيبتك الكويت من إشعاع فكري، وما للثقافة في رحابها من نشاط وحيوية. وحفاظاً على المستوى الرفيع للإبداع لم تتردد الدار في حجب هذه الجوائز حينما تبين للجنة المسؤولة أن النصوص التي تقدمت بها الأقلام الشابة تخلو من الجدة ولا ترقى إلى المستوى الرفيع المتميز، كما لا تالوا الدار جهداً في تحسين سياسة الإعلان عن الجوائز وتنوير منابر الإعلام عبر مختلف أقطار العالم العربي، منادية بضرورة رفع الحجر عن الطاقات الإبداعية الشابة «وترشيد رأس المال العربي حتى يقوم بدوره في زراعة الأدمغة، وري المواهب العربية حتى تخضر وتزدهر» (ص. 90)، وإقناع الأغنياء العرب المتوافرة لديهم الإمكانات المالية «بأن العقل هو أيضاً أرض للاستثمار، وأن الثقافة إذا احتضنت تفجرت ذهباً

وكنوزاً». إن تحقيق ذلك سيسعف لا محالة على استمرارية التدفق الإبداعي، ويجعل العقول العربية تمتلئ بالدرر والرياحين. ويبقى لك الفضل أولاً وأخيراً، أيتها المثقفة المناضلة، فيما تولينه بدون انقطاع من دعم لهذا المشروع الثقافي الذي يفسح المجال أمام المواهب الشابة.

تكريم رواد الثقافة العربية الأحياء

ميدان مشرع الأبواب أمام كل من يؤمن بدور له في الوفاء لهذا الجميل الريادي

لم تكن تلكم النشاطات المكثفة التي تمارسينها، لتحجبك عن التفكير الدائم في مبادرات جديدة للمزيد من الإسهام المنشط للحركة الثقافية على مدى الوطن العربي بكل ما لك من إمكانات فكرية ومادية وجاه. فتأتي مبادرة أخرى لتجسد النبل المتأصل فيكم، وسمو نفسك وتفانيك في خدمة الفكر والثقافة وتعلو إلى مقام ما تقوم به بعض الأمم والدول، بل إلى ما يستطيعه العديد منها. ويحل عام 1995 وتحل معه مبادرة لك غير مسبوقة: تكريم رواد الثقافة العربية الأحياء، مبادرة شكلت بحق الجوهرة التي رصعت تاج الصولجان الفكري والثقافي الذي يعلو راس الشاعرة المثقفة، فتكون داركم السابقة إلى تكريم كوكبة الرواد المبدعين الأحياء «على امتداد العالم العربي وليس من دولة الكويت وحدها» (ص. 25)، ممن يستحقون الإجلال والتبجيل، وفاء لما بذله جيلهم الطلائعي الذي قاد الحركة الأدبية والإبداعية والفكرية في وطننا

العربي . ويأتي انتقاء اللجنة المكلفة للرواد المكرمين انتقاء موفقاً يعبر بحق عن التصورات الفكرية والأدبية التي ارتسمت في ذهنك يوم خطر لك اتخاذ لم هذه المبادرة الطيبة .

إني إذ أبارك جهودك هذه ، أؤكد لك اعتزازي بها ، وافتخاري بعمل ثقافي يسهم في لم شتات ما تفرقه السياسات في وطننا العربي ، ويسهر على تمتين الروابط بين مشرق أمتنا العربية ومغربها . إن الثقافة تظل السلاح الأقوى لمواجهة كل عناصر التفرقة والتشرذم مهما طالت أسلحة الزعامات العربية المسخرة لإرضاء ما يمليه عليه صاحب الحل والعقد في زمن الرداءات والاندحار تحت وطأة القوى الدولية المهيمنة .

طوبى لك ولكل من ينهج الخطة العقلانية التي تسمو على كل مبايعة وتبعية .

الصحافة ناقدة يُطل منها الشاعر ليقول لجمهوره ما لم تقله القصيدة
على الفضائيات العربية ألا تتحول إلى مجرد كازينوهات للرقص والتسلية
وإفساد الذوق العام والأجيال الجديدة

يسألونك أيتها الشاعرة المنصفة عن رأيك في الصحافة فتقولين : «إنها نافذة الضوء التي يطل منها الشاعر ليقول كلمته، شعرية أو غير شعرية كما هو الحال في اللقاءات الصحفية» (ص. 38)، يعلن عبرها كل مبدع عن هويته الإبداعية بالحديث عن تجربته المتميزة وتقييم إنتاجه وتوصيف ما يحمله ويحلم بإنجازه من مستجدات عطاءاته.

إن كل مبدع وفنان والشاعر خصوصاً، يعيش في توتر نحو آفاق أسمى لتجربته الفنية الإبداعية. وحينما يرتمي في أحضان القارئ والجمهور، أي الآخر المتلقي ويسلمه عن طواعية إنتاجه فإنه يودعه المفتاح الذي يستطيع أن يدخل به عليه متى أراد وفي كل آونة وحين يفتح الأبواب ويحاول فك شفرات ما يتوهمه عن إبداعه للتأكد من تكهناته والإعلان عنها حينذاك لا يبقى للمبدع، وقد أضحى مملوكاً لقارئه، سوى أن يبادله الجهد، ويمهد له طريق

الفهم، ويوفيه حقه في التعرف عليه. هنا تتجلى أهمية الصحافة كـ«نافذة للضوء». فمن خلالها يعرفه بذاته، وينقل إليه أخبار ما يسكن بين فواصل كلمات إبداعه وسطوره من مسكوت عنه، ومما لم يجد له بينها مكاناً، وعجز قلمه أو ريشته عن تبليغه إليه فظل في حنجرته يترقب الفرصة التي تسمح له بها نوافذ الإعلام بمختلف وسائله. لا جدال إذن، كما تقولين، في أن «الشاعر يتحول إلى شخص مملوك لقارئه، ولذلك يكون من حق جمهوره عليه أن يحدثه ويعرفه بذاته ويقول له ما لم تقله القصيدة، أو ما لم يسمح الشعر بإعلانه» (ص. 38).

إن للصحافة والصحفيين في قلبك مكاناً متميزاً. تقدرين «فئة روادها» الفدائيين الباحثين عن الحقيقة خصوصاً من يعمل منهم في زنزانة الاختناق والضغط الكابت للحريات. تقدرين الصحفيين لأنهم كما تقولين: «ينتمون إلى فئة الرواد والفدائيين والباحثين عن الحقيقة ولاسيما إذا كانوا يكتبون في مجالات فضاء الحرية فيها محدود» (ص. 53). وتمجين منهم من يتصيدون استفزاز الآخر والتجني عليه، إذ مهما كانت الذرائع التي يلتمسونها، يظلون في عداد الذين يأكلون خبزهم من فضائح الآخرين. ومن الطبيعي أن تستثير سباحتك ضد تيار فئة منهم، هذه حالها، غضب بحرهم الهائج على الدوام. ومن الطبيعي، كذلك، أن تشكل قصائدك

بما يفعهما من قوة وصدق وروعة طعنة تصيب حتى الأعماق هراءات المتشدقين والمتملقين. ومن الطبيعي، أخيراً، أن نراك لثبات مواقفك تظلين في شموخك الإبداعي غير آبهة لاستفزازاتهم، مطمئنة للجماهير العربية الصادقة المتعطشة، على الدوام، إلى المزيد من عطاءاتك الشعرية المتميزة، تظلين مرتاحة الضمير لتوفقك في أداء رسالتك. ولا يسع من يعتقد أنه يستطيع شرب مياه البحر إلا أن يفعل، فكما تؤكدين ذلك: «كل سباحة ضد التيار تثير غضب البحر، وإن كل قصيدة مدهشة هي سكين في لحم الخرافة» (ص. 53)، لكن ذلك لا يضعف معنوياتك ولا يقلل منها إذ تضيفين قائلة: «وما دام الشعب العربي معي يقرأني... ويسمعني ويتابع أمسياتي فإن جبيني سيبقى مرتفعاً، ورايات ستبقى خفاقة» (ص. 53).

يعزز الصحافة المقروءة والمسموعة، منذ عقود، القنوات التلفزية المرئية التي فتحت مجالاً أرقى وأبلغ للتواصل مع الجمهور وتنشيط العمل الثقافي بشكل عام. وتتفاوت نسب توفقها وتفوقها في أداء رسالتها الثقافية من فضائية لأخرى عبر العالم. ولا يشذ عن ذلك واقع الفضائيات العربية، ورأي سعاد الصباح صريح في أنها تساندها شريطة أن تقدم لنا، كما تقول: «العلم والمعرفة والتوعية والبرامج الأدبية الراقية»، وألا تتحول إلى «مجرد كازينوهات للرقص

والتسلية وإفساد الذوق العام والأجيال الجديدة» (ص . 54) .

لعل ما يؤخذ على بعض الفضائيات من تقصير في القيام بدورها الثقافي والفكري والفني على الوجه الرفيع المأمول منها ، يعود في نظرك إلى ما يجبر عليه العاملون فيها من رضوخ إلى ما تحيطهم به السلطات القائمة في البلاد العربية من سياج مكهرب يقلص مجال التصرف فيما يرغبون في بثه من برامج . ولن يتأتى لفضائياتنا العربية القيام بالدور المنوط بها إلا بمزيد من الحرية للكفاءات العاملة في أحضانها التي عليها ، بدورها ، أن تتسلح بالشجاعة والإخلاص لمهنتها الخطيرة وللعمل الفكري والفني خدمة للجماهير العربية وسعياً لتوعيتها . وأمل شاعرتنا المفكرة كبير في أن يرتفع مستوى فضائياتنا وترتقي إلى ما يسمح لها بأن تكون بحق من الجماهير وإلى الجماهير ، ترفل في أقمشة قشيبة من الديمقراطية والوعي والأصالة والانفتاح ، على غرار ما تحظى به في العديد من الدول المتقدمة . فلا تطور للإعلام العربي إلا «بمزيد من الحرية وبمزيد من الشجاعة وبمزيد من توعية الجماهير العربية» (ص . 54) .

نأمل ، نحن كذلك ، أن يكون صوتك مسموعاً ورغباتك النبيلة ملباة ، وآمالك محققة لازدهار الصحافة .

أوربا تقيم صروح الديمقراطية ونحن نقيم الديكتاتوريات
أوربا ترى في الإنسان ثروة حضارية ونحن نراه حذاء قديما يداس وينزع

إذا كانت سعاد الصباح تنتقد ما أصبحت عليه أوربا عموماً من «روبوتية» في السلوكات وجمود في العواطف، واندحار تحت وطأة الماديات، فإن ذلك لم يمنعها من اتخاذها مرجعية في بعض ما يسودها من قيم سارت بها حثيثاً إلى التقدم والرقي. يأتي في طليعتها سيادة حقوق الأفراد والجماعات على السلطة المسيرة، عكس ما هو عليه الوضع في البلاد العربية. يرجع ذلك، في رأيها، للاعتبار الكبير الذي يخص به الإنسان في أحضانها، مهما كان مستواه الاجتماعي والثقافي. فالإنسان هناك إنسان بكل الأبعاد التي تحدد مفهومه. إنه الغاية التي تسهر الأنظمة في تراتبياتها والمنظمات أو الهيئات على اختلاف أسمائها ومراكزها لتحقق له ظروف عيش محترم، بينما نراه عندنا درجات متفاوتة تتدرج من «التأليه» إلى الاستعباد المفضيان إلى المزيد من التدهور والتقدم الحثيث نحو التخلف في كل صوره وأشكاله. فلا غرابة إذن أن تعيش بلداننا حالات قهر تراتبي هو أيضاً، فالطبقات الشعبية

مقهورة تحت حكامها، والحكام مقهورون تحت سلطة سادة العالم حفاظاً على مراكزهم القيادية. الجميع في القهر سواء، والنتيجة أننا سنظل في بؤرة المنظور إليهم نظرة تحقير وتنقيص. والعيب ليس عيب الآخر بل عيبنا نحن كأمم «كبشية»، مغلوبة على أمرها، لا نعترف، على الأقل، بما لا يزال نسبياً يميز شعوبنا من أصالة وعفة وطهر، ونعمل على الحفاظ عليه كيما نستطيع الصمود أمام تيارات التبعية الجارفة التي تمسخ قوامنا كأمة لها جذور وقدرات، وتلقي بنا في التشرذم والاستكانة إلى العيش عالة على الآخر وتحت رحمة صندوق النقد الدولي والهيآت الأممية الخانقة وغيرها، إن سر نجاح التجربة الأوربية وتجارب الأمم الأجنبية وتقدمها وفشل تجاربنا نحن وتخلفنا، كما تؤكد ذلك سعاد الصباح، يكمن في قبضتها هي على زمام البحث العلمي ورغبتها في المعرفة وتيسير وسائل اقتحام مجالاتها وتفوقها التكنولوجي واستغلال معطياته، وخصوصاً اختيارها للحرية الملتزمة وانشدادها إلى الديمقراطية بينما نزداد نحن توغلاً في الجهل وفي الديكتاتورية ويتكاثر بيننا المشعوذون والدجالون وماسحو الجوخ والمرتزقة، وننسى أننا نعيش في عالم لا يرحم الضعفاء، فلا عجب إذن أن ينظر إلينا نظرة تنقيص عموماً. على أن نظرات الغرب اتجاهنا تختلف حسب درجة احتكاكه بنا وتعرفه على ثقافتنا. إننا نحن المسؤولون إذا

كانت هذه النظرة سلبية في بعض الحيان، لأننا نقدم النموذج لها، وكذلك هي مسؤوليتنا نحن حين تكون نظرته إلينا إيجابية تكبر فينا تقدمنا وإمساكنا بناحية حضارية. ولا سبيل لتحسين صورتنا، كما ترى سعاد، «إلا بالعمل على أن نستفيد من تجربة الصيف لنقول العالم إن العرب ليسوا بقايا تخلف العصر، بل هم شركاء في التقدم، لنقدم النموذج الذي يستحق الإكبار، عندها لن نجد في الغرب من يرى فينا مجرد مستهلك شره» (ص. 136).

إذا شمر العرب عن سواعدهم، واستغلوا طاقاتهم الكمينة أمكنهم أن يحتلوا المكانة التي تليق بهم في العالم، لكن المؤسف له هو أن وضعهم الحالي لا يوحي بالتفاؤل مقارنة بما هو عليه الأمر في أوربا. فبينما استطاعت معاهدة ماسترست، في باريس، أن توحد أوربا الخمسة عشر، وفي الوقت الذي تعمل فيه الأمم المتقدمة على تجميع قواها بمزيد من التكتل لفرض سيطرتها «نجد أمتنا متنابذة لا تسمع ولا تفهم ولا تشعر بهذا الزلزال الذي يهز أعمدة العالم (...). وبينما هم يقيمون صروح الديمقراطية نقيم نحن الديكتاتوريات، هم يرون في الإنسان ثروة حضارية ونحن نراه حذاءاً قديماً يداس وينزع، هم يسافرون إلى القرن الحادي والعشرين بالكونكورد ومراكب الفضاء، ونحن ندلف إلى القرن العاشر بحمارة عرجاء».

على المفكر الحق أن يمارس دوره الإصلاحي والنضالي من أجل التغيير. ذاك ما تنادي به مفكرتنا رافضة الانسياق مع الحكمة الهندية القائلة: «لا أسمع، أرى، لا أتكلم»، وتدين الهروب من مواجهة الحقائق لاسيما في دول مثل دول العالم الثالث، والعالم العربي منها، لما نحتاج إليه من نضال ومزيد من الجدية والتبصر في العمل والتعرف على ما يحيط بنا كيما نتهيأ لمواجهة قضايا ومعارك القرن الواحد والعشرين الذي استهل بحرب غاشمة هوجاء.

المنفى الداخلي هو منفاي الحقيقي لأن أحزان الإنسان لا تصنع
ودموعه لا تخترع
الغربة التي يعانيهما المواطن العربي هي غربة الروح والفكر
كلنا غرباء . . ومطاردون ومستلبون

شكلت نشاطاتك، أيتها المناضلة، مسيرات كفاح دائب وعطاء مثمر . ورغم ما يشغل عقلك من قضاياك الخاصة ومآسي العروبة، ومشاكل الإنسان ككل كان بينك وبين الهموم دائماً حجاباً مستوراً نسيجه شعورك بأنك تؤدين الأمانة بإخلاص ولا تسيئين إلى الناس ولا تغدرين بصديق ولا تحبين إغضاب أحد، ودفئه تذوقك طعم راحة البال واستسلامك لنوم هادئ بعين قريرة .

ورغم ذلك لم تسلم أعماقك من الشعور بالغربة، شعوراً يكسو ملامح وجهك مسحة حزن شفيف، لا تستأذنك في التعبير عنه، من خلال المنطوق به والمسكوت عنه، بين فواصل الكلمات حيث نجدك عنواناً بارزاً بكامل فحواه . لم يكن بوسعك أن تنفلتي من سنة الله في خلقه، فمن شيم عباده المخلصين ما يعتريهم في لحظات التأمل في الذات الباطنة من إحساس بالغربة في كون تتشابك قضاياه

فتتفاعل معها أرواحهم في توتر دائم إلى ما وراء الكون، العالم الأخروي الذي تطمح في أن تفوز فيه بالسعادة الأبدية والراحة المطلقة. كأني بك أيتها المفكرة المبدعة آلة عزف مشدودة الأوتار كلك إحساس بما يحيط بك مما يروج في العالم، تنفعلين له برصانة، وتعملين جاهدة لتفادي إسقاطاته السلبية بتصعيدها إلى عالم المثل والأخلاقيات المتسامية. وما أخال أن صفاء سريرتك وطيبة نفسك هو ما يمكنك من النظر إليها بكل حكمة وتعقل، وتجاوزها من غير انهيار وتوتر. ولئن ظلت بصمات الغربة طيفاً تداعبك أحجامه المتبدلة والمتقلبة من غير افتعال ولا تصنع، حسبك أن لك من الطاقة والفاعلية ما يجعلك تعي مختلف أحجامها ودقائق مكنوناتها. عديدون أولئك الذين يلبسون عباءة التظاهر بما لا يبطنون من مرارتها، أما أنت فإن استيعابك للويناتها فصيح في تعبيرك الصريح عن المنفى الداخلي الذي يشكل الغربة الحقيقية للإنسان من خلال الرد على من اتهمك بتصنع الإحساس بالاغتراب في أشعارك، تقولين: «هناك غربتان: غربة الجسد وغربة النفس، فتغير المكان أو تغير العنوان أو تغير اللغات والأصدقاء لا يسمى في اعتقادي غربة؛ لأن الاغتراب الحقيقي هو في داخلنا، إن الذين يعتقدون أنهم إذا لبسوا القبعات وارتدوا معاطف المطر أصبحوا مواطنين فرنسيين أو بريطانيين لا يدركون أن غربتهم هي غربة سياحية ومعاناتهم هي

معاناة سطحية. كم من مواطن موجود في وطنه هو أكثر اغتراباً من المهاجرين عنها، وكم من مواطن يعيش في مسقط رأسه وهو بالفعل لا يعيش. والمواطنون العرب الذين حكمت عليهم الظروف أن يعيشوا في ظل أنظمة لا تعترف للإنسان بحرية الحوار أو حرية الصراخ أو حرية الغناء، أو حرية البكاء... هؤلاء المواطنون يستطيعون أن يصفوا لنا ما هو المنفى الداخلي، وما هي عذاباته» (ص. 122).

إن معاناتك من اهتزاز أوضاع أمتك وهلهلة نسيج وحدتها، ومما يعانيه بنو جلدتك من المستضعفين في الأرض عبر جميع أنحاء العالم هو ما يشكل الجرح العميق لمنفاك الحقيقي، منفى الذات الداخلية الموجودة بين الذوات القائمة جسداً لا روحاً ومعنى، تضيفين قائلة: «هذا هو المنفى الداخلي، وهو منفاي الحقيقي وأنا لا أخترعه أو أصطنعه لأن أحزان الإنسان لا تصنع ودموعه لا تخترع» (ص. 122).

هذه المفارقة المتجلية في حضور الذات مع الشعور بالغربة تتأكد، حسب ما ترين، لدى المواطن العربي لا يقدر مفعولها سوى من يعانيها. إن الغربة الجسدية لا أهمية لها إذا قيست بغربة الروح والفكر، المنفى الحقيقي المر المذاق. ذاك ما يعاني منه المواطن العربي في زمن تتأبى عنه كل الأسماء، وتضرب وطأة همومه

الرقم القياسي يضيق لها صدر المبدعين والفنانين والمفكرين الحق، الذين هم وحدهم يقيسون أحجامها، وينفعلون لتأثيراتها فتتحول غربة قائمة في اللاشعورهم، تغرقهم في طروحات تفاعل المرئي باللامرئي، وتفاعل الأنا مع الآخر داخل علاقات سلب اطرادي وعكسي، تقولين: «الغربة الجسدية لا أهمية لها، لأن كل الكائنات تتأقلم مع الظروف الجديدة والتغيرات الفيزيائية التي تتعرض لها، فالنباتات تتأقلم، والطيور تتأقلم، والأسماك تتأقلم، والثياب تتأقلم على جسد لابسها، ولكن الغربة التي يعانيها المواطن العربي في هذا الزمن الذي لا تسمية له هي غربة الروح وغربة الفكر، وفي هذا المعنى كلنا غرباء ومطاردون ومستلبون وهذه الغربة الداخلية لا علاقة لها بالمكان، فقد يكون بيتك كالجنة ومع هذا تشعر بأنك وحيد وغريب ومستلب» (ص. 109).

ومع ذلك تظل سعاد الصباح في غربتها تمسك بعصى الحكيم الذي يضبط مقادير علاجات الأدواء، يستأصل ما يمكن استئصاله منها، ويرصد لما لا ينفع استئصاله الاستشفاء المستمر والتكيف مع ما يقتضيه التعايش مع الواقع وحتميات الوجود. وبكامل المهارة يتم لك التوافق والانسجام مع سمفونية الحياة المتواصلة المباركة بلا نشوز ولا تنافر.

خاتمة

وبعد، عزيزتي الدكتورة سعاد الصباح، تلك كانت رحلتي الميمونة في رحاب هوياتك المتميزة الثرية وأبرز محطات ومعالم مسيرتك الأسرية والعلمية والإبداعية والثقافية والنضالية في شتى مناحيها ومختلف أنشطتها. لم تكن متعتي بها أقل من سعادتي بما وفقني الله إليه من تحرير هذا السجل ـ الشهادة وبما حرصت عليه من موضوعية ونزاهة وصدق مع الذات الشاهدة فيما سجلته من شهادات وأحكام وأحاديث تخص المشهود لها.

كان بودي أن تطول رحلتي معك، أيتها الأخت العزيزة، إلى أبعد مما قطعته وسجلته بين دفتي هذا العمل المتواضع، فمتعتي بكل خطوة خطوتها في درب حياتك، وبكل لحظة قضيتها في أزمنة عمرك كانت لي حياة متجددة، تشحنني قوة على السير قدماً، مقتفية آثار خطواتك عبر دواوينك الشعرية ودراساتك ونشاطاتك المتعددة إقامة وضعنا، قراءة ومعاشرة، للمزيد من النفاذ إلى أعماق صرحك الممرد من قوارير، صرحك السهل الممتنع في ذات الآن. فبقدر ما تبدو شفافيته معلماً على سهولة الوقوف على أسراره

وكشفها والاطلاع على مكنوناته والتعرف عليها، بقدر ما كانت انعكاسات أنواره ولمعان مصفحاته الزجاجية الشفافة تعمل على الحيلولة دون ذلك. كشفت عن ساقي لدخول الصرح فإذا بهيبة تتملكني، ووجدتني أردد من أعماق قلبي: بورك الصرح وصاحبته والخجل يغرقني لما في هذه الشهادة من تقصير يشفع لي فيه أنها مناجاة تنطق بإعجابي الكبير بك وتقديري الخالص لك، وعربون محبه ووفاء لصداقة أعتز بها وذكريات احتفظ بها لك شاعرة مثقفة ومفكرة مناضلة وأميرة استثنائية وإنسانة أبية.

لك أقدم هذا السجل ـ الشهادة تكريماً للكلمة، وتكريماً للإنسانة التي اصطفاها الله لفعل الخيرات وجمع فيها ما تفرق في العددين غيرها، وخصها بالإمارتين، إمارة النسب وإمارة الشعر، وزانها بالثقافة والفكر والخلق الحسن. هنيئاً لك بما أنت هي، وهنيئاً لنا ولكل الأدباء والشعراء والمثقفين والمفكرين العرب بنجم سطع في عليا سمائهم. أؤكد لك ما أكنه في أعماق قلبي لك من محبة وتقدير وإعجاب، وليدم إبداعك في العلا وجهودك متواصلة وعملاقة، ويبقيك جوهرة وسطى في عقد الثقافة العربية، وذخراً لها تغارين عليها وعلى أصحاب الكلمة الملتزمة والذوق الأدبي الرفيع، تشجعين المبدعين من شبابها وتحتفين بالطلائعيين من روادها.

تلك شهادة متواضعة، أملي أن تنال رضى القراء. من يدري،

قد تسمح الظروف بفرصة أخرى، فأدخل من جديد صرحك الممرد وأستأنف شوطاً آخر معك من رحلتك الممتعة الميمونة، في عمر مديد إن شاء الله.

لك من العلي القدير، جل علاه، المزيد من التوفيق والسداد وليبوئك دنيا وآخرة، أعلى المقامات وأسماها عزه وسؤدداً وجاهاً وقدراً، ويديم طلعة وجهك مشرقة نوراً وبهاءاً، وإشعاع إنتاجك وقوة وعطاء. وليحفظك وذويك بما حفظ به الذكر الحكيم محفوفين برعايته وبحرس عينه التي لا تنام.

ولك مني خالص المودة وكامل التقدير، فبخصالك الإنسانية السامية كل اعتزازي، وبشاعريتك وثقافتك وفكرك ونضالك ووطنيتك وعروبتك كبير فخاري.

الفهرس

مقدمة 5

أنا امرأة لها ثلاث هويّات

الهويّة الأولى : هويّة عائلية بحكم الانتماء، ولادة وزواجاً،
إلى آل الصباح 41
الهويّة الثانية : هويّة ثقافية، اكتسبتها بالعمل والإرادة والتصميم 75
الهويّة الثالثة : هوية الشعر «أنا مواطنة عربية خليجيّة
يشكل الشعر إرثاً تاريخياً لها،
ويشكل الإيقاع الشعري جزءًا من تركيب دمها»........ 93

مرافعات

المرافعة الأولى : من أجل المرأة العربية «أريد أن أفك «الحجر التاريخي»
عن عقل المرأة لأن بقاءها في الكرنتينا أو في
مستشفى المعاقين سيجعل المجتمع كله معاقاً»......... 173
المرافعة الثانية : من أجل حقوق الإنسان «رصيدي في الدنيا هم
الأصدقاء... صديقي الإنسان هو غايتي...
وأنا مستعدة أن أعطي ضوء عيني من أجله،
بصرف النظر عن جنسه ولونه ولغته»............... 209

المرافعة الثالثة : من أجل الطفل العربي «إنه يفتح عينيه ليجد نفسه
منفياً مثل أبويه ، وضائعاً مثلهما،
وفاقداً لحس الانتماء مثلهما»........................ 229
المرافعة الرابعة : من أجل الكويت «كل مدائن العالم هي مدني . . .
من أجل الكويت أعمل ولغدها المشرق أبقى
في خندق الكتابة».............................. 235
المرافعة الخامسة : من أجل العروبة «أنا قومية عربية وحدوية . . . الجنس
لا يعفي أحداً من المشاركة في الدفاع عن البيت العربي
والمستقبل العربي ومقومات وجذور الأمة العربية»... 267

باقة محطات

«الثقافة سؤال . . . من أجل واقع ثقافي أكثر نقاوة وفعلاً وطهارة . . .
الإنسان ثروة حضارية . . . مأساة المواطن العربي :
الغربة والمطاردة والاستلاب»................................ 283
خاتمة 313